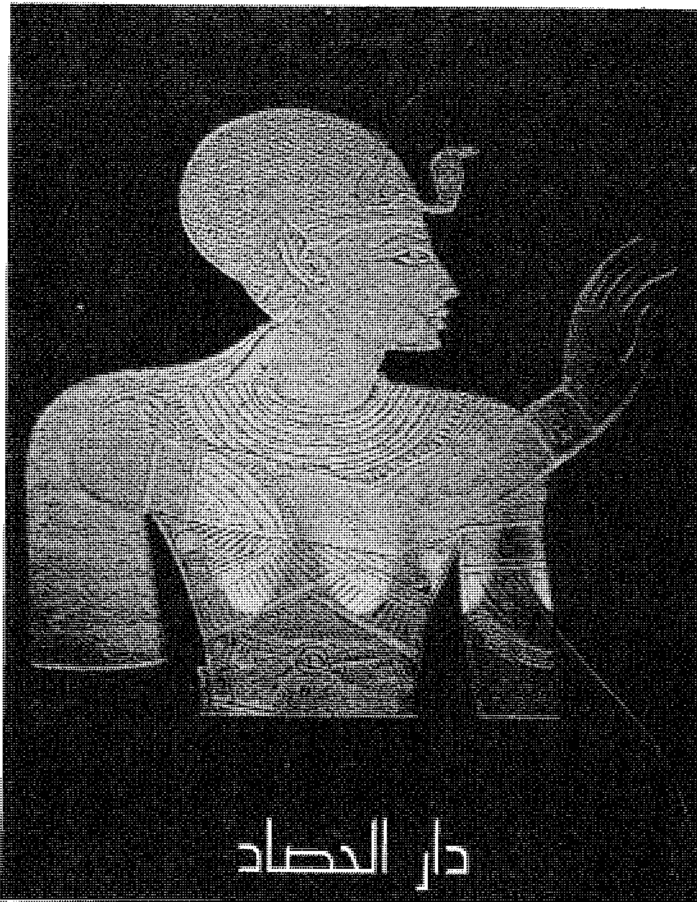
الفرعون الأخير

رمسيس الثالث
أو زوال حضارة عريقة

تأليف : فو . فات

ترجمة : فاطمة البهلول



دار الحصاد

الفـرعــون الأخيــر

أو

زوال حضارة عريقة

فرانسيس فيفر

الفرعون الأخير رمسيس الثالث أو زوال حضارة عريقة

ترجمة: فاطمة البهلول

فرانسيس فيفر هو مؤرخ ومدرّس له عدة مؤلفات نشرت في دار النهضة /Presses de le Renaissance/ منها: أسياد الصحراء؛ وسيرتين اثنتين هما: تيودورا إمبراطورة بيزنطة وفرعونة طيبة؛ وثلاث روايات تاريخية: فرعون، مقدونيا، والطريق إلى فرنسا.

الفهرس

الفصل الأول

جـروح مصر

هناك، في سهول دلتا النيل الواسعة، تمتد الأسوار المبنية من الطين الأحمر إلى مالانهاية، مشكّلة متاهة من القصور المظللة بأوراق الأشجار، تشرف عليها هنا وهناك الحاميات البسيطة البناء. وحدها واجهات المعابد في الجهات الأربع من المدينة تشير إلى حدود بي - رمسيس Pi - Ramses ، مدينة الفراعنة، العاصمة الأخيرة للإمبراطوية التي بلغ عمرها ألف عام في فجر هذا القرن، الثاني عشر قبل الميلاد.

وترفرف رايات الحرب فوق أعمدة كبيرة، مزينة الأسوار المقدسة لبيوت الآلهة وشاهدة على رفقها، فأسياد الكون الخالدون يسهرون على ملك الأرض السوداء، ملك مصر القديمة التي حكمتها عشرون سلالة ملكية.

تبدو المدينة وكأن الحرارة ترهقها وهي الغارقة في نعيم ازدهارها. الإزدهار! كيف لا والمئات من القوارب الكبيرة ذات الجآجيء المرتفعة مربوطة بقلاس إلى الموانىء المنظمة في الترعات المحيطة بها؟ كيف لا وأعداد هائلة من الرجال منهمكة بتفريغ البضائع القادمة من وادي الفرات ونوبيا، ومن الموانىء الفينيقية والسهول الإفريقية؟ فعطايا النيل لم تكن يوماً أكثر سخاءً منها في هذه الأماكن من شمال مصر، حيث يمد النهر الكبير، الذي ألّه في شخص هابي Hapy ، ذراعيه الكريمتين في دلتا واسعة تتخلل الحقول والآجام. هنا يتلألأ الماء في كل مكان حتى عندما ينحسر الفيضان النافع وتَسحب المياه من كل التشعبات الفرعية للنيل بواسطة قنوات حفرتها أجيال من الفلاحين العاملين تحت إمرة نساخ فرعون.

تعيش بي رمسيس Pi - Ramses على إيقاع النيل، ولكنها بُنيت على الطرف الشرقي للدلتا. وتميز عين الصقر المحلق في السماء كحورس رمال الصحراء العربية في الشرق، ومن ورائها بلاد آسيا التي لا يمكن سبر أغوارها.

في ظل طالع سعيد بدأ حكم الفرعون سيتنخت. كان ذلك قبل ولادة السيد المسيح بـ ١٢٠٠ عام. وأقامت بي رمسيس Pi - Ramses احتفالاً باذخاً لسيد البلدين الجديد: الوادي الأعلى، أو الجنوب، مهد الحضارة القديمة، والدلتا المنبسطة كتويجات أوراق بردي ضخمة على ضفاف البحر الأبيض المتوسط، هذا البحر ذي الشواطىء الغامضة، هذا الأخضر الكبير ذي المياه المضطربة الهائجة. هكذا كان النساخ المصريون، القليلو الميل للأفق البحري المفتوح على كل العوالم البربرية والحربية في الشمال يسمون البحر الأبيض المتوسط: الأخضر الكبير.

في السنة الثانية من حكم ستينخت، أغرقت الآلهة بلاد الدلتا الضاحكة في الحزن؛ فالخدم المحنية ظهورهم تحت وطأة الأثقال التي يحملونها على طول أرصفة الموانىء، والحراس القابعون عند أسوار القلاع، والفلاحون الذين قدموا حاملين فاكهتهم إلى كهنة المعابد سمعوا جميعاً الخبر العجيب والصاعق: سِت Seth كبير آلهة هذه الأرض الواقعة شرقي الدلتا سحب أنفاسه من صدر محميه. فسيتنخت، الذي يمثل اسمه تمجيداً للأب الإلهي، لم يعد على قيد الحياة.

وانتشر الخبر حتى وصل إلى أبعد المنازل، بكى البعض، وتجهم وجه الآخرين، فقد شعروا فجأة بأنهم ذرات غبار في أرض هجرتها الآلهة؛ فها هي مصر من جديد تسير على غير هدى بعد سنوات الحرب والقلق.

لم يكن أحد في هذه الأزمنة البعيدة ليصدق أن حياة الملك كمجرى النهر تتحكم بهما أهواء الزمان والطبيعة، فهما مصدر الحياة في واحة النيل هذه، المختبئة في قلب الصحراء القاحلة.

وتوقفت الحياة في البلاط؛ وحدها جمهرة الخدم الذاهبين إلىالمخازن تحدث الضوضاء، أما النساخ، فقد كانوا يتبادلون التعليقات بصوت منخفض. كم ارتاد هؤلاء العلماء دور الحياة، وكم تغذت عقولهم بمحتوياتها! فهذه الدور التي أُلحقت بالمعابد كانت تحتفظ بالكثير من البرديات القديمة المليئة بالرموز الهيروغليفية، والتي تروي بالتفصيل قصص الفراعنة. هل سيستطيع هؤلاء النساخ حل لغز هذه الحياة التي بترتها يد الآلهة؟ كثيرون هم الحكام الذين ماتوا قبل الأوان، فهل يجب البحث في هذه الأقدار المأساوية لفهم سر الغضب الإلهي؟ ربما.

وجاءت مجموعة من كهنة آمون، تجولت دون هدف ولعنت سِت Seth سراً. فهذا الإله الذي قتل أخاه أوزيرس، والذي كان مبجلاً في الدلتا، لم يحظ يوماً بمحبة كهنة الجنوب؟.

في الصالات المظللة بأوراق الأشجار، يلتقي المصريون الذين يرتدون التنانير بالسوريين المدثرين بأثوابهم الضيقة وجدائل شعورهم السوداء تتهدل على أكتافهم. كانت الإلاهة السورية عشتروت تتمتع وكهنتها بحقوق في الأطراف الشرقية من المدينة، وكان ذلك دليلاً على الانفتاح على العالم الخارجي، فهكذا يستطيع العالم القديم أن يستعد لتحية ابن الآلهة المتوفى، الذي انتُزع من أرضه بعد سنتين من الحكم فقط. لكن الأعيان في صالة البلاط هذه كانوا يفكرون بالرجل الجالس أمامهم على عرش عظيم، بعيداً عن الضجيج؛ كانوا ينظرون إلى ابن سيتخنت، وريث العرش البالغ من العمر ثلاثين عاماً، الذي يكتم آلامه بصعوبة بالغة.

لم يكن كهنة آمون ليجرؤوا في تلك اللحظة على الاقتراب من حاكم المستقبل الغارق في أحلامه. لا تزال ملامح وجهه الدقيقة تحتفظ بالشباب رغم بعض التجاعيد التي حفرتها عليه تجارب عاشها إلى جانب أبيه. ربما كان رمسيس يفكر بسنين طفولته البعيدة، أو برحلات الصيد في مستنقعات البردي مع رفاقه، يلهو تحت أنظار سيتنخت العطوفة. كان والده آنذاك قائداً عسكرياً في جيوش الإمبراطورية، ولم يكن هناك ما يعده للاستيلاء على عرش مصر في عهد قريب. وتعود ذاكرة رمسيس إلى الوراء، إلى زمن كان يقاتل فيه إلى جانب أبيه كأحد ضباطه الأكثر إخلاصاً. لقد واجه ستينخت عداءات كثيرة عندما قرر التمرد على المكر الذي استقر منذ سنوات على عرش الفراعنة، فقام بطرد الأعيان والأمراء غير الشرعيين وكل أولئك الذين استفادوا من الوصاية الملكية لجمع الثروات دون خجل... ولا يزال رمسيس يفكر بتمرد أبيه، فهو لم يستطع أبداً إيجاد أسباب أخرى لطموح أبيه المفاجىء، فمنذ عشرة سنين وعرش فرعون ممتلىء بالحشرات البشرية الطامحة للاستيلاء عليه، وكان لسيتنخت الشجاعة الكافية للمطالبة به بدوره.

ويقطب الرجل جبينه، وتتفوه شفتاه بكلمات لا يفهمها أحد. كان كل من في البلاط ــ قبل نائبة الدهر هذه ــ يجد سحنة وريث العرش حفية، وكأنها تعبر عن ثقتها برجال لم تطحنهم بعد تجارب الحروب الأهلية الدائمة الاشتعال حول العرش. كان الأمير آنذاك يملك الوقت الكافي لإتمام تعليمه كإله حي لا يمكن لمشاعر البشر أن تدركه ولا لضعفهم أن يصل إليه. في تلك الأيام كان رمسيس رجلاً بالغاً، ولكن السيادة في تلك الأزمنة القديمة كانت ملك للأب ــ الحاكم المطلق على أرضه سواء أكان فلاحاً بسيطاً أو فرعوناً، ولا ينتزع منه احد تلك السيادة طالما فيه قلب ينبض بالحياة. ولكن قلب سيتنخت توقف؛ فقد رأت الآلهة أخيراً أن رمسيس جدير بالجلوس على عرش مصر المزدوج. وبدأ النساخ ينهلون من أسرار المعابد والتراث ليستكشفوا أسس تربيته وثقافته. لقد منحه القتال

إلى جانب أبيه خبرة عظيمة، ولكن الرجل يتغير ببطء، وسيستغرق هذا التغيير زمناً طويلاً قبل أن يتم، فلندع الحياة وما تحمله من لحظات عصيبة تسرّع في هذا التحول.

في هذه القاعة الصامتة، كانت جموع أصحاب المقامات تحاول سبر أعماق السيد الجديد الواهن القوى. واقترب الكهنة والنساخ ببطء من الرجل الذي أصبح ملكاً لشعبه، فقريباً يجب أن يختفي حزنه وراء قناع الفرعون المتمنع عن الألم، فليس هناك أخطر من عرش خاوٍ، وفرعون هو كفيل البشر لدى الآلهة. كان سيتنخت يعلم ذلك جيداً ولذلك قام بتحديد وريث العرش أمام أعين الجميع قبل أن يدركه الموت.

هل سيكون رمسيس جديراً بمتابعة أعمال سيتنخت الذي استخدم السياط، وللمرة الأولى منذ جيلين، مع أصحاب المقامات المتمردين؟ حسب ظاهر الأشياء، يُروى عن الأمير أنه الطيبة نفسها متجسدة بتقاطيع مليئة ووجه عريض، ولكن تعابير وجهه الحازمة ونظراته الثابتة تجعل المرء يستشف لديه ميولاً أخرى. ورمسيس يعرف ذلك جيداً في أعماقه، فهو عند المحك لن يكون مجرداً من سلاحه ولن تضعفه المحن. لقد أصبح عمره الآن خمسةً وثلاثين عاماً، فهو ولد بعد موت الفرعون العظيم رمسيس الثاني بفترة قصيرة جداً، وشهد حكم ست ملوك على التوالي على عرش مصر، ولقد بلغ رمسيس سن الخلافة منذ زمن بعيد، ولكن الأقدار لم تشأ له التربع على العرش إلا في سن متأخرة. علمه سيتنخت الطموح، ورفعه إلى أعلى رتب الواجب المقدسة، وهو لن ينسى ما علمه إياه أباه أبد الدهر.

تقدم أصحاب المقامات من وريث العرش، ولكن ذلك لن يخرجه من تحفظه، فهو يريد التأمل لبضعة ساعات أخرى قبل إقامة شعائر الخلافة. إنه الآن لا يزال الأمير رمسيس، صاحب الاسم العظيم الذي لم يحمله أحد منذ الحكم الأسطوري لرمسيس الثاني في القرن الماضي؛ وسيكون هو رمسيس الثالث، فليمنحه سِت Seth ولتمنحه الآلهة الأخرى الحياة الطويلة.

لم يتسن لسيتنخت الوقت الكافي للإعجاب بعرشه المزدوج، ولا يزال رمسيس يسمع صوته وهو يسدي إليه النصح في كل مناسبة ويهتم بشؤون الإمبراطورية دون انقطاع. كان سيتنخت شديد الحزم، ولم يكن يتخلى عن بعض قسوته حتى أثناء القيام برحلات صيد الثيران الوحشية في مستنقعات الدلتا. وتعود ذاكرة الأمير عدة سنوات إلى الوراء، إلى متاهات أدغال البردي الذي يبلغ من الطول عدة أمتار، ويرى سيتنخت إلى جانبه، والحربة في يده، يوجهها إلى صدر ثور ظهر لتوه من إحدى جزر المستنقعات الصغيرة، وهو على ظهر قاربه الملكي. كم من مرة استقبلتهما الدلتا بعيداً عن الناس والمدن

المزدحمة، وبعيداً عن المنافسات الطاحنة التي تدور بين أهلها! هناك، كانوا يلتقون بالأرض المعطاء، أرض لم تطأها قدم إنسان، لا يحيط بهم فيها سوى الماء النقي والسماء الزرقاء. كان يخيل إليهم آنذاك أنهم عادوا إلى فجر الزمان، إلى بدء الخليقة عندما شكّل الإله أتون Atoum هذه الأرض بيديه، بعيداً عن أمواج النيل الشديدة الزرقة.

وتتوالى الذكريات بعيدة ومبهمة، ويظهر من خلالها سيتنخت الشاب راكباً عربة الحرب وبجانبه رماة السهام. ثم يمر بجانب الديار ويحيّي زوجته المخلصة تيي وهي تحتضن رمسيس الذي كان طفلاً آنذاك وتغدق عليه الحنان. كانت الحرب تلازمه حتى في صباه، ولكنه كان عاجزاً حينها عن فهم تلك المعارك المشتعلة أبداً، وذاك السخط الذي يجعل العائلات المسعورة في سعيها نحو العرش تحرك جيوشها لتمزق بعضها البعض. شقية هي أرض مصر. كم تعرضت للأطماع طوال العقدين الماضيين! أطماع الوزراء، أطماع كبار الكهنة والنساخ، بل أطماع الأعيان الأجانب أيضاً.

لقد فتحت غزوات الفراعنة في القرون الأخيرة باب البلاط الملكي أمام هؤلاء الأجانب. في البداية كانوا سفراءً لبلادهم، ثم أصبحوا مستشارين بارعين لدى الفراعنة وأخذوا يؤسسون سلالات قوية من الأعيان تحيط بأصحاب العرش.

في ظل سنوات البؤس هذه ترعرع رمسيس، وكانت خادمات أمه يذكرن دائماً اسم رمسيس الثاني أمامه ويحدثنه عن حكمه الطويل جداً، الذي استمر خمسين عاماً شهد خلالها خمسين فيضاناً صيفياً. وتبتسم الأم تيي وتطرد الخادمات بلطف بينما رمسيس يراقبها باهتمام لا يخلو من المفاجأة. كان يعلم أن جنون الحرب قد غزا بلاده واستولى على عقول الرجال فيها.

وتتابع الذكريات وتحط رحالها في حفل اعتلاء سيتنخت لعرش مصر.. كان الأمير حينها يقف إلى جانب زملائه من قادة الجيش، ينظر إلى ابيه وهو يكتسي البهاء ويتباهى بالصدرة الملكية المذهبة وبالتاج والصولجان. في تلك اللحظة، شعر رمسيس أن نظرات الحاكم المحارب اختارته من بين جمهرة أعيان البلاط، وقرأ في تلك النظرات الفخر والسعادة لإتمام شعائر الاحتفال في وسط أجواء جميلة يهتف له فيها شعبه الذي شعر بأن أرض مصر قد تخلصت أخيراً من الذل الذي يثقل كاهلها.

ويترك رمسيس ذكرياته السعيدة متحسراً عليها لينظر إلى أحد النساخ الذي بدأ بإلقاء خطاب طويل على أسماع الفرعون الجديد مذكراً بوصاية الآلهة آمون ورع Re وبتاح Ptah، وحماية الآلهة السورية بعل وعشتروت.

وبدأ رمسيس بالاستماع إليه. كانت الثقة تقطر من محياه، فهو معتاد على إطراء البلاط له، وقريباً ستتوالى عليه المدائح وسيقوم الجميع بتمجيد شجاعته وإقدامه وسيشبهونه بسيف آمون. كم كان يحبذ في هذه اللحظة رؤية نظرات الثقة في أعين أقاربه، فهي حتماً ستشعره بالطمأنينة أكثر من هذا الثناء كله، ولا سيما في هذه المناسبة الأليمة، في موت سيتنخت الذي يعتبر أقسى حكم تصدره الآلهة. كم تألم رمسيس لفقدان هذا الوالد الغالي الذي كان كأخ كبير له، ويتمتع بخبرة عظيمة ويقوده في هذه الحياة كما يقود شعبه.

وتستمر صلوات الكهنة والأعيان وكأنها تبحث عن الأمان وتطلبه لمستقبلها. أما رمسيس، فكان جالساً يفكر ببلاده وبالأخص بأراضي الدلتا الواسعة. لشد ما تسعده تلك الحصون المخيفة التي شكلها النيل المعطاء حول البلاد. فعلى طول الأخضر الكبير كانت الضفاف ذات الألسنة الرملية، القادرة على إغراق أي سفينة، مسورة ببحيرات ومستنقعات لا يمكن سبرها، هذا إن تم للمرء اجتياز كثبان الشواطىء. لم يكن هناك إلا بضعة مصبات لأذرع النيل تسمح بالولوج إلى داخل البلاد، وهي نعمة من الإله هابي Happy . فمنذ موت رمسيس الثاني هبت عاصفة بشرية على الأخضر الكبير، حيث تدفقت شعوب كاملة من الشمال، تبحث عن أرض جديدة بعد أن طردتها أقوام أخرى من بلادها. لم يكن بوسع هذه الشعوب المهزومة فعل شيء إزاء الغزاة، ففضلت الهرب على المقاومة غير المجدية، فالعبودية ستكون مصيرها المحتوم، أو ربما المذابح؛ فما فائدة البقاء في أرض مزدرعاتها قليلة وعدد سكانها يفيض عن حاجتها بكثير؟ لم يكن بإمكان هؤلاء القادمون من كل أصقاع شمال البحر الأبيض المتوسط إلا حمل أملاكهم على ظهر السفن والهروب بها بعيداً. لكن هذه الموجات البشرية كانت تتحطم عند الشواطىء الجنوبية للأخضر الكبير، فهنا كانت تنتهي رحلات هؤلاء الزوار بالغرق.

هل هي لعنة التيارات البحرية وهواء الشمال البارد؟ يشك نساخ بي ـ رمسيس Pi - Ramses في الأمر... فسمعة وادي النيل قد اجتازت البحار منذ زمن طويل ووصل صداها إلى بلاد الأناضول وإلى تلك الجزر العديدة التي اتخذت فيما بعد اسم بحر إيجة. في تلك الأزمنة الغامضة كانت ثروات الوادي المعزول في غلافه الصحراوي تثير شهوات كل أولئك المتعطشين للعالم النهري.

كان رمسيس يعلم بوجود هذه الأقوام اليائسة على تخوم الدلتا وفي ليبيا ـ على الأخص ـ حيث تعرضت لنهب القبائل الرحّل ثم تحالفت معها لتنقضّ بثقة ونجاح على حقول القمح في الوادي. وشهدت هذا التدفق أيضاً السواحل الفينيقية والبلاد الكنعانية

التي اكتظت بالعصابات المسلحة. كل هؤلاء البرابرة سيسمعون قريباً بخبر موت سيتنخت وسيحتفلون به دون شك قبل أن يمضوا في الطريق نحو بلاده ليقتاتوا على أنقاضها. كان لاستعادة هيبة الفرعون أثراً في تأخير الغزوات، ولكن ما الذي تخبّئه السنين القادمة؟

ارتعد رمسيس لهذه الفكرة. فسجد له الكهنة معتقدين أنهم تبينوا إحدى حركات إله المستقبل الحي. لا تزال صورة جسد سيتنخت الذي فارق الحياة تحاصر الابن، ورثاء الأعيان للميت وذكرهم لمآثره المجيدة يعذبه. ولكنه قريباً سيستمع لأناشيد من نوع آخر وستفقد حركاته طابعها الإنساني، وعليه الآن أن يهدأ نفسه المعذبة ويستعد لإكمال العمل الذي بدأه أباه. كان الرجل يشعر في هذا الصباح الحزين بأنه فقد أعز رفيق لديه، ومع ذلك أحس بالثقة العظيمة التي منحته إياها الآلهة. كان سيتنخت حاكماً قاسياً، ولكنه كان واثقاً من مقدرة ابنه، فأعده لمهام الحكم وخصه بالعرش. كان رمسيس في الواقع فرعوناً يقبع في الظل أخرجته التعاسة فجأة إلى النور؛ فقد أجلسه والده إلى جانبه على العرش منذ زمن طويل تماماً كما جرت العادة عند كبار العائلات الحاكمة في تلك الأزمان. ولا تزال السلالة الثامنة عشر ـ أعظم سلالة في تاريخ الحضارة المصرية، التي حكمت من القرن السادس عشر وحتى القرن الرابع عشر قبل الميلاد ـ لا تزال مثلاً يحتذى، ولا يزال النساخ يشيدون بذكرها وقصائد الأعيان الملحمية تتغنى بها. في تلك الأزمان المجيدة، لم يكن موضوع الخلافة يثير خوف أحد، حتى ولو تفاوتت فترات حكم الفراعنة في طول مدتها. لقد أعاد قرار سيتنخت إلى الأذهان ذكرى أشهر العائلات الملكية وأكثرها قوة في تلك الحقبة التي أضحت قديمة جداً حتى بالنسبة لعهد رمسيس، واشتهرت فيها عائلات أمينوفيس Amenophis وتوت موزيس Thoutmosis وغيرها من أسر الفراعنة المجيدة التي كان لها ذرية عظيمة توالت على حكم مصر لقرون عدة. لقد ملأ الأمل بولادة سلالة يمتد حكمها زمناً طويلاً جميع القلوب بالفرح والبشرى.

وها هو ذا كابوس الأزمنة الصعبة يعود بعد سنتين من حكم سيتنخت ليهدد الوادي من جديد. ففرعون لم يعد حياً ليحفظ التوازن الهش بين متطلبات الآلهة وجنون البشر. وسيكون على الأمير الوريث من الآن فصاعداً الاعتماد على حدسه، وهو يأمل أن ينسى أقاربه مصالحهم الخاصة ليساعدوه في وسط الصعاب، فلن يتسنى لوادي النيل الكبير، الذي تبلغ مساحته مئات الفراسخ، الازدهار من دون إدارة أمينة تشمل الدلتا ونوبيا. لم تستطع سنوات حكم سيتنخت القصيرة، التي لم تتجاوز العامين، تقويم الأنقاض، فممفيس، عاصمة الفراعنة الأوائل التي بُنيت عند منبع الدلتا فقدت الكثير من قيمتها منذ بناء أهراماتها الكبرى قبل ألفي عام، وطيبة التائهة في أعماق الوادي تحاصرها التلال

الصحراوية وتبعد مسير ساعة عن النيل، أما الدلتا، فقد كانت منذ الأزل تستقبل العواصف قبل باقي البلاد. كانت هذه مشيئة الآلهة، فالدلتا هي نافذة مصر المطلة على العالم، وكانت أراضيها آخر أراضي تُستصلح، كما أنها مليئة بالمستنقعات التي تشهد على تحفظ رجال الوادي تجاه رياح البحار. واليوم، يوافق رمسيس الثالث رجاله في الرأي بعد أن استلم مهامه الجديدة بكل فخر.

* * *

انقضى شهران قمريان حسب تقويم النساخ القديم، ولم يعد أحد يجهل المأساة التي حصلت في عاصمة الدلتا. وتستمر الحياة اليومية الصاخبة في كل قرية من قرى النيل؛ ولكن مصر لم تنس الحاكم المتوفى، فرغم ثقتها بابنه، تخشى البلاد رؤية القارب الطويل يعبر محملاً بالتابوت في طريقه نحو المقبرة الكبيرة في طيبة. لقد تم إعداد جسده الميت للحياة الأبدية ببطء وعناية. ولكن الكهنة يؤكدون أن روح سيتنخت قد أخذت طريق أراضي الغرب الصحراوية، طريق يالو Ialou ، مملكته الأخيرة التي سيعيش فيها إلى الأبد مع عشرات الآلهة، آلهة الأرض المقدسة...

في ردهات المدينة الملكية البعيدة، تجمع الكهنة والعلماء حول جثة الميت ليؤمنوا لها بأيديهم الخبيرة الحياة الأبدية في ظلمات القبر. فإذا كان سيتنخت قد مات، فإن مومياءه الجامدة لا تزال حية، تغلفها الروائح العطرية الواخزة، وتشهد على العائلات المحنطة التي احتفظت بسر صنعتها بكل غيرة من جيل إلى جيل.

لا أحد يستطيع الاقتراب من هذا الجسد الشبيه بالرّق والمجفف بملح النطرون، الذي أخذت أحشائه ومزجت بمراهم عجيبة وغامضة، لتوضع فيما بعد بأوان فخارية خصصت للقبور... ولكن من يريد أن يمنع سيد الأرض الجديد، الحاكم الساهر على استمرار الحياة في أقواس الخليقة التسع، من تحية ملك الأمس، أمير مملكة أوزيريس؟.

اعتاد رمسيس على عدم إظهار أي من انفعالاته، وتعلم إخفائها في أعمق أعماقه، فلم يعد يرمش له جفن عند رؤية الجسد كما كان الأمر عليه في المرات الأولى. ووجوده الصامت لا يزعج أشباح مسرح الأخيلة التي تتحرك على أضواء الشموع الهزيلة. قريباً سيصبح الميت شرنقة ذات أشكال نقية محمية من التفسخ.

ويطارد شبح آخر ذهن فرعون المستقبل الذي قَدِمَ لوحده إلى هذا الكهف الغامض، يرافقه صوت أمه تيي إلى أعماق هذه المتاهة، على حدود السفر إلى بلاد الموت. فدور أمه في حياته لم يكن يقل أهمية عن دور أبيه، فبحنانها وأقوالها الحكيمة ووقارها كانت تؤكد

وجودها في كل لحظة في حياة الشاب. كان دائماً يشعر بها إلى جانبه، فهي روح أنثى ترافق خطواته وتعطف عليه رغم أخطائه.

لم تخرج السيدة النبيلة تيي من محيط سيتنخت يوماً، وكم وقفت إلى جانبه في الأيام الصعبة، لا بد أنه قد شعر بها تماماً كابنه رمسيس. لقد وطدت الملكة مكانتها لدى عائلات القصر النبيلة بوقارها وإيمانها بآلهة الوادي، وأصبحت رمزاً للأمومة في أعين الكهنة والشعب خلال سنين حكم زوجها؛ فهي الزوجة الأولى، الملكة التي تنتمي بدمها المقدس إلى الفراعنة ـ الآلهة؛ والكل يعلم أن نسل الملكات الذي ينحدر من الفراعنة كان عرضة في كثير من الأحيان إلى ويلات الزمان.

كرست تيي المخلصة والهادئة نفسها للإلاهة إيزيس، وهي اليوم قريبة بذهنها من روح زوجها، كما إيزيس المائلة على جسد أوزيريس. فبالإضافة إلى دمها الملكي، كانت حميتها للعبادات القديمة تطمئن كل أنصار التراث، لبعد تلك العبادات عن التأثيرات الشرقية التي أوحت إلى عشائر سكان الدلتا بمعتقدات جديدة. كان أنصار التراث هؤلاء يرون في حكم زوجها العودة إلى مصر العظيمة، مصر الوادي القديم، المعزول، المتحد مع الآلهة إلى الأبد، بعيداً عن مشاحنات العوالم الهمجية المحيطة به.

غير أن اهتمامات ملكة النيل لا تنحصر في إطار الألم الذي تعاني منه زوجة الفقيد، ولا في إطار الأم العجوز التي تشارك ابنها الهموم؛ فالكلمات التي تهمس بها في أذن ابنها تذكره بحكم سيتنخت، وهي تريد أن تذكره به. ورمسيس يعرف الكثير من الأشياء، ولكن الشائعات تسري بكثرة في هذا البلاط الذي عانى طويلاً من المؤامرات، وتغذي هذه الشائعات السموم والخناجر التي استخدمت لقتل الملوك. وتعود ذاكرة رمسيس إلى حديث تيي حول المأساة التي انتهت أمام عينيه برحيل أبيه إلى العالم الآخر. تعود الذكرى وكأنها تريد أن تحذره وتقيه من الماضي الملعون، ولم يكن هناك من هو أقدر من تيي على رواية أسطورة العائلة الملكية، أسطورة سيتنخت، الحاكم القديم الشجاع، وابنه رمسيس سندها الحازم. لكن النجاة لم تُكتب لمرتكبي الجريمة، فكل من ساهم في هذه المأساة خضع لحكم إله بلاد الموت، الإله ذو رأس ابن آوى. قريباً سيخرج رمسيس الثالث من الظل، ويستعد لقيادة الوادي وحوله زوجته وأبناءه الأمراء؛ ولكنه الآن يستمع إلى صلوات حياة انقضت...

وتسرب اسم ملعون، اسم عدوة نذرها رمسيس للتيهان الأبدي في الموت... تاوزرت Taousort . كانت عائلة رمسيس تنتمي إلى نسل رمسيس الثاني الذي رُزق

بذرية هائلة، يزيد عدد الذكور فيها عن المائة. فهي إذاً عائلة شرعية، لا كالملكة المرتدة التي كان اسمها لوحده كافياً للإيحاء بالسوء في نظر أنصار الشرعية الفرعونية.

كان رمسيس في شبابه يراها دائماً في أنحاء البلاط، وهو يذكرها جيداً عندما كانت الزوجة الشرعية المكرمة لحفيد رمسيس الثاني سيتي Sethi الثاني، الذي اعتلى هو أيضاً عرش فرعون. عرفت تاوزرت Taousert كيف تصمت حتى موت هذا الحاكم الذي كان نسخة باهتة عن الحكام السابقين، والذي سلبه أحد الغاصبين العرش لعدة سنوات، وعرفت أيضاً كيف تستفيد من المصير العجيب الذي دعاها القدر ــ أو ربما جمال مساحيقها ــ إلى عيشه. فالدور الذي يمكن لملكة مصرية أن تلعبه لا يستهان به، وذكرى نفرتيتي الجميلة التي ولدت قبل قرن من ذلك الزمان لهي خير مثال على ذلك، فقد عبرت ذكراها الأجيال دون أن تتأثر بمصير زوجها المنشق أخنتون. وهناك أخريات، أقل شهرة ربما، ولكنهن استطعن أن يصبحن كاهنات كبيرات يطيعهن الجميع، وسيدات للحريم الملكي، لهن من الوسائل ما هو أكثر تأثيراً أحياناً من المعارك الضخمة. ألم يكن زواج الفراعنة بأميرات الأفق البعيد، أميرات الممالك الحثية وممالك بلاد الرافدين الغنية هو السلاح الرئيسي للدبلوماسية المصرية منذ السلالة الثامنة عشر؟

لقد فتح موت سيتي الثاني Sethi الأبواب واسعة أمام غدر الحاكمة، ولكن سيتنخت سارع إلى الوقوف في وجهها. فتاوزرت Taousert ترتكب عملاً آثماً بتلاعبها بورثة العرش، وهي تريد إرواء عطشها للسلطة وإن كلفها ذلك تعريض نفسها لانتقام الآلهة.

في فجر هذا القرن الثاني عشر قبل الميلاد، كان رمسيس وأمه تيي يعلمان بوجود فراعنة عظام، رغم أن حكم الفرعونة الوحيدة في التاريخ ــ حتشبسوت ــ قد طغى تماماً، ولمدة ثلاثة قرون، على ذكرى حكومات الفراعنة الذكور. كانت هذه الملكة قد أبعدت توت موزيس الثالث Thoutmosis عن العرش خلال فترة شبابه مستفيدة من صغر سنه عندما ترمّلت.

وكذلك استفادت تاوزرت Taousert من ترملها؛ ولكن توت موزيس (Thoutmosis) الذي شعر بالإهانة قام بمحوِ كل أثر حضاري يمثل قريبته القوية، وأمر بتحطيم كل تماثيلها، فاختفت ذكراها حتى في معبدها الجنائزي في دير البحري في طيبة. ولكن هل من السهل التصديق بأن النساخ من علماء بلاط تاوزرت Taousert ، الذين يملكون البرديات المغرقة في القدم، والتي يظهر فيها اسم مغتصبة العرش، قد أضاعوا كل أثر

لهذا الحدث الفريد؟ هل كان كهنة طيبة المعتادون على الأنوار الخفية في قاعات الصلاة في المعابد يتوقفون أمام صورة هذا الفرعون الغريب المتنكر بزي رجل؟ لقد استطاعت تاوزرت (Taousert)، زوجة الفرعون، أن تجعلهم يكسروا الصمت المفروض على حكم حتشبسوت الآثم.. فعلى خطى هذه الحاكمة المجيدة سارت تاوزرت Taousert .

لم يكن دم تيي أنقى من دم تاوزرت Taousert ، فكلتاهما ليست ابنة فرعون، ولكن حتشبسوت كانت كذلك؛ بيد أن دمها الإلهي جعل عملها الآثم أكثر بشاعة في نظر تيي. ففي ظل كابوس صراعات البلاط التي استمرت ربع قرن، قليلون هم أصحاب البلاط الذين يستطيعون التباهي والتفاخر بانحدارهم المباشر من فرعون. وعلى العكس من ذلك، كان عدد الذين يحملون دماء رمسيس الثاني في عروقهم كبيراً جداً، فذرية هذا الأخير كانت كثيرة كحبات رمال الصحراء، وكانت تحتل المناصب الرئيسية في الجيش والمعابد.

وضعت تاوزرت Taousert ، ملكة مصر الأرملة، الجزء الرئيسي من أمور الحكم في أيدي رجال سوريين، فهي كانت واثقة من أنها ستجد عند هؤلاء الحلفاء تفهماً ستفتقده في البلاط المصري الغاضب من استيلائها على العرش. ومنذ تلك اللحظة أصبح حكمها مغرقاً في الدنس، ولا سيما عندما أشركت أحد أطفال الحريم الملكي - رمسيس سبتا - معها في العرش، بزواجها منه وهي بعمر أمه على الأقل.

كان صوت تيي يردد هذه القصص التي ذهبت أدراج الرياح، وخيال رمسيس يسرح في الزمن البعيد إلى الوراء، منشغلاً عن الرجال ذوي الأثواب الطويلة، المنهمكين بنشاط في وضع صفيحة ذهبية على جرح بطن سيتنخت لتغطيته.

وعاد رمسيس إلى الواقع للحظات، وتابعت نظراته حركات المحنطين المتحلقين، حول جثة أبيه التي تحولت إلى مومياء. وعادت الأصوات تردد الخطابات الطويلة، فنظر رمسيس ثانية إلى وجه أمه، إلى وجنتيها المرتفعتين وشعرها الشديد السواد كلون الكحل في عينيها؛ لقد كانت حقاً ابنة النيل.

كانت تاوزرت Taousert خلال سنوات عديدة تظهر زوجها الفرعون الشاب في صورة الحاكم، ولكن الحقيقة لم تكن خافية على أحد في البلاط، فالسيد الفعلي هو الملكة الملعونة تاوزرت Taousert التي تعيش في ظل العرش. وكان رئيس القضاء باي Bay قد شكل مع بعض السوريين حزباً واحداً يجمعه الوفاء لمطامعه ومصالحه الخاصة، ففُتحت الأبواب أمام الشرور. ولكن رمسيس يعلم، كسائر أبناء مصر الأصليين، أن جذور الشر

تمتد إلى أبعد من ذلك. فمنذ السلالة الثامنة عشر، سلالة كبار الفراعنة، بدأ ملوك الوادي المعزول في الصحراء بالقيام بغزوات تليق بإمبراطورية كبيرة، تمتد من ليبيا الصحراوية إلى الفرات السوري، ومن نوبيا على تخوم إفريقيا السوداء وحتى البحر الأبيض المتوسط المليئة سواحله بشعوب بربرية. كانت تلك الحقبة هي الأكثر بذخاً في تاريخ مصر، ولكن اختلاط فراعنة المجد في الإمبراطورية الجديدة بالعالم ودفعهم لعربات الحرب إلى تلك الأرجاء ينم عن عدم الحذر؛ فمن يضمن حماية الآلهة لحكام المستقبل؟ كما أن عدد الضعفاء لم يكن قليلاً، وأولهم توت عنخ آمون. وبدأ مجرى الزمن يسير في الاتجاه المعاكس: فمن منارة العالم القديم، تحولت مصر إلى فريسة للصيادين الجائعين، إذا لم نقل ضحيتهم. وذكرى الهكسوس المفزعة حرية بإلهام فراعنة الإمبراطورية الجديدة، فأولئك الرحل الذين بزغوا فجأة من الصحراء الآسيوية في القرن الثامن عشر قبل الميلاد غزوا مصر التعيسة وسيطروا عليها لسنوات عديدة.

ولكن الفراعنة كانوا في غالب الأحيان قليلي الحذر، والبرديات القديمة في دور الحياة، حيث كانت تودع حكم الأزمان القديمة، لم تترك أعشاشها المغبرة لتلقنهم العلوم الأكيدة. فلا شك إذاً بأنه ما أن تُفتح أبواب الوادي أو طريق الدلتا حتى تتدفق أمواج الشعوب على قلعة الصحراء هذه وتهاجمها دون توقف.

كم مرة سمع رمسيس نساخ دور الحياة يتحسرون على الطمأنينة التي كانت تحياها حضارة النيل زمن الأهرامات، والتي فقدتها إبان حكم الانفتاح! واليوم، وفي هذه اللحظات العصيبة، يأتي صوت أمه ليستحلفه بتصميم بألا ينسى أبداً ما كان. لم يكن رمسيس بحاجة إلى التذكير ليقتنع، فعندما كان شاباً عانى كثيراً، كأصحابه، من الذل الذي أُوقِعَ بالبلاط وبعائلات النيل العريقة.

كان نساخ الأزمنة القديمة يستشعرون ذلك الخطر دون معرفة العالم الواسع. كان واديهم يتمتع بوضع طبيعي رائع لم يكن أي من الشعوب الأخرى ليحلم بمثله، فالانعزال الصحراوي لبلاد النيل في قلب الحضارات القديمة فريد من نوعه؛ ولكن ما أن فتحت أبواب الوادي للتأثيرات الأجنبية حتى بدأ الشقاق يظهر. والجميع يعلم ما يمكن أن يؤول إليه مصير سفينة يتحكم بها طاقم سيء في النيل. وإن كانت الآلهة السورية موضع ترحيب في مجمع الأرباب في بي رمسيس Pi - Ramses ، فإن أبناء آسيا كانوا في طليعة الغزاة، وكانت غزواتهم غزوات حقيقية، وتشهد تيي على ذلك. لقد هجر السلام ضفاف النيل منذ عدة قرون، ولن تعيده معجزة الآن، في فجر حكم ابنها.

كان على تاوزرت Taousert التي وقع اختيارها على العشيرة السورية القوية أن تدفع حياتها ثمناً لذلك. ويرتعد رمسيس لهذه الفكرة، فـ تاوزرت Taousert رغم كل شيء لم تستفد أبداً من الجرم الذي اقترفته. فهي لم تحكم إلا بضعة سنوات لم تكن فيها السيدة على الدوام في بلد أضحى كل شخص فيه منقاداً وراء مطامعه ولا يهمتم بالمصلحة العامة. ولم يؤثر موت الملكة الآثمة على السوريين، بل زادهم قوة، فخزائن قصورهم تفيض بذهب الأرض المصرية المسلوب، وأضحى هؤلاء الغاصبون الملعونون قدوة لكل جياع العالم الذين بدؤوا يتوافدون بكثرة على أبواب الوادي طمعاً في حقوله وجنانه.

ثم نهض سيتنخت في وجههم. كان رمسيس يحب تذكر ملحمة سنتي حكم أبيه، وملحمته هو أيضاً، ولو لم يكن المحنطون منهمكين بالجسد المقدس الذي تلفه الأشرطة لدُهشوا من الهدوء الذي ارتسم فجأة على محيا حاكمهم، فهو لا يزال بحاجة إلى تذكر أبيه الذي هو أساس وجوده، والذي سيعطيه القوة للمضي قدماً إلى الأمام.

لم يكن سيتنخت أحق بالعرش من أي أمير آخر ينتمي إلى السلالة العريقة، وكان السوريون وشركاؤهم يقفون في وجهه ووجه كل أنصار مصر القديمة، الذين جلهم من الضعفاء. وكان لديهم كتائب مقاتلة أفرادها من المصريين والمرتزقة، وكذلك المئات من العربات السريعة التي يقودها رماة سهام بارعون. كانوا يتمنون أن تدور معركة بينهم وبين أولئك المصريين المعتدين بأنفسهم ليعيدوهم إلى بيوتهم خائبين. فمنذ عدة عقود، لم يعد سلوك الشعب المصري يثير لديهم أية مخاوف. ولكن سيتنخت فرض وجوده في المعارك بإقدامه وشجاعته العسكرية، وعرف كيف يعيد تحالفه مع كل أولئك المتذبذبين، الثائرين على سلطة الغرباء وعلى ذكرى تاوزرت Taousert الآثمة التي أغضبت الآلهة.

لم يكن أولئك الحلفاء على درجة كبيرة من الشجاعة، ولكن سيتنخت أثبت موهبة في القيادة ونشاطاً وحيوية كبيرين. ولشجاعة قائد الحرب في تلك الأزمنة البعيدة تأثيراً قوياً كالسحر على رجاله في المعارك، فإقدامه يجر وراءه إقدام الجيش كله، وإذا مات القائد أو اختفى، تختفي الحماية الإلهية وتنسحب أقوى الجيوش خائفة مذعورة. بمعرفة هذه الحقيقة جابه رمسيس الثاني الحثيين في قادش في القرن الماضي، وبنفس الطريقة أثبت سيتنخت لمعاصريه بأنه ينتمي إلى رمسيس الثاني، ليس فقط بانحداره من نسله الذي تولى مهام الجيش، ولكن أيضاً بطريقة تفكيره. هكذا أثبت سيتنخت شرعيته وأعاد عرش الأرضين لمن يستحقه. وتشهد على شجاعته أكوام الأيدي المقطوعة، أيدي أعدائه السوريين والمصريين، وربما غيرهم أيضاً. هل يمكن التصديق بأن هذا الجسد الضامر قد أرعد فرائص آلاف المحاربين؟ وتشنجت قبضتا رمسيس الثالث...

الفصل الثاني

فجر حكم جديد

انتشر الأسطول الصغير المؤلف من قوارب طويلة في النيل. كان أفراد الطاقم على متنه يجدفون بوتيرة منتظمة ضد الزوابع والتيار. ستودع هذه المجموعة الغربية من القوارب الدلتا، وتصعد مجرى النهر لتلحق بمقبرة طيبة الكبرى، على بعد مئات الفراسخ نحو الجنوب.

كانت القوارب تسير في نهر عريض، قوي، يدفع مياهه الشديدة الزرقة والمليئة بالطمي الخصب نحو الأمام. لن يتمكن الجدافون من الاستراحة ولا للحظة واحدة، فعليهم أن ينتظروا حلول المساء ليتوقفوا بعناية الآلهة وحمايتها أمام إحدى المدن.

وهكذا بدأت رحلة مومياء سيتنخت إلى بلاد الموت في الغرب الصحراوي. كان المصريون الذين أَلِفوا واحتهم الجميلة وعالمها المليء بالبشر ينفرون من خواء الصحراء ولا يستهويهم اكتشافها. فمياه النهر كدم البلاد موجودة عند كل منعطف ، ولكنها تختفي ما أن تظهر تلال الصحراء الوحشية المحيطة بالوادي. ففيضان الصيف وطميه الخصب لا يرتفع إلا بضعة أمتار، أي بالكاد ما يكفي لتغطية شريط الأراضي الضئيل الممتد على ضفاف النهر، ولكنه لا يستطيع الوصول إلى قاعدة التلال. هنا، لا أثر لوجود الفلاحين؛ فأبناء الوادي تركوا عناء نحت الرمال والصخور للرياح، وتكفلوا هم بتحويل الوادي المليء بالمستنقعات إلى جنات عدن.

لِمَ الدهشة من خيال رجال الأزمان الغابرة هؤلاء؟ لِمَ الدهشة من اختيار هذا العالم الآخر، المتاخم للأراضي الصحراوية والكآبة والصمت المطبق؟ فهنا، في هذه الأماكن المشؤومة، تحمر إلاهة الشمس رع Re وتموت كل مساء. ولكنها سيدة الحياة التي ستعود في الصباح وتحيي روح الحياة. هنا ستتبعها أرواح الملوك في رحلة لا عودة فيها. والوحدة

في صحراء طيبة أشد قساوة منها في أي مكان آخر. فشواطىء الصحراء الصخرية ترتفع مئات الكيلو مترات عن الوادي الخصب مشكلة حاجزاً قاسياً لا خضار فيه. هنا تُفتح أبواب مملكة الآلهة، وتلحق مومياء سيتنخت بمثيلاتها، رفات عشرات الحكام التي ترقد منذ قرون قرب الأسوار الجامدة، في كهوفها الجوفية التي تشبه أعشاشاً محفورة في قلب العالم الإلهي. ففي وادي الملوك، تملأ مداخل القبور المزينة بعناية كل زوايا الطرق المتعرجة والضيقة التي لا حياة فيها.

وملأت تأوهات النساء الباكيات الهواء حتى كادت تختفي أصوات ضربات المجاديف المنتظمة. واتخذ أبناء البلاط مكانهم على القوارب المحيطة بالسفينة المحملة بالنعش؛ فأبناء العائلات النبيلة وكهنة الآلهة المختلفة والوزراء والنساخ يرافقون سيدهم ويتجمهرون حوله كما لو كانوا في قاعات البلاط في بي رمسيس Pi - Ramses . والفرعون الجديد يعرف الجميع، فهو منذ سنتين فقط لم يكن إلا واحداً منهم. ولكنه الآن لن يستطيع أبداً التنازل عن موقفه المتعالي، فهو يعلم أن الجموع التي تحترمه للقبه وقوته لن تتوانى عن دهسه لو فعل. ألم يصبح لقبه الجديد: الحياة، الصحة والقوة؛ كما كان لقب أسلافه من الملوك؟.

يبدو الموكب وكأنه محملاً بكل الثروات التي يستطيع البلاط إظهارها، أما القارب الملكي فيكاد ينهار من وطئة الأقمشة المصبوغة والتماثيل والريش المنسق حول المومياء الملكية. كانت الحبال التي تربط قارب الميت بقوارب أبناء البلاط تبدو وكأنها ستتفكك، فتتعالى صرخات الربابين وتقطع الصلوات الجنائزية.

وتراكض الفلاحون على ضفاف النهر لرؤية عالم الآلهة الذي تجلى لهم في وضح هذا النهار، ليكون يوماً مختلفاً في عالمهم التقليدي الممل. ففي هذا الوادي الضاحك والروتيني، حيث تراب البيوت الصلصالي يتناغم مع خضار الحقول، يبدو هذا البذخ وكأنه ينتمي للعالم الإلهي. وسيصبح هذا الذهب وهذه الأسلحة المتلألئة حديث سهراتهم إلى الأبد، وسينظر أطفالهم إلى مجرى النهر ليتخيلوا الموكب وهو يتجه نحو الأفق البعيد.

لم يكن رمسيس يبالي بكل هذا المجد الذي أثار إعجاب شعبه، فهو سيد كل شيء، ولا يرى حتى الشريط الأخضر الطويل الممتد في جميع جهات النهر منذ سنين وسنين، وبالكاد يرفع رأسه بين الفينة والأخرى عندما تظهر بعض الأكمة الصخرية في الأفق، فهو يشعر بالكمال، في أوج العمر، حتى وإن كان حكمه قد بدأ لتوه.

هل يأمر رجاله بتسريع حركتهم لكي يتخلص من هذه الجموع التي تنظر إليه بإلحاح

ودون انقطاع، ولا سيما أن الأمواج تعزله عن الآخرين؟ كان على ابن سيتنخت أن يقود الحداد ويتهيأ لتكرير حركات تعود لآلاف السنين، حركات الابن المرافق لوالده حتى عتبة القبر المظلمة. هناك سيردد الكهنة صلواتهم، وسيضحي آخرون بثور جميل. وهو يعلم أن الطريق من ضفاف النيل إلى وادي الملوك ستكون طويلة... ستبلغ المسافة فرسخاً تقريباً، وهناك ستتلاءم كل خطوة ومتطلبات طقوس الاحتفالات الأبدية.

في هذه الساعات الخيالية، شعر رمسيس بجسامة مهمته تجتاح كيانه. فحتى هذه اللحظة كان خطر الغزوات والحروب التحريرية يطغى على تفكيره بحكم المستقبل، الذي يجب أن يتناسب والإيقاع الأبدي لحياة الوادي. وتهديدات العالم الخارجي التي كان يشعر بحدتها أثناء شبابه المقاتل في بي رمسيس Pi - Ramses ، على الحدود الآسيوية للإمبراطورية، توسع المكان الآن للطمأنينة في نفس الحاكم. ويتذكر رمسيس طفولته الصاخبة عندما كان صبياً يلعب بالطوق مع أصدقائه ويتسلى بشد ضفائرهم الطويلة على رؤوسهم الصلعاء. كان النساخ ينادونه حينها إلى دور الحياة لتلقينه أسرار العالم، وكان عليه أن يهتم بالبلدان المجهولة، وبخليقة أتوم Atoum المتمثلة بالأقواس التسع، التي كانت تعني بالنسبة للمصريين في زمن الفراعنة مجموع البلدان المعزولة في وسط المحيط الواسع. ولكن أبناء النيل رغم معرفتهم بأسرار الطبيعة كانوا يحدون رؤيتهم للعالم بالشرق الأوسط والصحراء الواسعة المجهولة، وبالغابات الوحشية في إفريقيا الإستوائية حتى سواحل البحر الأبيض المتوسط الغامضة، وغير الآمنة.

كان على رمسيس الذي تلقى علومه بعناية كسائر أبناء أصحاب المقامات أن يستخدم خنجره كل يوم لحفر ما رواه له معلمه الناسخ العجوز على صفيحة كلسية. غير أنه، كأصحابه، لم يكن يبالي بالكثير من الروائع؛ فلم يكن طفل الدلتا يحلم سوى بأدغال البردي الغنية بالطرائد، وبسباقات الزوارق الخفيفة، وبصيد عصافير المستنقعات. واليوم، يتذكر رمسيس هذا الماضي البعيد وهو يبتسم: فالعالم يفتح له أبوابه وعليه أن يقوده بصولجانه دون أن يقدم تفسيرات لأي من البشر.

في قاربه المتوضع في وسط الأسطول، كان رمسيس يجلس بعظمة على عرشه، وعلى رأسه التاج المزدوج، يحمل السوط والصولجان المقدسين ويتأمل النيل بوجه خال من التعابير. كان الحاكم المعزول عن البقية بحكم البروتوكول يستنشق هواء النيل بتأثر، وكأنه أفلت من حدود جسده الضيقة ليلحق بالروح ـ العصفور، روح البا / Pa المتسللة من جثة أبيه. إنه الشمس الصاعدة إلى السمت ونسمة الريح على حقول القمح، إنه النسر المحلق في السماء ووجدان كل ذرة في الأرض السوداء. كان رمسيس ككل المثقفين المطلعين على

أسرار البرديات يشعر كثيراً بانتمائه إلى الخليقة، إلى هذا العالم الذي يشارك كل كائن فيه، حتى الجماد، بتشكيل جسد واحد كبير. لقد فهم رمسيس ذلك وعرف أن قوة أبيه نبعت من أعماق هذه الأرض لتحمله هو إلى هذا العرش الذي لم يكن له أمل به.

وتعالت صيحات أحد الربابين فجأة لتعلن الاقتراب من أسوار مدينة وتثير انفعال أبناء البلاط؛ فقريباً سيرسو الأسطول، وسيأتي أعيان المدينة، كما تقتضي الأصول، ويحيون الأسياد المؤَلهين ـ الملك الميت والملك الحي ـ بذاك الاحترام وذاك الحس والإحساس بالتراث الذي يتمتع به أهل الجنوب أكثر من سكان الدلتا. وأصدر رمسيس أوامره، فتوقفت المجاديف، وأسرع قباطنة السفن إلى الجسور. كانت أصوات المتأوهات الباكيات تصدح عالياً وكأنها تريد أن تؤكد أن شعب سيتنخت لم ولن ينساه.

ويتابع النيل مجراه نحو الجنوب في خط منحن لا ينتهي. لا يزال رمسيس يراه خلف التلال الوحشية يبتعد رويداً رويداً ثم يختفي. ولكن طيبة أصبحت قريبة، وأصبح اللقاء بين الملك ومدينة الأمراء قاب قوسين أو أدنى. وفرعون يعلم أن هذا اللقاء من تدبير القدر.

كانت مدة التوقف قصيرة، فقد نهض الأسطول مع شمس الصباح وبدأت عمليات تحميل المؤن والماء. والكل يتعجل الآن اكتشاف بوابات معابد الكرنك الضخمة وأسوار عاصمة الجنوب. هنا يزداد ضيق الوادي ويجري النهر بين التلال العالية والقريبة من بعضها البعض، وكأن النيل الهارب من الصحراء قد استُوقف مرة أخيرة قبل أن يتابع مجراه نحو الدلتا والأخضر الكبير.

ها هي طيبة، ها هي المدينة الكبيرة التي تنبثق معابدها من كل مكان، وترتفع أسوارها في الأفق ومن بين الأشجار؛ وها هي ذي جموع الناس محتشدة على ضفاف النهر حتى تكاد تخفيها. كانت بي رمسيس Pi - Ramses وكذلك ممفيس تعج بالأبنية والأسوار والمستودعات، ولكن عدد الآلهة في طيبة يفوق عدد الرجال، فعالم الأموات يقع على أبواب المدينة، وتلال وادي الملوك الصخرية تنتصب في الجهة الثانية من النيل، في الغرب.

اتجه رمسيس إلى مقدمة قاربه ونظر إلى الغرب محاولاً رؤية الحقول المبعثرة في الأفق عند سفوح التلال الصخرية الهائلة. هنا تنتشر حقول أخرى حتى ركام جبل الأموات. كان كل حاكم يريد أن يشيد منزله الأبدي في هذه الأماكن الأسطورية، لينام في ظل حماية الآلهة وعلى أعين الجميع. ويظهر معبد حتشبسوت ملتصقاً بالتلال الصخرية وكأنه

يتحدى بارتفاعه أنظار الحكام الذين خلعوها ولعنوها. لا أحد يستطيع تجاهل هذا المعبد من بين المعابد المتناثرة هنا وهناك، والتي تآكل بعضها بفعل الزمن وانعدام الصيانة. شعر رمسيس وكأنه في قلب مملكته، يأسره النور الساطع وعظمة الإطار؛ وكانت المقبرة الكبيرة قريبة من المدينة وثرواتها، ولكن النهر يشكل حاجزاً بينهما فيجعلها تنفصل عن الحياة البشرية؛ فالنهر هو منظم كل شيء في هذه الحياة الدنيا.

رُبطت القوارب بقلاس على طول خط النيل، وهجرت الجموع الشاطىء عائدة إلى أراضيها، ومشى الموكب ببطء وراء المزلج المحمل بالجثة الملكية، الذي تجره الثيران وهي تعاني من المقرن الذي يخط آثاره في الأرض الرملية. للمرة الأخيرة، سترى مومياء سيتنخت نور الصباح، ففي المساء سوف يُقفل عليها في ظلمة القبر حيث ستلتقي روح الميت بالآلهة.

كان كهنة الآلهة العظيمة متواجدون جميعهم في ذلك المكان، بعضهم يرتدي الأثواب الطويلة، بينما التحف الآخرون جلود الضباع. كانت ثيابهم تنم عن البذخ والثراء وكأنهم من أبناء البلاط. وبدأ رجال الدين بالصلاة، فروح الفرعون الميت يجب أن تنتصر على حكم الاثني وأربعين إلهاً، فلا أحد يعلم هل سيكون أنوبيس رحيماً أم لا، وقد تكون برديات كتاب الموتى التي ترافق جسد هذا المحارب الباسل عوناً له أمام مجلس الآلهة. لا يخشى رمسيس نظرات أنوبيس، فهذا الإله الذي يرتدي قناع ابن آوى سيعرف كيف يقرأ في قلب أبيه ويدافع عنه أمام أوزيريس. لقد عاش الفرعون الكثير من المحن واعتاد على فكرة يوم الحساب هذه، فطيش الشباب هجره منذ زمن بعيد ورأى الكثير من رفاقه يهلكون بحد السيف، مما جعله يشعر أحياناً بأنه على أبواب مملكة الموت.

لا تزال المنحدرات الصخرية بعيدة، فبالكاد يمكن تمييز مدخل وادي الملوك. لقد وصل الموكب في مسيرته أمام معبد رمسيس الثاني، ولكن جثة العجوز لا ترقد هنا، بل مع مثيلاتها في صمت قبور الوادي. ومع ذلك فإن ظله يحوم في كل الأنحاء، فهذه الصروح الهائلة التي لم يستطع أحد غيره أن يشيد مثلها تُبقي ذكراه التي تبهر رمسيس الثالث.

في يوم التقوى هذا، تقوى ابن الفرعون الذي يقوم بأداء تحية الواجب إلى الأب المتوفى، لا يشعر رمسيس الثالث برغبة في التوقف أمام معبد السلف الماجد. ومع ذلك، فإنه يشعر بأنه ابن هذا الفرعون القديم، الذي توفي منذ أربعين سنة بعد أن حكم لمدة نصف قرن. فالدم الرمسيسي يجري في عروق الحاكم الشاب، إنه دم أجيال من قادة الدلتا الذين أداموا عظمة البلاد وصانوها وسط أسوأ الصعوبات. ولكن البنوة في أعين حاكم الأرضين الجديد شيء مختلف تمام الاختلاف، فقد تحول رمسيس الثاني في نظر الملك

الشاب من الأب إلى نموذج البسالة والإقدام واحترام التقاليد، وبرؤيته هذه لا يختلف ابن سيتنخت عن غيره من خلفاء رمسيس الثاني، ملوك العرش المزدوج، ملوك الحكم الفاني والحزين.

من حسن الحظ أن تنصيب رمسيس الثالث تم في ظل طالع سعيد،وأن إعجابه الورع بالحكيم رمسيس الثاني قد يتجسد هذه المرة بأفعاله. كما أن الوضع الجديد هو في مصلحته تماماً، فبلاده حل فيها الأمن - والفضل بذلك يعود إلى أبيه - وليس لديه أي مزاحم ينافسه على العرش ويقسم البلاط بين مناصر ومعاد. والنساخ جميعهم يوافقون بأقوالهم على هذا الأمر، فلم تكن مصر منذ ربع قرن لتأمل مثل هذا الاستقرار، ولم يكن لمومياء سيتنخت التي تستريح في التابوت الخشبي تحت قناع الذهب والأحجار الكريمة سوى حلم واحد، هو إعادة بذخ الأزمان الغابرة.

على إيقاع الأناشيد والأبواق يتقدم المزلج المحمل بجثة الميت نحو القبر. كان الريش والأقمشة المصبوغة يتمايلون مع الهواء، وأبناء البلاط لا يكفون عن التأوه طوال الطريق وأشعة الشمس الملتهبة تحرق رؤوسهم. هنا، فيما وراء الموت - قدر البشر المشترك - يلامس رمسيس الألوهية، فهو ورمسيس الثاني وسيتنخت يمثلون صوراً لوجود واحد ينتمي للمملكة الأبدية، وسوف يحتاج لكل إقدام الأب المفقود وذكاء ومقاومة رمسيس الثاني لكي ينهض بالبلاد من الخراب. فمنذ انتهاء حكم رمسيس الثاني والبلاط يسير رويداً في طريق الانحطاط.

ولكن مجيء الفرعون إلى طيبة، المدينة الآمنة التي لم تتغير منذ عقود، يمثل العودة إلى التقاليد المنسية؛ فقد أهمل الحكام في بي رمسيس Pi - Ramses شيئاً فشيئاً هذا الرجوع إلى قلب مصر القديمة.

هنا يجد ابن الآلهة معنى تاريخ أرض النيل، وهنا تبدو أطماع السوريين وتسرّب الأغراب البطيء إلى أرض الدلتا أكثر تدنيساً للبلاد من أي مكان آخر. ورمسيس يعرف المحن التي سيمر بها، فعليه أن يدافع عن واديه ويسحق كل الأعداء قبل القيام بأي عمل من شأنه توطيد عظمته داخل حدوده. ترى ما الذي كان رمسيس الأكبر سيفعله تجاه هذه الموجة البشرية المتدفقة على أبواب الوادي؟ الحرب دون أدنى شك! ولا بد من متابعة تلك التي بدأها سيتنخت في الجهات الأربع من العالم المعروف، ولا بد من إضرام نار الحروب في الأراضي الصحراوية والآسيوية، ليلد وادي النيل من جديد في مأمن من كل المخاطر.

وهكذا بدأ حكم رمسيس الثالث في العام ١١٩٨ قبل الميلاد. أكثر من مائة فرعون

تولوا الحكم قبله على مدى ألفي عام لم تخلو من المحن، بيد أن التحدي الذي يواجهه رمسيس لم يتعرض إليه إلا القلة ممن سبقه.

أضحى وادي الملوك قريباً جداً، فها هو الآن أمامه يكشف عن طرقه الضيقة. لقد آن الأوان للبشر العاديين أن يتوقفوا، فهنا تبدأ أراضي الموتى. في مكان ما من هذه المنحدرات الصخرية التي تسطع عليها أشعة الشمس بقوة، يوجد نفق طويل يمتد في جوف الأرض المظلمة. بعد قليل، ستضيء مشاعل الحمّالين وجوه الآلهة المرسومة على جدران ذات ألوان براقة، وسيتحرى الكهنة للمرة الأخيرة دقة المشاهد التي تصور حياة الملك المتوفى، وسيتم تكديس الكنوز إلى جانب التابوت؛ فالملك يجب أن يبقى ملكاً في العالم الآخر كما كان في هذه الحياة الدنيا. ورمسيس يعرف كل ذلك، ولا بد أن العناية التي يوليها لهذه الجنازة ستدخل الطمأنينة إلى نفسه، فسيتنخت سيعيش، وسينظر إليه وهو يحكم البلاد من أراضي يالو Ialou .

شعر الملك الجديد بأنه هش كتلك النباتات الهزيلة المتشبثة بالمنحدرات العقيمة، فعلت صلاته فوق صلوات الجميع، علَّ الآلهة تجعل منه رمسيساً ثانياً جديداً؛ ولكن القدر قد يعاكسه فيغرقه مع الفراعنة الضعفاء في بحر النسيان.

* * *

مضت أيام على دفن سيتنخت في قبره في شاطىء الأموات الصخري حيث تغيب الشمس وراء القمم، وبدأ الصيف، وبدأت أيامه الطويلة، وأصبحت البرودة الليلية مجرد ذكرى. لقد غادر فصل بيريت وشهوره الشتوية الأربع طيبة ومصر، وبدأ شومو، وبدأت الحياة تظهر في كل مكان والشمس تدفىء البلاد. كانت الحقول تعد بموسم حصاد غني، فالفلاحون يقضون كل أوقاتهم في هذا الفصل بالاهتمام بالنباتات الصغيرة، وشامو يحمل العيد والفرح لطيبة أكثر من أي مكان آخر، فسنابل القمح تمتد إلى البعيد، إلى أفق المعابد والصحراء. ولكن هناك تحولاً آخر تم في هذا الربيع المشرق، تحولاً يجب تحيته لأنه تحول أمير إلى فرعون، إنه تتويج رمسيس ابن الإمبراطور وتيي في عاصمته الجديدة.

لم يكن المصريون في تلك الأزمان الغابرة يعبدون الإله العجوز مين عن عبث وفي هذه الفترة من السنة بالذات، فسحنته الشديدة السواد كالأرض الطمية وظله الطويل المدثر لا يخيفهم، بل على العكس. كان يُبجّل لأن خصب السنة القادمة يعتمد على الآلهة المنبعثة من الأعماق الإفريقية. سيتوج رمسيس في هذا اليوم المحمود، وستقترن ذكرى هذا النهار الفرح برمز الإله مين، مجدد الحياة في البلاد، إلى الأبد.

واستعدت طيبة للحفل الكبير، فجمع الكهنة ثروات معابد الكرنك والأقصر، وتحولت القصور على ضفاف النيل إلى خلية تحوي مئات الخدم المنهمكون بتحضير الطعام، وشويت الثيران في الشوارع، وعمت الفرحة؛ فالشعب نادراً ما يُدعى لولائم كهذه. وتصاعد دخان البخور في المعابد حتى غطى تماثيل الآلهة ليشركها في العيد بغذاء روحي. هرعت الجموع وهي واثقة من أنها سترقص وتتغذى، ولكن الشيء الذي كان يسحرها بشكل خاص هو الوعد برؤية سيد النيل الجديد محاطاً بحراسه.

انتشر الشعب على طول الطريق الذي سيمر منه الموكب الملكي، وفرعون يسيطر على الجموع، ويلبس التاج الملكي الذي تتدلى منه كوبرا مقدسة من الذهب الخالص ويضع على رأسه شعراً مستعاراً مرصعاً بالأحجار الكريمة، وإكليل يزيد الزينة تعقيداً ويعطي الحاكم الشاب مظهراً جامداً يزيد من جموده تلك الصدرة الذهبية اللامعة التي كان يرتديها. كان رمسيس يمسك صولجانه والسوط المقدس بحزم، والحرس يراقبون كل شيء لمنع أية تجاوزوات. وهكذا كان سيد الأرضين الجديد الذي يعتبر نصف رجل ونصف إله، محط أنظار عشرات الألوف من الخدم والفلاحين الذين يتنازعهم الخوف من رؤية كائن خارق والفرح لأنه أخيراً سيكون لهم حاكماً من عرقهم.

كان كل عنصر من زينته يشكل لوحده رسالة واضحة موجهة إلى العالم، فصولجانه يؤكد بأنه سيد الخلق، وتاجه يذكّر بأن سيطرته تمتد إلى آلاف الكيلو مترات من وادي النيل، من السيول البعيدة في صعيد مصر وحتى البحر الأبيض المتوسط والتمثال الحي الذي تحول إليه هو نفسه لا يدل فقط على حاكم مدلل من قبل الآلهة، بل أيضاً تجسيد لهذه الآله، تجسيد يعتبر أساس كل حياة في هذه الفانية.

هذا يوم بهجة وورع، يوم توّج فيه رمسيس الثالث على ضفاف النيل، وظهر بكل فخامته أمام شعبه والأعيان قبل أن يذهب إلى ميدان الآلهة الواسع حيث بنيت المعابد المختلفة. من الآن فصاعداً سيكون الحاكم الجديد الكاهن الأول المسؤول، والمختار، عن الاحتفالات بالأعياد الكبرى القادمة.

لم يعد رمسيس يجهل شيئاً عن عاصمته الجديدة وعن أسوارها العالية المبنية من التراب الصلصالي وعن أحيائها الواقعة على جوانب النهر، ومع ذلك، لا تزال رؤية المعابد تثير لديه شعوراً بالعظمة، كمعبد آمون المهيب، الذي لا يمل رمسيس من تأمل أعمدته الضخمة التي يبلغ ارتفاعها عشرات الأمتار ويستند عليها سقف القاعة. ولا بد أن تطويقها يحتاج للكثير من الأذرع. كانت عظمة هذا المكان وقوة الإله الوصي على المعبد تملأ نفس الحاكم الجديد بشعور مهيب.. ويحتوي الكرنك على منشآت دينية أخرى مهداة إلى

الإلاهة موت Mout والإلاهة مونتو Montou ، ولكنها لا تقارن بدار آمون الهائلة. إلى جانب المعابد، تمتد الحقول التي ترعى فيها قطعان الثيران حتى أسوار المدينة، وفي وسط الحدائق تنتثر عدة أبنية هنا وهناك. كانت المدينة الدينية المعزولة عن العالم تضج طوال هذا الصباح بحركة الآلاف من الخدم المتمسكين بتراث آمون أباً عن جد.

كم تدين دار أمون لفراعنة الأزمان القديمة الذين سهروا على صيانة عظمتها! فأسماء أمينوفيس Amenophis وتوت موزيس Toutmosis وسيتي Sethi ، بل وحتى رمسيس الثاني العظيم أبداً، كانت محفورة على جدران صالاتها. ولن يقال أن رمسيس الثالث قد أهمل التراث، فهو كسابقيه من الحكام يريد أن يكون ابن آمون. وليست هذه البنوة الإلهية الأولى من نوعها، فمنذ السلالة الثامنة عشر أخذ كبار الحكام على عاتقهم سرد قصة ولادتهم الأسطورية وحفرها على جدران المعابد. فبذرة الإله تكبر فيهم من خلال وحدة النسل الذي ينحدرون منه، سواء أكان آباؤهم ملوكاً أم لا. ولكن إله طيبة بدأ شيئاً فشيئاً يخفي عن علماء البلاط قوى كونية أخرى. ثم امتزج بـ رع Re ـ الشمس التي تهب الحياة ـ ليصبح الإله الأساسي الكفيل ببقاء الإمبراطورية المصرية في الأوج. كم هو بعيد سِت Seth، ذاك الوصي على عائلة رمسيس الدلتاوية الأصل! هنا يجد رمسيس قوى التراث الحية، ويشعر بالوعي والمسؤولية تجاه هويته الجديدة.

لقد جاء قائد الشمال ليبرز تحت شمس الجنوب؛ فهو المسحور بعظمة التاريخ سيكمل مسيرة الألفي عام، وسيجعل طيبة من جديد من أوائل مدن العالم القديم.

جلس فرعون على عرشه في قصره الواقع على ضفاف النيل وهو مذهول بفخامة العاصمة القديمة المرهفة؛ ولكن ذلك لم ينسه حياة مملكته، فقد أخذ ابن سيتنخت مسؤولية الأحياء على عاتقه، وترك لظل أبيه المفقود ولكل فراعنة الأزمان الغابرة عناء التوسط لصالحه لدى الآلهة، في الجهة المقابلة من النيل. ومع ذلك فهو يعلم بأن عليه ألا يعتمد على هذا الظل الراعي، فلا أحد يعود من مملكة الغرب غير المرئية.

لم يقوَ رمسيس على نسيان أفكاره السوداء التي طاردته في الرحلة الجنائزية المنهكة في النيل؛ إنه الفرع الصلب من سيتنخت الذي قضى عليه القدر قبل الأوان. لم تعد سنوات المستقبل ملكاً له، ولكنه أمل السلالة وعليه أن يحقق أحلام الفراعنة القديمة. كان يشعر بالاطمئنان عندما ينظر إلى المجموعة الأولى من أعيان البلاط، فهي تمثل أقارب أبيه ورفاقه منذ زمن طويل. وقد وقفت إلى جانبه أيضاً عشائر أعيان الدلتا وكبار عائلات طيبة الذين وجدوا فيه أميراً شاباً يسير لإعادة إحياء مصر القديمة. من حسن حظ البلاد أن أبناء رمسيس الثاني نجحوا في مهامهم كأصحاب مقامات، وهي مهن متوارثة في غالب

الأحيان، كمهنة كبير كهنة آمون أو الآلهة الأخرى، ومدراء أقاليم المملكة وقادة الجيش. لم يخذل أنصار الشرعية هؤلاء سيتنخت، ولن يخذلوا اليوم ابنه.

مرت الأشهر الأولى من حكم رمسيس الثالث في تلك الأجواء الخيالية، فقد توقفت العاصفة التي كانت تهدد مصر ولم يعد المشرفون على القلاع يقرعون نواقيس الخطر، خطر شعوب البحر المنتشرة على حدود الدلتا، التي وجدت الآن ممالك أخرى تتغذى عليها وتنهبها. ومع ذلك كان رمسيس بحاجة إلى براهين تثبت له ولاء الجميع، فكثير من مدراء المحافظات اعتادوا التصرف كحكام صغار أثناء حكم تاوزرت Taousort وأتباعها السوريين، وآن الأوان لكي يسجد الجميع عند قدمي السيد الوحيد ويقدسوه كإله. لقد كادت مصر تهوي جسداً وروحاً للمرة الثالثة في تاريخها، وكان رمسيس واعياً لهذا الأمر، وقد شجعه مستشاروه على أخذ زمام الأمور في كل الأقاليم، فهم ذاكرة هذه الحضارة وعليهم أن يذكّروا الفرعون الجديد بدروس الليالي الغابرة.

انتهت فترة الأوج الأولى في مصر الفرعونية قبل ولادة رمسيس بألفي عام، عندما انهارت الإمبراطورية القديمة التي تمثل العصر الذهبي في مصر، عصر الأهرامات والتوازن والأمن. كانت المحافظات فيها مسرحاً للاضطرابات الاجتماعية، بعد تشقق الوحدة المصرية في نهاية الألف الرابع قبل الميلاد وفقدان فرعون السيطرة على زمام الأمور في البلاد. عندها انقض كل شخص على ثروات جاره، بل تقريباً على ثروات الملك في تدنيس قدري. ولا تزال آثار هذه الكارثة التي حلت بالأرضين محفورة في روايات النساخ المذعورة.

وفي زمن أقرب لعهد رمسيس حلت كارثة أخرى بالمملكة، في نهاية الإمبراطورية الوسطى، واستطاعت سلالتين حاكمتين إعادة تنظيم الأمور في البلاد بعد طرد الفراعنة الذين بنوا أهرامات الإمبراطورية القديمة. غير أن أسباب النكبة كان خارجية هذه المرة. فقد غزا الهكسوس القادمون من الصحراء الآسيوية بلاد النيل وقمعوا مقاومة ملوكها. هل كانو سينتصرون لو واجهوا فراعنة أقوياء يتمتعون بدعم شعبهم؟ كان رمسيس يعي جيداً أن انشقاق الأقاليم وطمع الحكام الصغار المحليين قد سبب شرخاً دامياً في التاريخ المصري في القرن الثامن عشر قبل البلاد. ولكن الجرح اندمل بأمجاد كبار فراعنة الإمبراطورية الجديدة وبحكم رمسيس الثاني اللامع.

تأمل رمسيس في هذه التشابهات المقلقة في التاريخ، فوجد مصر تعاني من الصراعات حول السلطة ورآها فريسة للعقبان من مختلف الأرجاء. وبدا له مصيره حاسماً؛ فهو سيدير الحقبة الرابعة من الازدهار، بعد الحكومات الضعيفة وسلب السوريين للتاج

ولسنوات شبابه. كان أمله بالحكم كبيراً، ولكن ما المصير الذي ستؤول إليه هذه الحقبة؟ هل ستكون كالنار المشتعلة في ركام من القش أو قاعدة لعهد لامع يستمر عدة قرون، كما كانت عليه الأمور في عصر الإمبراطورية الجديدة؟.

ويوماً بعد يوم كان الملك يثبت نفسه ويثبت قوته التي لا تقهر. كان واثقاً من الحكمة التي اكتسبها على مر السنين، فيصدر أوامره إلى النساخ الساجدين أمامه والمقتدين بآثاره كإله حي جديد. لقد اختفى الأمير تماماً، على الأقل في نظر البلاط؛ وإذا كان قلبه ينبض على إيقاع انفعالات رجل شبيه بالرجال الآخرين، فلم يعد أحد من البلاط يسمع صدى هذه النبضات.

كان استعراض حكام الأقاليم يشكل بالنسبة لرمسيس مصدر فرح وقلق بآن واحد؛ فقد استقبل الفرعون نائب ملك نوبيا المكلف بإدارة الحدود الجنوبية الهامشية للإمبراطورية، وقام هذا الأخير بإلقاء التحية عليه برفقة حراس سود ضخام الجثة، مسلحين بالرماح والأقواس. كان رمسيس كسائر المصريين مسحوراً بهذه المنطقة الواقعة في أعلى النهر، عند منبع النيل، وكان يظهر عادة حذراً ضرورياً تجاه جيشها الذي كان المصريون يهزمونه ويخضعونه على الدوام. استشف رمسيس من الكلام الموزون الذي نطق به نائب الملك ما من شأنه أن يدفعه إلى توطيد سيطرته على هذا الجنوب الوحشي الواسع خلال السنوات الأولى من حكمه، أما الآن، فعليه أن يستعلم أخبار الأراضي الأخرى المهددة، تلك التي تقع في شمال مصر، والتي هجرها منذ شهور.

كان حكام الدلتا صورة عن مدنهم التجارية: أشخاص منذورون لجمع المال. كانت شعورهم المستعارة المضفورة وأثوابهم المصنوعة من أقمشة نادرة والمجوهرات التي تزين أيديهم تدل على المكاسب التي جنوها من وراء وظائفهم. لم يكن أحد يجرؤ على رفع عينيه في وجه الفرعون الجاثم على عرشه الذهبي، حتى لو كانت نظراته مجاملة وملاطفة، فذكرى المذابح التي أقامها سيتنخت بالسوريين وأصدقائهم ما زالت عالقة في الأذهان، وكان يكفي أن يحرك رمسيس صولجانه لكي يرص أصحاب المقامات صفوفهم وفرائصهم ترتعد.

كان على الفرعون أن يهتم أيضاً بنساخ كوبتوس Coptos والمناجم الثمينة في جبال الوادي الأوسط ووادي رجال الفيوم، الذي يشكل خزاناً واسعاً من الماء ومنطقة صيد هيأها الفراعنة عند مدخل الدلتا في ليل الأزمان الغابرة.

وهكذا بدأ حكم رمسيس الثالث في ظل آمن خادع، في مصر تريد تصديق بعثها الجديد، ولا ترى حاجة إلى دفع ثمنه. وبدأ رمسيس يبحث عن مستشارين. كان حكام

المحافظات في خدمته، ولكن من الخطر اللجوء إليهم دائماً. ورويداً رويداً بدأت مجموعة من النساخ تتشكل حوله وتساعده بشكل فعّال.

في طيبة، كانت مؤن كبار أصحاب المقامات في متناول يد رمسيس الثالث، وكانت المدينة تتسع شيئاً فشيئاً تحت راية إلهها آمون، الذي يجب أن ينتمي كبير كهنته، المسؤول عن ديانته ومعبده، إلى أقرباء الفرعون... كان باكنخونصو Bakenkhonsu كبير كهنة الإله عندما خلف رمسيس أبيه على العرش، وهو ابن إحدى الشخصيات المهمة في البلاط. مثقف، ذو ثروة هائلة، ومحترم من قبل الجميع. هل سيستمر التحالف بينه وبين السيد القادم من الشمال كما كان الأمر عليه في عهد سيتنخت؟.

هنا عرف رمسيس كيف يظهر مواهبه كحاكم، إذ يجب إعطاء كبير الكهنة الذي يتمتع بقوة كبيرة ضمانات تقدير واحترام. وبالفعل حصل هذا الأخير على كمية هائلة من الذهب وقطعان الثيران بلغت حداً لم يكن يحلم بالوصول إليه. ولكن في الوقت نفسه لم يكن فرعون ليعهد إليه بجزء من سلطته بأي شكل من الأشكال. كان رمسيس يشعر بالامتنان لآمون لأنه قاده إلى القصر الملكي، فقد عادت عليه تقواه تجاه إله طيبة الكبير برعاية إلهية لم تنقطع منذ موت أبيه، وسوف يستفيد باكنخونصو Bakenkhonsu من الأمر كمئات من الكهنة الآخرين المنقطعين إلى الصلاة أو إلى وظائف أخرى. لن يموت هذا التحالف بين رمسيس وباكنخونصو Bakenkhonsu ، فلا بد أن الكاهن - وهو عراف مشهور - قد شعر بتصميم الحاكم على هذا الأمر. فنزاهة عقيدة رمسيس قد لا تجعله يحتمل اهتمام رجال الدين بمصالحهم الشخصية بهذه الأنانية وهذه الروح التجارية الجشعة، وستظهر الأيام أن ضم رجال دين آمون إلى الحكم وكسب ثقتهم هو أمر نافع للغاية. فمنذ قرن، استبعد الفرعون أخنتون كبار الكهنة عن الحكم ودفع ثمن ذلك غالياً، ولم يستطع وريثه التعس توت عنخ آمون - رغم إعادة التحالف معهم - أن يستعيد مصداقيته لديهم لشدة غضبهم من أبيه.

وجيلاً بعد جيل أصبح الكهنة قوة لا يمكن الإحاطة بها، واستطاعوا تجميع كنوز من الذهب والفضة والحصول على امتيازات غير عادية، فكانوا كالدولة داخل دولة. ولكي يثبت الفرعون بأنه ابن إله، عليه أن يجد من يؤكد انتمائه الإلهي هذا؛ ومن يستطيع التكفل بهذا الأمر أكثر من الكهنة؟ فها هي فرصة أخرى تتاح لهم للتلاعب بالأمراء.

شعر رمسيس بالتفاؤل وهو في بداية حكمه، فالأمن يعم طيبة ومعابدها، وبعد سنتين من جلوسه على العرش سيعطي لحكمه كل أبعاده.

الفصل الثالث

في منابع الحياة

كان بلاط طيبة يعج بالناس منذ بزوغ الفجر وحتى آخر خيط من خيوط الشمس، فكل نساخ الوادي وأصحاب مقاماته يهرعون إلى فرعون: النساخ ببردياتهم وصناديقهم الغنية بأدوات الرسم، والعلماء العجائز ذوي الأجساد الضامرة بما تحويه جعبهم من معلومات. هنا تُعقد الجلسات على الدوام، فهؤلاء الرجال هم عيون وآذان الحاكم، بل ويديه اللتان تقودان بحزم إحدى أكبر بلدان العالم القديم. في كل يوم يكلف رمسيس الثالث النساخ بنسخ البرديات ويوبخ حكام الأقاليم ويأمر برفع أنقاض معبد منسي، وكأنه يريد أن يتدارك سنوات شباب مضت في الصراع مع حكام غير جديرين بالعرش. ربما كان قلقاً لتوليه العرش متأخراً، ولذلك سعى جاهداً ليجعل من سنوات حكمه الأولى عملاً مكتملاً. لقد مضى على توليه العرش عشر سنين، وأصبح همه الوحيد في سنواته الأربعين الهادئة هو السهر على أفعال الرجال في بلاده.

لم يكن النساخ الوحيدين الذين يتحلقون حول فرعون، فهناك الكهنة المتدثرون بوقارهم، الذين لا يتكرمون عليهم حتى بنظرة، والذين يتنافسون بتصنع البساطة فيكتفون بارتداء التنانير المتقنة الصنع بدل الأثواب ذات الأقمشة الجميلة والنادرة؛ فنفوسهم غنية بخير الرب، وهم يعلمون أن فرعون يعتمد كثيراً على صلواتهم ويستشفوا في نظراته القلقة أهمية تنبؤاتهم بالنسبة إليه. في البلاط، وبعيداً عن شؤون العالم، يراقب هؤلاء الأشخاص المكرمين بعضهم البعض ويقدحون بعضهم البعض. كان الورثة من نسلهم متواجدون دائماً في القصر، وهم محسودون على مصيرهم حتى وإن كانوا ينتمون لآخر فرع في السلالة. وهم ظاهرياً لا يتمتعون بالهدوء إلا في حضور الحاكم، الذي يجب على نخبة الوادي أن تكرس حياتها له جيلاً بعد جيل.

وعالم هؤلاء الرجال يشبه كثيراً عالم الشعوب الشرقية في زمننا هذا. ومن المؤكد أن الحياة الهادئة في مصر الفرعونية تتيح الفرصة أحياناً لاكتشاف نساء الوادي بشعورهن السوداء المضفورة ووجوههن السمر. لقد ألحقت راقصات مقدسات بالمعابد، فكل عيد يقام للإله هو فرصة للإعجاب بليونة هذه الأجساد الشابة، الخبيرة والمُلهمة، التي تربّت في ظل جدران المعابد الإلهية. ولو تسنى للمرء سماع أحاديث الأعيان وهم يجلسون في ردهة الاستقبال الملكي في انتظار دورهم لمقابلة الفرعون، لعلت الابتسامة ثغره من تباهي أصحاب المقامات بزواجهم من بنات أسيادهم أو رؤسائهم في الرتب. ولكن جميلات النيل يقبعن في الظل، ولا يوجد نساخ لتسجيل سيرة الأنثى في قاعات الجلسات في البلاط... فهل المرأة هي حقاً كائن صغير يشرد مع غناء العصافير الذي لا تمل قصائد ذلك العصر من ذكره؟ لكن شوارع العاصمة مليئة بالنساء المتفرغات للأعمال اليومية الشاقة، والحقول تعج بالفلاحات المنهكات اللواتي هَرِمْنَ قبل الأوان.

في البلاط، كان **رمسيس الثالث** يبدو سعيداً بصحبة الجميلات، فقد ازداد عدد خليلاته بسرعة كبيرة؛ ولكن هذا العدد لم يكن يقارن بالجمهرة النسائية التي كانت تحيط **برمسيس الثاني**. أما **سيتنخت**، فقد تولى العرش في خريف العمر، لذا لم يكن بلاطه يحوي هذا العدد من الجميلات. ولكن ما هو النموذج الذي اختاره الفرعون الجديد؟ منذ زمن لم يرى الناس في طيبة هذا العدد الهائل من الفنانات وبنات الهوى. والمصريون يحبون الحياة بما فيه الكفاية لكي يستمتعوا بها ويحسدوا الفرعون السعيد على ما لديه. وتثبت الحفلات الملكية الكبيرة حسن ذوقه، فهناك عدد كبير من المغنيات البارعات الجمال، ذوات الضفائر السوداء الطويلة المسترسلة على أكتافهن، والتنانير التي تلف أجسادهن بذوق ومهارة، واللواتي يترنمن بالألحان على أنغام القيثارة. وعندما يبدأ المستمعون المسحورون بالأناشيد بالتخدر من أثر الموسيقا، تأتي الراقصات، فترتج الأرض من ضربات أقدامهن ويرتج الهواء من أصوات دفوفهن. فكيف لا يقف هؤلاء المستمعون عند سماع دقات الصنوج التي تضرب بها أيدي الجميلات الماهرة بإيقاع؟ عندها تتحول كل أنظار الأعيان إلى هؤلاء الراقصات المبتسمات والمبدعات، والمتفانيات في سبيل الرجل الذي يشار إليه بالحياة والصحة والقوة: فرعون...

إن لحظات البهجة هذه تدل على سعادة **رمسيس الثالث** بالعيش في عاصمته الجديدة وبالنجاح فيها، فها هو أخيراً يستسلم لنشوة مصير لم يكن ليأمله؛ بيد أنه لا زال متردداً بين فرح اللحظة والطموح، ولا زال غير قادر على الإحاطة بحدود المجد. ولكن هؤلاء الفنانات الجميلات والقادرات على تحريك أجسادهن بليونة وبراعة وضرب الأرض

بأقدامهن لساعات متواصلة، هل هن نساء أم صور من الحلم؟.

بدأ ضيوف فرعون بالتصفيق وهبوا واقفين، ولكن هذا ليس دليلاً على الاحترام، فجمال فتيات النيل اللواتي تم إعدادهن منذ سنوات طويلة لهذا الفن الغريب يظهر قيمة حفلات الفرعون، تماماً كروائح مخروطات العطور الناعمة الممزوجة بالعسل، والتي يضعها العبيد على رؤوس المدعوين؛ فكلاهما يعجب الحضور ويسكرهم.

والمرأة في بلاد النيل كما في سواحل الشرق كله هي نكهة الحياة التي يقدّرها الجميع دون أن يحترمها. ولكن هناك صورة الأم التي تذكرها صلوات المصريين بمحبة وحنان. الأم الخالدة، الولودة، والحساسة الناعمة **كتيي** التي استفاد **رمسيس الثالث** كثيراً من نصحها له أيام شبابه. وهناك أيضاً الزوجة التي يجب ألا ننساها، فهي المرأة التي تحمل في أحشائها آمال الزوج، سواء أكان فلاحاً بسيطاً أو وزيراً غنياً لديه حشد من العبيد.

أما الأطفال، فهم أعظم مصدر للسعادة، لأنهم الاستمرار والخلود، ولأن الولادة تبعد شؤم الموت. وما أجمل سماع ضحكات الطفولة وغنائها اللا مبالي بالمصير المأساوي لكل البشر! وأم الأطفال هي حارسة المنزل ورفيقة هموم كل يوم؛ هي المرأة الخالدة ذات الوجوه المتعددة والابتسامة القديمة قدم الإنسانية؛ هكذا كان يُنظر إليها في إفريقيا القديمة التي ظهرت فور انتهاء عصور ما قبل التاريخ. ولكن جدران القصور لا تروي لنا شيئاً ـ أو تقريباً لا شيء ـ عن هذه المرأة التي تُحترم لدورها وقوة أحشائها السحرية والعظيمة تبقيها في الظل، فهي تكبر وراء جدران المنازل وفي حريم البلاط أيضاً، لأن الغني والقوي لا يستطيع الاكتفاء بزوجة واحدة. ولِمَ العيش مع رفيقة واحدة فقط؟ فالدين المصري لم يتطرق إلى هذا الموضوع، وإذا كان الرجل يستطيع أن يتكفل بغذاء أهله وأن يحيط نفسه بمجموعة من الأطفال الفرحين فتلك أعظم نعمة يمن بها الله عليه حسب عقلية ذلك العصر، بل وأجمل تسبيح للخالق.

ولا يختلف **رمسيس الثالث** عن معاصريه بشيء، ويثبت ذلك احتفالاته والخليلات اللواتي يحطن به. وتمثل الأعياد الملكية فرصة لكشف الوجه الآخر للحاكم، وجه الرجل الحساس، الذي يبحث عند المرأة الشريكة عن علاقات أخرى وحميمة، يستطيع فيها الملك ذو التعابير الجامدة رمي القناع بعيداً. تزوج رمسيس في سن مبكرة كما جرت عليه العادة في ذاك العصر، ووقع اختياره على فتاة شابة من عائلة نبيلة كلها رهافة وجمال. إنها **إيزيس** التي شاركته حياته عندما كان ضابطاً ثم رجلاً من أصحاب المقامات، وقبل أن يبدأ **سيتنخت** حملة الإنقاذ ضد **تاوزرت** Taousert بزمن بعيد. كانت **إيزيس** زوجة للحاكم قبل تتويجه بعشر سنوات، ورُزقا بطفلهما الأول في السنوات العاصفة من الحرب الأهلية،

في زمن توالت فيه المحن. هذه المرأة التي تنتمي إلى سلالة عريقة، ولكن ليست من نسل الفراعنة، لاقت نفس مصير زوجها الأسطوري؛ ففي البداية كانت إيزيس رفيقة للوريث الملكي، ثم زوجة الملك الأولى التي سترافق خطواتها خطوات سيدها مدى الحياة.

كانت العائلات الأميرية كثيرة؛ وحده القدر سمح **لايزيس** بالوصول إلى هكذا مرتبة شبه إلهية؛ فلم يكن الخلف الملكي يخاطر بهذا الشكل إلا نادراً. ففي تقاليد السلالات المصرية كان الفرعون يتزوج من فتاة تجري في دمها فضائل البذرة الإلهية؛ هذه الفتاة يجب أن تكون في مقام الزوجة الأولى من بين الزوجات الأخريات، لذلك كنا نرى الأمير الشاب الوريث للعرش يتزوج من أخته أو نصف شقيقته بشكل عام في كثير من الأحيان؛ فمن بين الفتيات اللواتي يلدن من الحريم الملكي، كان الوريث يختار ملكة المستقبل. لِمَ هذا الخروج عن المألوف وارتكاب أكثر المحظورات تحريماً في المجتمعات المتمدنة منذ فجر الإنسانية؟ ذلك أن فرعون لم يكن رجلاً بل كائن مؤله، ويستطيع لهذا السبب أن يتجاوز مبدأ الزواج بغير الأقارب، الضروري لكل مجموعة إنسانية، والذي له قوانينه الأخلاقية الصارمة.

وسنرى بعد زمن ليس بالقصير، أثناء العصور الوسطى المسيحية، أن الزواج بين رجل وامرأة تربطهم قرابة بعيدة تعود للجيل الرابع من أسلافهم سوف يُحظَّر على كل الناس، حتى على أبسطهم مقاماً. ربما لم يذهب المجتمع المصري بعيداً في التحريم، لكن هذا الزواج المخالف للطبيعة لم يكن موجوداً خارج محيط العائلة الملكية، وهذا الأمر البسيط يشير إلى طابعه الإلهي.

بهذا الزواج يعود ابن الآلهة فرعون إلى الدم الإلهي، ويضمن بذريته المقدسة مثله دوام سير العالم بالشكل الصحيح، عبر تتويج الملك الوريث للعرش، المنظم الكبير لأمور البلاد.

واجهت عائلة **رمسيس** مواقف معقدة شأنها شأن الكثير من السلالات الناشئة؛ ففي فترة الانحطاط في العقود الأخيرة أضحى الحكم الطويل الأمد والمزدهر نادراً جداً، فلم يجد الحكام الوقت الكافي لتأسيس عائلات مستقرة وثابتة. أما فيما يتعلق بمغتصبي العرش ـ **كالسوريين مثلا** ـ فقد كان من المستحيل منح أولادهم الحق الشرعي في الخلافة. لقد عاش رمسيس الثالث، ابن مؤسس إحدى السلالات الملكية، نصف عمره قبل الوصول إلى الحكم المطلق، ولكنه لم يشأ التقيد بالضعالة، فاختار زوجته من خارج العشيرة الملكية. وعندما وصل إلى قمة المجد لم يتخلَ عن زوجته الأولى واستمر تعلقه بها كالسابق. ومن جهة أخرى لم تكن أمه تيي ابنة فرعون، وكذلك زوجات الملوك السابقين، وهذا دليل على

اضطراب الأوضاع في تلك الفترة. لقد عرف الملك الذي يشعر بصراع بين الرغبة والمسؤولية كيف يتصرف بحكمة، فهو لن يتخلى عن حبه من أجل سيدة ولدت في إحدى أكبر العائلات النبيلة... والمرأة التي أظهرت له الكثير من الإخلاص والشجاعة على مر الأيام والمحن ستحظى بلقب نبيل بفضل صفاتها الكريمة. وستأتي زوجات أخريات للجلوس إلى جانب الزوجان، ولكن لن يكون لإحداهن المقام العظيم الذي تتمتع به الزوجة الأولى.

لقد وضع القدر إذاً **إيزيس** المخلصة ذات الاسم الجميل في المقدمة؛ و**إيزيس** هو اسم الإلهة المؤسسة لمصر، وهي من أفضل الزوجات وتجسد التفاني والإخلاص، فهل ستكون زوجة الحاكم كذلك؟ هل تذكّر هذه الصفات **رمسيس** بصفات أمه؟ لم يكن اسم **إيزيس** هو الدليل على ذلك، ولكنها كرست نفسها لعبادة زوجة **أوزيريس**. في الواقع **إيزيس** هي ابنة امرأة آسيوية تنتمي لعائلة نبيلة وتدعى **حبادجيلات**، وهكذا يتضح أن ملكة النيل سامية وشرقية، على الأقل من جهة أمها؛ وربما عاش أسلافها على ضفاف **العاصي** أو **الفرات**، على بعد مئات الأميال من الأرض السوداء، في الجهة المقابلة من الصحراء المعادية!.

هل كان لاختيار رمسيس الثالث معنى على ضوء هذا الحدث الفريد؟ هل كان جمال إيزيس وتفانيها السبب الوحيد لهذا الحب الحقيقي الذي استحسنه سيتنخت؟ لا بد أن إيزيس كانت مختلفة عن خليلات رمسيس الشاب، على الأقل من الناحية الشكلية، فهي لا تنتمي من جهة أمها إلى أبناء مصر الذين نتجوا من اختلاط شعوب البحر الأبيض المتوسط بالشعوب الإفريقية. هل ستلعب هذه الخصوصية دوراً لصالحها؟ على أية حال، كان هناك العديد من السوريين ذوي البشرة الشاحبة في البلاط. قد يبدو وضع إيزيس وكأنه تحالف بين عشيرة أجنبية وسيتنخت، ولكن رغم أصلها الأجنبي، لم يكن للزوجة الجميلة إيزيس أية صلة بأصدقاء الملكة تاوزرت Taousert ، وقد كان رمسيس الثالث يصر على تكريم أمها في سنوات حكمه الأولى. كانت حبادجيلات الغريبة في مصر النهضة، نهضة القيم الأكثر قدماً فيها، ملكة أُمْ تُطاع. لم يندم رمسيس يوماً على هذا التحالف، ولم تكف نظرات زوجته الجميلة وشعرها الغزير وبشرتها البيضاء يوماً عن سحره.

إن هذا الزواج يدل على اضطرابات ذلك الزمن، ولكنه يثبت أيضاً التحول العميق الذي أدى إلى تطور المصريين. وبهذا يكون رمسيس أميراً ينتمي لعصره؛ فمنذ زمن بعيد لم يعد هناك وجود لنظام الاكتفاء الذاتي في الوادي، فقد اكتشف المصريون منذ عهد الإمبراطورية القديمة فائدة التجارة مع سواحل شرق الأبيض المتوسط. ثم صعد التجار

الفينيقيون السوريون شيئاً فشيئاً إلى الوادي الطويل المعزول في غلافه الصحراوي، كما قامت الإمبراطورية الجديدة منذ القرن السادس عشر قبل الميلاد بغزوات امتدت حتى سواحل الفرات. لكن هذا التوسع الذي أصبح أمراً طبيعياً كان له أثراً سيئاً في انفتاح البلاد على العالم وأخطاره. ومنذ ذلك الحين عرف السفراء كيف يقدمون إلى الفرعون أميرات رائعات الجمال ليزين بهن حريمه، ولم تعد العلاقات الدبلوماسية تقتصر على الهدايا الفخمة، بل باتوا يتبادلون الخليلات والزوجات، وبالأخص الزوجة الأولى.

كانت هذه الزيجات تعقب أحياناً المعارك العنيفة، وبالذات مع الإمبراطورية الحثية ذات القوة والنفوذ. إلى ما آل إذاً مصير دم آلهة وادي النيل؟ كان لاختلاط هذا الدم بدم الحثيين الهندي ـ الأوروبي ودم السوريين السامي أثراً في صهره في بوتقة الشرق القديم الحضارية. ولم يبد أحد في الوادي امتعاضه من هذا الأمر، ولا حتى الكهنة؛ فقد وافقوا على هذا الانصهار بسياستهم الحكيمة لأنه يعكس انفتاح الوادي على الإمبراطوريات الأخرى الأكثر حداثة في الهلال الخصيب.

لم يكن هناك داع إذاً لكي تقلق إيزيس من لون بشرتها الأكثر بياضاً من بشرة فتيات النيل العنبرية، فهي تشكل مزيجاً من الشعوب العظيمة، وعندما دعاها رمسيس لتكون إلى جانبه كان يعلم أنه يستطيع الاعتماد على فضائلها. ومن جهة ثانية لم يكن أحد ليستاء من لون بشرتها ومن شعرها الذي يفضح أصلها الأجنبي، فقد كانت تتزين بالزينة الملكية وكان ذلك كافياً ليجعل منها سيدة الوادي الأولى. فماذا تستطيع خليلات الحريم الملكي ضدها؟.

لم تكن لقاءات رمسيس مع خليلاته لتسبب صدمة للزوجة الأولى، ولم تكن تخشى شيئاً من رفيقاته، فقد كانت واثقة بأن أبنائها الملكيين الذين ولدوا من أحشائها سيضمنون الاستمرار للسلالة عندما يحين الوقت المناسب. وهي تعلم أن زوجها يقضي الليل مع خليلاته بعد استراحة المساء وسماع الموسيقا في حديقة قصره في مدينة حابو Medinet - Habou .

في الفجر، يعود الفرعون ليصبح موضع كل التوسلات، أما إيزيس، فتنتظر وصول خادماتها وتوزع ابتساماتها على الخليلات اللواتي ازداد عددهن في الحريم كما ازداد عدد الزوجات الملكيات. كانت الملكة تنظر إلى هذا الأمر بعين التسامح وتحكم هذا العالم النسائي الصغير وأمامها هدف وحيد هو إسعاد الرجل الذي احتفظ لها بالشرف الأعظم... ولكن القلق يعكر مزاجها من حين لآخر، فهي لا تعرف ما إذا كانت الزوجات الأخريات يشاركنها في الهدف النبيل، فماذا يستطيع الحاكم الذي أخذ يتقدم في السن أن

يفعل أمام سحر النساء الشابات؟ لقد أصبحت إيزيس في الثلاثين من العمر وبدأ الزمن يضع علائمه على بشرتها فيرسم عليها بعض التجعدات.

ولكن لا شيء يهددها الآن، فهي ملكة مصر، زوجة الحاكم الأولى، وعائلتها تنعم بالجاه والمال. وقد دُفنت جثة أمها في القبور الملكية، وهذا شرف عظيم لا يحلم به أي رجل من أصحاب المقامات؛ فقليلات هن النساء النبيلات اللواتي استطعن الخلود إلى الراحة الأبدية في هدوء وادي الملكات القريب من قمة الجبل، والواقع في مضيق متصل بوادي الملوك.

كان حضور الحفلات والمشاركة بالعروض الدينية أو الملكية الكبيرة كافياً لاحتكار إيزيس، ولكن ملكة مصر لديها واجبات أخرى أكثر أهمية، يجب أن تظهر فيها كل فضائل الزوجة المختارة صاحبة المقام الأول. فالزوجة الأولى هي كاهنة كبيرة، أقل مرتبة من الفرعون ذو الطبيعة الإلهية، ولكنها تُكلف بتبجيل بعض الإلاهات وتساهم بذلك في دوام الحياة الدنيا. كان وضعها الجديد كملكة يشكل انقلاباً غريباً في حياتها كامرأة، تماماً كما كان عليه الأمر بالنسبة لزوجها. ولكنها كإبنة عائلة نبيلة، سبق لها أن تعلمت فنون الموسيقا والرقص وقواعد اللباقة والاستقبال الصارمة. والآن لم تعد تجهل شيئاً عن مجموعة الآلات الموسيقية الرائعة في البلاط، ولا عن العطور التي تُسكب على المدعوين أثناء الولائم الملكية. كانت وريثة الأرستقراطية المتكاملة والمرهفة لحظة تنصيب زوجها، ودورها الشبه ديني سوف يتطلب منها الإطلاع على أسرار معقدة ودقيقة، أسرار الحياة الأبدية والعبادات السرية، لكي تستطيع النبيلة الشابة التحول إلى كاهنة كبيرة قادرة على خدمة الآلهة الشامخة دون ارتكاب أي خطأ؛ فمعرفة العالم الآخر وفهم نشأة الكون أمور أعدها علماء الحياة وتدارسوها، ولا يجوز للبشر العاديين الإطلاع عليها.

وشيئاً فشيئاً بدأت إيزيس تتحد مع الجوهر الإلهي الخارق للطبيعة، فتظهر للجموع بوجه جامد وتحمل الصولجان وتتزين بالعقود، أو تنزوي في أبعد غرفة في البلاط لكي تصون كرامتها. قد يكون ذلك أفضل وسيلة لتجنب الخطر، فربما حاولت إحدى زوجات الملك الشابات أن تسرق منها مكان الزوجة الأولى وتحرم ذريتها من عرش يحلم به الجميع؛ كما أن مقامها ككاهنة كبيرة وصلاتها برجال الدين ذوي النفوذ والسلطة سيدفع بعضهن للتفكير بأمور كثيرة.

في الشرفة الملكية حيث تحضر برفقة زوجها استعراض الفرق العسكرية وأصحاب المقامات، كانت إيزيس تستمتع بسعادتها بكل هدوء؛ فزوجها لا يظهر لها إلا المحبة،

وعواصف العالم الخارجي لم تقرر بعد الهجوم على أبواب طيبة؛ أما الجموع، فقد كانت راكعة عند أقدامها، تقوم بحركات المصلين لتقدم لها تحية الخلود.

* * *

كانت الملكة إيزيس تشعر بأن الأيام لن تمضي بسعادة وهدوء، فهي تعرف زوجها منذ زمن طويل بما فيه الكفاية لكي تحزر بأن هناك شيئاً يضايقه، مهما كان حجم هذا الشيء تافهاً. ولم يكن رمسيس يخفي عنها غضبه من رؤية البلاد التابعة له تتجرأ وتزعجه برفضها دفع الإتاوة إلى **كنوز** فرعون، لذا لم يدهشها تجمع الجيش وتدفق فرق عسكرية ـ غير كاملة ـ على طيبة. فقد تم تحريك عدد معقول من المقاتلين يقدر بعدة ألوف حسب النساخ، وقد طمأنها هذا العدد لأنه يعني أن الحرب لن تقوم في كل الجهات من البلاد. ورمسيس لا يندفع بتهور لمحاربة شعوب البحر الرهيبة التي لا زالت مستقرة على طول الدلتا وخطرها يزدد أكثر فأكثر، وهو لا يزال يذكر بألم المناوشات التي تمت مع كتائب الملكة تاوزرت Taousert ، ويعرف أن مصير الجيش يعتمد كثيراً على حكمة القائد، حتى لو كانت أعداد جيشه تسمح له بخوض كل المعارك. لقد عمل الوقت لصالح سيد مصر الجديد، فالبلاد تستفيد من حكمة ملكها المجرب والخبير بالحروب، وقريباً سيكشف الزوج المهموم عن هدف الحملة: إنه معاقبة بلاد **كيش**، أي **نوبيا**، فهي تستحق العقاب الرادع.

نوبيا... هذا الاسم المنسي في قرننا العشرين لولا أن تذكرنا به بعض الحفريات الأثرية وتماثيل معبد **أبو سنبل** الهائلة، المنتصبة على أبوابه، وكأنها تريد أن تثبت وجود هذه البقعة السحرية في نظر المصريين القدامى.

في أعلى النهر في طيبة، بعيداً نحو الجنوب، يأتي الشلال الأول ليكسر انتظام مجرى النيل القوي. وتبدو الصخور والأحراج البرية متناقضة مع التنظيم الظاهر للزراعة والقنوات في باقي الوادي نحو أسفل النهر. هنا تتوقف بلاد الأرضين المصريتين وتتناقص الأرض السوداء الطيبة، بينما تكبر الصحراء ـ أو الحمراء كما يلقبها المصريون الوجلون ـ التي تتجاوز مساحتها مساحة الوادي ذي الحقول المتفرقة التي لم تمدنها يد الإنسان. ولكن ذلك لا يعني أنها لم تكن مسكونة منذ القدم؛ فمنذ آلاف السنين وسود نوبيا يعيشون هنا، ولكن أشغالهم لم تساعدهم على خلق مجتمع يختلف كثيراً عن المقاطعات الإفريقية التي يحكمها زعيم صغير. هنا لا يوجد وادٍ خصب ولا تجمع بشري سحري يقوده فرعون. كانت التجمعات البشرية في مصر مصدر ازدهار الحضارة، فلولا أيدي الجموع الخفية التي تعمل تحت إمرة النساخ لما كان هناك أثر لروائع العالم القديم؛ فالأهرامات والمعابد

والبرديات الثقافية التي تركتها النخبة الخبيرة في دور الحياة تشهد على النظام البشري الذي فرضه قادة الشمال المستنيرين.

قليلاً ما نجد في نوبيا آثاراً لمبان إنسانية تقطع اتصال السهول الصحراوية الواسعة التي يتخللها النيل. فمن الشلال الأول وحتى الشلال الخامس يرسم النيل حلقة كبيرة تتحدى الصحراء التي تطوقه من كل جانب، وتسخر منها وهي أكبر صحراء في العالم. يا لعظمة أسرار الطبيعة! فالنيل هو النهر الوحيد القادر على قطع صحراء بحجم قارة دون رافد واحد، وهو النهر الذي يبعث الحياة في الواحة المصرية الشاسعة. ربما تعود أسباب قوته إلى غزارة الأمطار الإستوائية التي تهطل على بعد خمسة آلاف كيلو متر نحو الجنوب، فهذه الأمطار المدرارة تسمح بتغذية البحر الأبيض المتوسط بعد المساهمة في دعم أرصفة الدلتا الطمية.

فلِمَ الدهشة من انجذاب المصريين إلى منابع نهرهم المؤله؟ كان رمسيس الثالث، كسائر الحكام السابقين، يحلم بالأصقاع الأسطورية الواقعة في أعلى النهر، حيث تشكل الطبيعة الوحشية قلب الخليقة الغني. يجب ألا تفلت نوبيا من يد الفرعون مهما كلف الأمر. وهذا التمسك ببلاد كيش ليس حديث العهد، فالحكام الأوائل للإمبراطورية القديمة غزوا نوبيا في نفس الحقبة التي بنيت فيها الأهرامات.

هل كان أبناء النيل يخشون جيرانهم النوبيين إلى هذا الحد؟ كان هؤلاء السود رجالاً جسورين ومصارعين، ولكن تقنياتهم وأسلحتهم ليست بمستوى تطور السلاح الحربي المصري. ها هي ذي جيوش رمسيس الثالث في طريقها الآن نحو الجنوب، وهناك طبعاً بعض العربات وصفوف رماة السهام كالمعتاد، والأسلحة المحمولة على الأكتاف وكتائب الجنود المشاة. يعتمد الفرعون المخلص للمبادىء القديمة على مقاومة أبناء الفلاحين، الذين كانوا منذ الأزل يشكلون أساس فرقه العسكرية. كانت صفوفهم تُرى من بعيد محاطة بالدروع الجلدية ومنظمة بشكل جيد. أما رؤساء الأرتال، فقد كانوا في المقدمة، يذهبون من حين لآخر إلى عربة الفرعون لأخذ الأوامر؛ فالجيش لم يستعد بعد لشن المعركة الحاسمة.

ما الذي كان يريده رمسيس؟ هل هي الأتاوة التي تخضع لها نوبيا ونائب ملكها حسب العادة؟ من المؤكد أن أي بلد تابع لفرعون لا يستطيع أن يُعفى منها. ولكن في هذه الفترة المضطربة، التي يترصد الجميع فيها ضعف الحاكم الشاب، سيكون التردد ـ مهما كان بسيطاً ـ بمثابة إشارة النهاية.

ربما كان ذهب نوبيا وجلود الفهود والأسود وغيرها من حيوانات حقول السافانا الغربية التي لم تعد كثيرة الآن في الوادي المصري المكتظ بالسكان هي السبب في هذه الحرب؛ فقد أصبحت هذه الثروات في متناول يد البعثات البحرية التي ركبت البحر الأحمر نحو الجنوب الكبير. في الواقع، ليس هناك أي مصري يحتمل رؤية منابع النيل التي تتدفق من مكان ما في هذا الجنوب اللا منتهي يتحكم بها أحد غيره. وهو تخوف نبرره لأي فلاح يعيش في هذه الواحة المولودة تحت الشمس الحارقة.

فـ رع Re التي تنشر الحياة هي أيضاً رمز الموت عندما تبلغ خط السمت، كالإلاهة سيخمت Sekhmet ذات مشفر اللبوة. والماء طعمه كطعم العسل، وله عند المصريين عشرة أسماء تختلف حسب اختلاف الفصول.

منذ عشرين قرن والمصريين يسيطرون على جيرانهم الجنوبيين ويغزوهم بانتظام ويسوقوهم إلى بلادهم كعبيد محتقرين جداً. فهم كسائر شعوب العالم القديم التي تعتقد بحزم أن الآخر ـ وخاصة إذا كان مختلفاً ـ هو من مرتبة دونية. هكذا نما الخوف من الأجنبي وتوحدت العشائر في أزمان ما قبل التاريخ لصد الغريب الذي كانت تشك بعداوته القدرية.ولم يكن أحد على مر التاريخ يمد يده إلى الأجنبي إلا بعد صراع طويل. ويشهد التحالف على درجة تحضر الشعوب المتفقة. والتاريخ مليء بأمثلة مأساوية وغير محتملة عن رفض الآخر؛ والمؤسف في هذه الأمثلة هو أن كثيراً منها ظهر بعد ولادة السيد المسيح بزمن ليس بالقصير.

لم يكن جيش رمسيس الثالث يقيم أي اعتبار للنوبيين، ولكن رغم ذلك كان كل شخص يسير بخطى نشطة على أمل الحصول على غنيمة ملكية، يمنحها له فرعون يسعى لتحقيق أول انتصار عسكري له.

ما أن اجتازت فرق الخيالة الشلال الأول حتى بدأت بالبحث عن القرى النوبية. عند منعطف هضبة رملية ظهرت مجموعة من الأكواخ المخروطية الشكل، فأُعطيت إشارة الهجوم. كانت الفرق المصرية المعتادة على تنظيم المناورات ضد جيوش الممالك الآسيوية الخبيرة تستطيع أن تنهب هنا دون خوف، فالمحاربين المسلحين بأقواس وهراوات ليسوا هم من سيوقف أمواج المقاتلين المحميين بدروعهم، ولن يستطيعوا أن يبعثروا السهام التي تسمّر في الأرض كل تعيس يسعى للصراع.

أحرق فرعون القرى ثم صعد مجرى النيل في عاصفة مدوية، دون أن ينشغل هذه المرة بملاحقة فروس النهر وقطعان الفيلة اللذين يشكلان عادة هدف رحلة الملك إلى نوبيا

التابعة. كان رمسيس يشرف على تقدم رجاله. في البعيد، على طول الوادي، كانت غيوم الدخان السوداء تغطي القرى التي ذهبت ضحية إخماد الفتن في هذه المنطقة. لم يكن فرعون أكثر قساوة من الحكام السابقين، ولكنه يحرص على احترام التقاليد؛ فنوبيا ملك لفرعون، وكل طيف حرية فيها سيدفع أبناؤها ثمنه بدمائهم.

وتابعت المسيرة تقدمها تدريجياً؛ ولكن حركتها أصبحت بطيئة بسبب أرتال المساجين التي انضمت إليها. لم يعد أحد من النساخ المرافقين للحاكم يشك في قرب استسلام رؤساء قبائل كيش، لذا بدؤوا بصياغة قصائد المدح لفرعون في نصوص طويلة ستُكتب عند عودتهم على جدران المعابد.

قريباً ستمتد مساحات الجنوب الشاسعة إلى الأفق، بينما ستصبح القلاع المصرية الأخيرة وأسوارها الآجرية وراء الجيش، على بعد مسيرة أسابيع. قد تبتلع هذه الصحراء اللا منتهية رمسيس إذا ما انساق وراء الحلم الخفي لكل رجل من النيل، والمتمثل في الذهاب إلى منبع النهر. قد يكتشف أخيراً عرين هابي Hapy ، الإله الغامض الذي تُكال له المدائح كل يوم وترجوه بأن يكون الفيضان هذا العام أغزر من العام السابق. كان رمسيس يعلم إلى أي مدى تعتمد قُوته وقوة المئات من الفراعنة الذين سبقوه على خيط الماء! فهنا، في هذه الصحراء القاحلة التي لم تطأها قدم إنسان، يلامس الرجل الخائف أسرار الكون.

ترى من هو الرجل الذي سيتباهى بامتلاك وطن الآلهة إلى الأبد؟ ها هي بلاد كيش الممزقة تنظر إلى رمسيس وهو يرحل مع فرقه العسكرية وجنوده الذين سرقوا تبر الذهب وعلى أكتافهم جلود الحيوانات المتوحشة. لقد ثارت هذه المقاطعة عشرة مرات، بل عشرين مرة، وستعاود ثورتها في ظل حكم جديد. فبطون النساء هنا خصبة بما فيه الكفاية لكي تربي أجيالاً جديدة من المقاتلين السود، الشجعان إلى حد الهجوم على قلاع فرعون الآجرية.

بعد أربعة قرون سينتصر الملوك النوبيون ويتوجون أنفسهم فراعنة، وسيحطم كبرياء مصر بعد أن تمحي الرمال آثار حضارتها القائمة منذ آلاف السنين... ولكن الإنسان لا يستطيع معرفة المستقبل، ورمسيس يجهل كل شيء عن مصير مملكته الرهيب. ها هو الآن يتبختر أمام رجاله وقبعته الحربية الزرقاء الجميلة على رأسه وكأنه سيتنخت! غداً ستهتف له جموع طيبة وتحيي عودة الموكب المنتصر.

عرف رمسيس كيف يظهر بمظهر الشهم، فعوضاً عن السلال المليئة بالأيدي المقطوعة، فضل أن يجلب معه إلى طيبة صفوفاً طويلة من المساجين لضمهم إلى عبيد

الآلهة. هكذا سيزداد غنى آمون بهؤلاء النوبيين الذي سيهلكون في العمل في حقوله المنتشرة حول المدينة، وسيكون وجودهم بمثابة ذكرى عن حملة النصر التي قادها الفرعون الجديد. لقد ابتسم القدر الحربي لرمسيس، ولكن الحاكم على دراية كافية بأمور الحرب لكي يتجنب الافتخار بحملة تأديبية لفلاحين لا حامي لهم. لقد أعجبه إقدام محاربي بلاد كيش، وكان ضباطه يتطلعون إلى تجنيدهم في جيشهم، وقد ضم رمسيس المحاربين الأشداء إلى فرقه العسكرية الاحتياطية، فبعد أن يملأ بطونهم ستصبح مشاعرهم تجاهه على أفضل حال وسيشاركون بشكل فعال في المعركة الحاسمة من أجل مستقبل البلاد؛ فشعوب البحر لن تتأخر في غزو الدلتا.

وعاد الجيش إلى طيبة وأصوات الأبواق وغناء الجنود يصدح في كل الأفق، فيسحر الجموع التي هرعت إلى الطريق الذي سيسلكه المحاربون؛ لكن رمسيس يعرف أن الخطر الحقيقي بات قريباً. فقديماً، عندما كان الفرعون ينتصر على بلاد كيش، كان يستطيع أن ينام بهدوء في قصره في طيبة؛ أما اليوم، فقد أضحى مصير بلاد الأقواس التسع مرتبطاً بالإمبراطوريات الآسيوية والعواصف التي تهز البوتقة الإنسانية لشعوب المتوسط. لا زال إله النيل هابي Hapy يجذب المصريين، ولكن ألم يدعُ رمسيس، عندما كان في بي - رمسيس Pi - Ramses بعل الرهيب، إله الحرب السوري؟ وتحسر فرعون، ككثير من الملوك قبله، على الماضي البعيد.

الفصل الرابع

شعوب البحر

لم تكد ذكرى حملة نوبيا تختفي من ذاكرة شعب طيبة حتى بدأت تحضيرات جديدة للحرب تثير القلق في القرى، فقد بدأ النساخ يطوفون في شوارع المحافظات للبحث عن الشباب الأشداء لضمهم إلى فرق جيش فرعون التي لم تكن أعداد المحاربين فيها كافية.

لم يكن أحد يعلم إلى أين سيبعث سيد الأرضين شعبه المسلح؛ ولكن الاحتياطي الضئيل للفرق التي نشرت الرعب في نوبيا وجعلت اسم رمسيس الثالث يعلو في سمائها لم يكن كافياً هذه المرة.

في بلاط طيبة، كان مستشارو رمسيس الثالث يسهرون على تنظيم الاستدعاء، حيث تركت فرق الجيش والمعتمدية العسكرية مواقعها في الحاميات وتمت التعبئة في كل الوادي بسرعة كبيرة لخطورة الوضع؛ فقد وصلت أخبار سيئة جداً من الدلتا إلى مسامع فرعون تفيد بأن هناك تجمعاً عظيماً للجيوش المعادية على حدود الأراضي المصرية المتاخمة للصحراء الليبية في الغرب. وحزر الجميع في طيبة أن الخطر الذي يحوم حول عرش رمسيس الثالث الحديث العهد أصبح حقيقة، فشعوب البحر هنا، ومصير مصر أضحى في يدي ملكها. لذا تم تجهيز الجيش في غضون أسابيع، ولم يعد ينقصه إلا الأفواج الصغيرة التي سيتم ضمها في الطريق. كانت السرعة مطلوبة، فقد يغزو النهابون الدلتا قبل أن يصل رمسيس ورجاله إلى ممفيس أو إلى بي - رمسيس Pi - Ramses .

كان القلق بادياً على محيا رمسيس الثالث وهو يفكر في هجوم المستقبل الرهيب ويشعر بضرورة القيام بعمل عظيم بمستوى أعمال كبار الفراعنة. كان يفكر وهو في طريقه نحو الشمال بالساعات الحاسمة التي تنتظره. لقد اختاره آمون للحكم متأخراً، وهو الآن

يضعه في امتحان صعب، فإذا عاكسته الأقدار الحربية ستنهار مصر تحت وطأة الغزاة، وقد سبق لها أن عانت منهم في القرن الثامن عشر قبل الميلاد، أيام الهكسوس الرحّل القادمون من صحراء الشرق. لقد استمرت سيطرة هذه الشعوب السامية التي طردها الغزاة من بلادها قرناً من الزمن، ثم انتهت بعد ذلك على أيدي حكام مصر الجسورين، الذين استطاعوا ضمان عدم استمرار الأجانب في الحكم. كانت ذكرى هؤلاء الحكام العظام تمد الرجال الثائرين ضد الاحتلال بالشجاعة والإقدام؛ أما اليوم، فإن رمسيس يشك بشجاعة بلاده، فالفراعنة الأخيرين لم يكونوا مثالاً للإقدام، بل هربوا من القتال عبر اتفاقيات عقدوها مع الأعداء. كان الشعب بحاجة إلى نموذج، وعلى رمسيس أن يعيد خلق التقاليد من جديد وأن يعيد لاسم فرعون هيبته واحترامه وينشر صداه في كل الوادي. للمرة الأولى يبدو مصير رمسيس متعلقاً بمصير الإمبراطورية، وكانت هذه الفكرة تحاصره وهو يراقب أرتال الجنود المشاة والعربات التي ترج الأرض وهي في طريقها لاسكتشاف أراضي الدلتا.

شعوب البحر... عندما جاء مبعوثو الأقاليم الدلتاوية إلى فرعون يتوسلون إليه بالإسراع وهم ساجدون أمام القبة الملكية، لم يكن على لسانهم سوى هذا الاسم. لم يكن الخطر جديداً من نوعه، فقد صد الفرعون ميرنبتاح Mereptah ، خليفة رمسيس الثاني، أول هجوم لهم منذ ثلاثين سنة، فبقي هؤلاء الغزاة المجهولون هادئين في ظل الإمبراطورية في السنوات التي تلت هذا الهجوم؛ واليوم، يعود الخطر ليتفجر من جديد.

لم يكن شعب النيل المسالم ليتخيل أن الصحراء المرعبة والمناطق التي تقع على حدود البلاد مأهولة بالسكان؛ من المؤكد أن النوبيين المنذورين للعبودية والليبيين الرحل الذين لا يكلون من الغزوات يشكلون جروحاً دائمة بالنسبة للمصريين؛ ولكنهم لا يشكلون خطراً على التوازن العجيب لهذا البلد الكبير، الذي يعتبر عدد سكانه كبير جداً بالنسبة لذاك العصر، والذي توحده الإدارة الفعالة، إدارة الفرعون الواحد.

ينتمي الليبيون إلى أصل بربري، وهم من أوائل الناس الذين سكنوا الشمال الشرقي الإفريقي، تماماً كشعب النيل؛ ولكنهم لم يرضوا يوماً الخضوع للمصريين، ولا سيما أنهم عرفوا نفور هؤلاء من الصحراء ويعلمون أن الفراعنة لن يهلكوا أنفسهم لملاحقتهم في وسط الكثبان الرملية. فأي صف من هذا من الجنود المسلحين الذي يستطيع البقاء على قيد الحياة في هذه الهضاب القاحلة، وكيف له أن يعرف موقعه في هذا الأفق الذي تلهبه الشمس الحارقة، بل كيف يجد مواقع المياه القليلة، التي لا تكاد ترى بالعين المجردة؟ فباستثناء بعض الواحات التي تربط بينها طرق محددة، كان المصريون يتجنبون هذه البلاد الملعونة بحرص كبير... منذ آلاف السنين والليبيون لا يكفون عن إزعاج جيرانهم بنهب

فتات الحضارة المصرية الغنية. كانوا يشعرون في قرارة أنفسهم بالمرارة لعدم استطاعتهم فرض أنفسهم على جيرانهم الأقوياء، وكان ذلك يولد فيهم الرغبة بالانتقام، ولكنهم في كل مرة كانوا يضطرون إلى التنازل أمام العدد الهائل والتنظيم المتفوق لجيش فرعون. وكان الليبيون كسائر الرحل يقدسون القتال والجيش، لذلك لم يكن باستطاعتهم نسيان الذل الذي لحق بهم من جراء الهزيمة. كان رمسيس يعلم ذلك، وقد عزم على جعلهم يدفعون ثمن غدرهم بسرعة: فمنذ عشرات السنين، تحالفوا مع الشعوب الجديدة التي بزغت من كل مكان، متجنبين بذلك عناء المقاومة على أرضهم المغزية. وكانوا يشجعون الأقوام النهابة على مرافقتهم إلى بلاد النعيم، إلى الوادي وثرواته.

لن يغفر لهم رمسيس الثالث ذلك أبداً، ولكن هل كان لدى الليبيين خيار آخر؟ لم ينعم الله على رجال تلك الأزمان بمعرفة أسرار المستقبل، ولو استطاع علماء دور الحياة في المعابد سؤال أرواح الموتى التي تُحلّق فوق رؤوسهم باتجاه بلاد يالو Ialou لاكتشفوا دوامة التاريخ الكبيرة التي تدفع عواصفها أمامها على مر العصور، ولَبَدَتْ لهم السحابة التي ظهرت فجأة في سماء مصر الصافية دوماً ـ أو التي كانت كذلك في ذاكرة الناس على الأقل ـ شيئاً عادياً. لم تكن أقوام الرحل الليبية أكثر من قشوش، ولم يكن لديها أية فرصة لتثبيت جذورها في واحتها الصغيرة، فكيف لها أن تقف في وجه هذا التدفق البشري الذي جاء متجمعاً في أساطيل حربية مهيبة؟ كان عليها أن تخضع لمتغيرات التاريخ أو أن تختفي ككثير من الشعوب الصغيرة التي سبقتها.

بعيداً عن ضفاف النيل الهادئة، فيما وراء البحر الأبيض المتوسط وجبال الأناضول الصعبة، فيما وراء البحر الأسود أيضاً، توجد أراض باردة، فيها سهول مليئة بالثلوج في الشتاء ويلفح الهواء الساخن حقولها في الصيف. هناك، في تلك الحقول الواسعة الحزينة، ولدت دوامة التاريخ؛ فالأقوام الرحل التي تنتمي لهذه الأصقاع كانت قادرة على اكتساح المشرق والمغرب على حد سواء، وعلى اقتحام سهول الأرز الصينية في الشرق، أو تنظيم غزوات ستتدفق على خزائن القمح في بلاد أخرى، بلاد تقع على شواطىء البحر الأبيض المتوسط.

كانت الموجات البشرية تحط رحالها في هذه الأراضي المفتوحة حيث تجذبها الأنهار الكبيرة قبل أن تتفرق في الجهات الأربع من العالم. لم يكن هناك شيء قادر على إيقاف هذه الأقوام الهندية ـ الأوربية المستقرة في أطراف آسيا وأوروبا. فلا جبال في الأفق، ولا أشجار تغري الإنسان بالبقاء ليعيش في ظلها. كانت الحياة هناك قاسية كهواء الشتاء القارس؛ فكيف نندهش من رؤية هذه الشعوب تنتشر في أرجاء المعمورة وقد اضطرتها

الحاجة إلى المغامرة بالرحيل، حتى ولو أدى ذلك إلى اختفائها وراء الأفق وابتلاعها من قبل الخصوم؟

هل يصدق النساخ هذه الأسطورة؟ هل حقاً أتت شعوب البحر من قلب الأراضي الباردة كهواء الشتاء الذي يدفع الأمواج الصاخبة عالياً على شواطىء الدلتا المستنقعية؟ ولكن لو وصفنا هذه البطون الجوفاء الجائعة لفهمنا الأسباب والأخطار التي ستعاني منها الإمبراطوريات الكبيرة، فسوف تتعرض هذه الإمبراطورات في بلاد الرافدين ومصر لأطماعها كما ستتعرض لها الكثير من الحضارات الأخرى وتقضي تحت ضرباتها.

قد يوضح هذا الاستمرار التاريخي أصل الإمبراطورية الحثية المعاصرة للإمبراطورية الرمسيسية، والتي يحترمها المصريون رغم العداوة المتوارثةبينهما. فهذه الإمبراطورية التي أسسها المحاربون الحثيون، والتي تدعى بمملكة هاتي Hati ، أرعدت كل الشرق القديم ومصر في القرون السابقة. وعندما بلغت ذروتها وأصبحت محترمة من قبل الجميع، زوّجت أميراتها إلى الفراعنة ومن ثم تربعت على عرش شمال البحر الأبيض المتوسط، الصديق الموثوق لوادي النيل. كان ذلك قبل أن تصل شعوب البحر وتستقر أولى قبائلها على الضفاف الغربية للأناضول، في المقاطعة الحثية. ربماكانت هذه القبيلة تنتمي للأخيين، وهو شعب يوناني قديم طردته شعوب هندية ـ أوربية جاءت من الشمال وتدعى الشعوب الدورية. سوف تتدفق الشعوب الغربية الواحدة تلو الأخرى، وستتضخم الموجة البشرية، وسيسعى الملوك الحثيون بدأب متواصل للحفاظ على إمبراطوريتهم في الجبال، هذه الإمبراطورية التي تصغر وتصغر حتى أنها اضطرت إلى قبول المساعدة العسكرية التي منحها إياها العجوز ميرنبتاح Mereptah ابن رمسيس الثاني وخليفته، الأمر الذي يعتبر ذلاً عظيماً بالنسبة للمحاربين الحثين. هل نسي الحثيون أساطيرهم التي تروي حكاية هروبهم هم أنفسهم من هذا الشمال غير المضياف الذي هجرته الشعوب الهندية ـ الأوربية؟ كان الحثيون رواد الهجرة الكبرى التي تمت في نهاية الألف الثاني قبل الميلاد، والتي بلبلت تاريخ حوض البحر الأبيض المتوسط بالإضافة إلى هجرات أخرى سبقتها.

ستعاني كل شواطى البحر الأبيض المتوسط المشمسة من أمواج المهاجرين، وبالأخص شبه الجزيرة الصخرية التي ستصبح فيما بعد اليونان. لم يكن القادمون الجدد رعاة مساكين مستعدين لوضع أنفسهم في خدمة أصحاب الأرض؛ فبواسطة سيوفهم استطاعوا الاستيلاء على أراضي حضارات غنية ومسالمة، صراعاتها محدودة. وكانت مصر من بين هذه الحضارات تتربع على عرشها، وحيدة، في ذروة المجد عندما قارن رمسيس الثاني قوته بالنسبة إلى الحثيين في معركة قادش ووضع هناك حداً لأمبرطوريته. فبابل تسيطر على

وادي الفرات ودجلة، أما فيما يتعلق بالشعوب الساحلية الصغيرة كالفينيقيين والكريتيين، فقد استطاع هؤلاء بتجارتهم الغنية ونشاط أسطولهم المحمل بالبضائع أن يقيموا علاقات مثمرة مع الوديان الكبيرة الزراعية ويتبادلوا معها البضائع.

لقد حطم اقتحام شعوب الشمال هذا التناسق؛ فباحتلالهم للبلدان كانوا يدفعون سكانها إلى غزو مناطق أخرى، في حروب لا نهائية. فجزيرة كريت مثلاً فقدت قصورها الجميلة التي أطاحت بها السيوف والنيران، وعانت من كوارث مزلزلة لم يسبق لذاكرة البشر أن سمعت بمثلها. وكذلك نشر الدوريون الرعب في جزر بحر إيجة الهادئة، فصارت أساطيلهم التي تمخر البحار من كل جانب تنظر إلى المدن المحترقة التي خلفتها وراءها، وتراقب الأفق الذي كان هادئاً بالأمس يختفي بعد أن اجتاحته عواصف الغزوات! لقد تشكلت أقوام شعوب البحر. فهناك الفريجيون Phrygiens والموشكي Mushki والتوروش Turush والشاردانيون Shardanes والدانونا Danouana والفليسطيوس Philistous المعروفون في الكتاب المقدس باسم الفلسطينيين. تنقلت هذه الشعوب البائسة واليائسة من جزر إلى سواحل معادية، وتاهت عشرات السنين في عالم البحر الأبيض المتوسط. كان لا بد لهجراتهم أن تنتهي في يوم من الأيام، فاستقر الكثير منهم على شواطىء الأناضول الغنية على حساب الحثيين، ووجد آخرون، وهم الفلسطينيون، أرضاً حفية في بلاد كنعان على شواطى فلسطين. وستشهد هضاب فلسطين ـ هذا الجسر الطبيعي الذي يربط بين آسيا وإفريقيا ـ مجيء شعب آخر هو الشعب العبري، الذي سيكتشف فيها أرضه الموعودة، ويحتفظ بها لنفسه بعد قرون من التيه فرضتها عليه الإمبراطوريات الرقّية، من بابل وحتى مصر الفرعونية.

وبقي آخرون... ولكن الشواطىء الغربية للأبيض المتوسط بعيدة جداً عن سهول الفولغا Volga ، كما أن الثروات قليلة الأهمية في هذه المناطق الواقعة غرب إيطاليا والغارقة في ضباب تاريخ متلعثم. وفيما وراء جبال الألب المهيبة، في قمم شمال إفريقيا القاحلة، لا يوجد أية واحة يمكن الاستيلاء عليها ولا مخازن قمح يمكن مصادرتها دون جهد. ولكن كيف يمكن أن يهمل هؤلاء الهاربون الشواطىء الرملية الليبية، الطويلة والخالية، والتي تبعد مسافة مسير بضعة أيام فقط عن الدلتا. لقد استقر معظمهم في الأناضول وجزيرة كريت وبعض الجزر الأخرى، ولكن البلاد التي لجؤوا إليها كانت ضيقة نوعاً ما، فالسهول للزرع، والمدن أقل وأصغر من أن تحوي هذا العدد من الجياع، أضف إلى ذلك مقاومة سكان البلاد الأصليين.

وهكذا وبالرغم عنها، هجرت شعوب البحر أراضيها البعيدة لأسباب غامضة لا

تعود فقط لفقر بلادها الأصلية؛ فالفقر كان سبباً للكثير من الهجرات الأخرى، ولكن هل يعقل أن يكون سبب هذه الهجرة التاريخية الكبيرة؟ سيثير هذا الحدث اضطراباً عميقاً في التاريخ، وسيدفع الإمبراطوريات الكبرى إلى قرع أجراس الحزن. لم تكن هذه الأمور واضحة تماماً بالنسبة لرمسيس، ولكنه كان يشعر بها، فهو الآن أمام تحد استثنائي.

في بلاد الرحل الليبيين التي تبعد مسافة مسير بضعة أسابيع عن وادي النيل، كان الغزاة قد نصبوا خيامهم واستقروا شيئاً فشيئاً. وهناك آخرون في شرق الدلتا، ولكن أولئك الذين يعيشون في الصحراء الليبية يعانون من وضع غير مريح، ولا بد أن تغريهم الواحة الخضراء الثرية القريبة منهم؛ فعرباتهم الكبيرة وخيولهم وحشود أطفالهم لن تستطيع البقاء طويلاً في هذه الرمال أو في سهوب الشواطىء الليبية المقفرة. لقد هُزم الغزاة في زمن آبائهم، ولكن ذلك لا يضمن اليوم الحماية للوادي الأخضر، فتشجيع الليبيين لهم وتزويدهم بالأدلاء والمحاربين يشكل خطراً على المصريين، فلا أحد يعرف المنطقة أفضل من الليبيين، وهم بذلك قادرين على الإحاطة بالجيش المصري..

ملئت الإشاعات والأخبار معسكرات الغزاة وأثارت فيهم الحماس للاندفاع نحو الغد المليء بالعيد والرخاء. كانت هذه الأقوام المختلطة، المتعددة اللغات، تردد أغاني الحرب والفرح تاركة وراءها النساء والأطفال لتستدعيهم فيما بعد إلى الواحة الواسعة التي سيخضعها الغزاة المنتصرون. فالرجال في كل مكان يصقلون سيوفهم الحديدية ليواجهوا بها سيوف المصريين البرونزية. كان أصحاب الشعر الأشعث يسيرون إلى جانب محاربين آخرين يرتدون قبعات ذات قرون، وهناك أيضاً أصحاب الدروع الدائرية الكبيرة الذين يزيدون من زحام الممرات المليئة بحشود بشرية. كانت الصحراء تضج بالحياة المحمومة، والعقبان تسرع إلى أبواب الوادي.

* * *

كانت كتائب جيش فرعون الضخمة تقترب يوماً بعد يوم من الدلتا؛ فممفيس باتت بعيدة إلى الوراء، أما بي - رمسيس Pi - Ramses ، مدينة رمسيس الثالث التي أهملها، فقد أصبحت في أقصى الشرق، بعيدة عن القتال. كان على الحاكم أن يبحث عن العدو باتجاه الغرب؛ فالكشافون يشيرون إلى وجود عصابات النهب في الأطراف الصحراوية من الدلتا، حيث أُحرقت قرى إحدى المقاطعات المعزولة وهوجمت مدن أخرى لم تستطع أسوارها الصمود طويلاً في وجه الغرباء الجياع، الباحثين عن الغنائم.

أصبحت الفرق الأربع التي تؤلف جيش رمسيس مكتملة الآن، ولكن لا بد للجنود

من أخذ قسط من الراحة بعد المسيرة المنهكة نحو الشمال ليستعيدوا نشاطهم. عند المغيب، بدأ الجميع بسبر أطراف الدلتا؛ فالغزاة سيأتون من هنا، حتى ولو أن الحمراء، أي الصحراء، لم تكن في يوم من الأيام أكثر لهيباً مما هي عليه في هذه الساعة بالذات. وأكد الرسل شكوك فرعون، فالجيش سيواجه الآن الرجال المسلحين والمتمرسين في القتال بسبب سنوات التيه والسلب التي قضوها في شرق البحر الأبيض المتوسط.

لقد جمعهم القدر في سرب مختلف الأجناس أضحى الليبيون فيه جزءاً متمماً فقط. وقد اتفق خبراء الخطط الحربية في بلاط رمسيس على ضرورة تطهير الأراضي بواسطة العربات؛ فبفضلها، وبفضل تماسك الجنود المشاة، يمكن الوقوف في وجه الخصوم وهزمهم.

كان لكلمة فن الحرب شأنها في البلاط الملكي؛ ففي الصباح تُعطى الإشارة، فتُنقر الأبواق في المخيمات ويصطف المقاتلون خلف الراية والقادة، فتلمع قبعاتهم الدائرية الشكل تحت الشمس على امتداد البصر، وتملأ الحراب كل شبر من السهل. لم تكن جموع المقاتلين ترتدي سوى تنانير بسيطة ـ باستثناء البعض الذين كانوا يتباهون بثيابهم الجلدية التي تشكل حماية ناجعة ضد نبال العدو؛ ولكن من حسن الحظ أن الدروع الجلدية الطويلة كانت مرصوصة إلى جانب بعضها البعض لكسر أول موجة سهام يرميها العدو. كانت العربات تسير على أصوات الأبواق الحزينة مثيرة غيوم من الغبار وراءها، وكان كل حوذي يمدح الحيوانات التي تجر عربته وينعتها بأسماء حربية وشبه دينية، ثم يضربها بالسياط عندما تئن من ثقل الحمولات التي على ظهرها.

كان رمسيس الثالث بين رجاله الأشداء، في ذروة قوته، يقود عربته بنفسه وحراسه من حوله يميزون خوذته الزرقاء، خوذة الحاكم المحارب. كانت العربة تنتفض هنا وهناك، وعجلاتها الكبيرة المخططة تكاد تنكسر على صخور الأرض القاحلة. ومع ذلك، كان من المستحيل إيقاف الخيول المندفعة بكل قوتها والشكيمة تشد فكيها وصرخات المئات من سائقي العربات الأخرى ترعد بجانبها وتخيفها. ودوّت عاصفة مصمّة أخرجت فرعون من أفكاره وألهته عن القلق الذي يشعر به، فهذه لحظة القتال، لحظة اختبار قواه بالنسبة إلى الأقوام المتوحشة التي قلبت الأمور رأساً على عقب في نصف بلاد الشرق القديم.

جهّز مساعد فرعون الحراب وتأكد من امتلاء جعبة سيده بالسهام. يجب ألا تخونه المهارة في اللحظة الحاسمة، فقد بدأت عربات الأعداء تزداد في الأفق. كيف يمكن أن يصدق المرء أنه تحت هذه السماء الصافية سيموت ويندثر أحد هذين الشعبين! لم يكن

رمسيس يعرف فرق المشاة التي ذهبت وراء العربات والتي أصبحت على بعد آلاف الأذرع الآن، ولكنه يعرف قادة الفيالق جيداً ليطمئن إلى عدم الإخلال بنظام الهجوم. قد ينقّض الجنود المشاة المصريون والنوبيون على العربات المتشابكة في اللحظة نفسها التي يعاني فيها المصريون من صعوبات، عندها ستهوي سيوفهم المحدبة على هياكل الحيوانات وجذوع الرجال دونما تمييز.

بين الفينة والفينة ينظر الحاكم إلى مرافقيه، وهو يشعر بوجود سائق الخيل الصامت إلى جانبه، وبرماة السهام على العربات المجاورة يوتّرون أقواسهم. لا زالت العربات تسير بسرعة رغم أن العدو قد أصبح على بعد بضعة مئات من الخطوات فقط، وأصبح بإمكان الجميع رؤية هذه الأقوام المختلفة والمتنوعة كما لو كانت في عرض سفراء بعد يوم مجد في بلاط طيبة. ولكن هؤلاء الغرباء ليسوا سوى صعاليك العالم القديم الذين يطرقون اليوم أبواب الوادي، وعلى طريقتهم. كان الريش يزين خوذات بعض البرابرة فتبدو كبقع ملونة، بينما تلمع القبعات ذوات القرون في البعيد. لم تكن مناوراتهم منظمة كما كان الأمر عليه بالنسبة للجيش المصري، فهؤلاء المحاربون لم يقاتلوا يوماً جنباً إلى جنب، ومع ذلك كانوا شجعاناً جداً. لقد انتظروا هذه الساعة طويلاً، وهم يريدون أن يعيشوها الآن بكل أبعادها. وهم يعلمون أن مصير الخاسرين لن يكون جميلاً، ولكنهم يفضلون الموت على التضور جوعاً أو التحول إلى عبيد عند فرعون والهلاك في الأراضي التابعة لمعابده.

كانت السياط تنهال على الخيول وتحثها على التقدم نحو صفوف العدو بأقصى سرعة، وكان الجنود المشاة في الخلف يسمعون جلجلة العربات والرجال وهم يتشابكون مع الغرباء. كانت صرخاتهم الحاقدة ترد على الهتافات البعيدة، وركضهم يزداد سرعة ليساعدوا سائقي العربات الذين أصبحوا محاصرين في المعركة.

برهنت شعوب البحر المقاتلة أنها تستحق السمعة المخيفة التي تتمتع بها، فرجالها الجسورين ذوي البشرة البيضاء مجهولون بالنسبة لمعظم السكان هنا. صحيح أن بعض الشاردانيين Shardanes قد دخلوا في خدمة الحرس الملكي كمرتزقة منعزلة وخاضعة للحاكم في ذاك العصر ـ عصر رمسيس الثاني، ولكن هؤلاء الرجال القادمون من الشمال على شكل موجات ضخمة، والذين يصطدمون اليوم بأبناء النيل، ينشرون الذعر قبل كل شيء. فهم جريئون إلى حد الموت ويعرفون كيف يحرّكون سيوفهم الطويلة المثلثة الشكل ببراعة فوق رؤوس المقاتلين. وكانت الحراب المصرية ترتد من على دروعهم الدائرية المنتشرة حول العربات العدوة.

كان سائقي العربات المصريين بحاجة إلى كل براعتهم لبعثرة الخصوم المتكتلين والبدء بذبح المجموعات المتفرقة. فإلى جانب الشاردانيين Shardanes كانت حراب شعوب البحر من اللوكو Loukou وبعض الدانونا Danouana القادمين أيضاً من الأناضول تنهال بشجاعة من كل مكان. ولم يكن لدى سائقي العربات المصريين الوقت الكافي لتأمل كل هذه الوجوه الغريبة، وكان الخوف بادياً على محياهم لرؤية هذا الكم الهائل من شعوب شرق البحر الأبيض المتوسط تتحالف مع بعضها ضدهم. وازداد غضبهم أكثر عندما رأوا الليبيين ذوي البشرة العنبرية مثلهم يقفون مع الغرباء ضدهم. فإذا كان تواجدهم المشترك على حدود الوادي منذ قرون لم يعلمهم احترام فرعون، فهم لا يستحقون الشفقة بتاتاً. وقد أراد أحد سائقي العربات ان يستقطع أول غنيمة له من جسد ليبي، فقتل أحد الليبيين وأخذ يصرخ منتشياً وهو ينظر إلى السماء وإلى فرعون.

كان رمسيس الثالث في قلب المعركة يسحب السهام من جعبته بهدوء أعصاب كبير وحراسه من حوله يسهرون على حمايته؛ إذ ليس من المعقول ترك الفرعون معزولاً وفي خطر بين أيدي الأعداء، فموت الحاكم الإلهي هو هزيمة للجيش، والعملية تهدف إلى وضعه في المقام الأول بحيث يكون انتصاره انتصاراً للآلهة، ويصبح الوادي ابن الآلهة بحق.

وعلت الصرخات والتأوهات على جلجلة العربات؛ فالجموع المسلحة، بل والخيول أيضاً بدأت تمزق بعضها البعض في قتال هائج تهوي فيه جثث الخيول فوق جثث الجنود. ها هي الحضارات التي ولدت منذ آلاف السنين على شواطىء بحر إيجة وضفاف النيل تندثر هنا في لحظات. لن تعود الأمور كما كانت عليه عند الانتهاء من المعركة، ولكن لو انتصر مقاتلو الشمال لاختفت آخر حضارة من الحضارات الأم في التاريخ، ولاختفى عشرون قرناً من التحضر الذي أدى إلى خلق بنية اجتماعية وثقافية كبيرة تشهد على أول المجتمعات المنظمة في العالم. لو حصل ذلك لتغير وجه العالم، فلا زال في جعبة مصر الكثير من الأشياء التي ستنقلها للممملكات الحديثة العهد، والتي لا زالت في طور التكوين.

جاء غزاة آخرون لمساعدة العربات العدوة، بينما أخذ رؤساء العشائر يعظون فرق الجيوش بلغات ولهجات مختلفة. لم تحسم نتيجة المعركة بعد حتى وإن كان الجيش المصري يبدو متفوقاً في العدد على خصمه، فقد كان هناك الآلاف من السيوف المحدبة المرفوعة، يحملها أبناء وادٍ مكتظ بالسكان وقادر على مجابهة العشرات من الشعوب القليلة العدد. هذه المرة لن تستطيع شعوب البحر شيئاً أمام هذه الصفوف الشرسة التي ستجزها

جزءاً. كان حلفاء فرعون النوبيون يرمون الرماح القصيرة، ورماة السهام يفرقون العدو بالنبال. الآن يستطيع فرعون أن يرتاح هو وجيشه، فقد اختفى ملوك شعوب البحر هم وأقاربهم أمام الخطر الكبير، ولم يبق إلا بعض الشرذمة التي تحاول يائسة الإحاطة بالمقاتلين المصريين. وفهم الليبيون أن وادي النيل لن يكون لهم هذا اليوم، وعليهم أن يكتفوا بنهب القرى بمفاجأتها عند الفجر، أو بالإغارة على قافلة معزولة في طريق صحراوي.

لم يبق الآن أمام العشائر المختلفة إلا الهرب بحثاً عن النجاة والإخلال بتحالفها الشاذ، وليد اللحظة. ولكن يجب تضليل العدو، فالمعسكرات ليست بعيدة؛ وإذا استطاع المصريون تطويق النساء والأطفال فذلك يعني الإندثار التام لهذه الشعوب المطرودة أصلاً من أرضها. أما الليبيون المطوقون فقد كانوا يقاومون بشراسة، ولن يصبح أحد منهم سجيناً وإلا تُرك لسكاكين الجنود المصريين.

كان المشهد في ساحة المعركة شبيه بنهاية العالم، فحطام العربات يملأ المكان، والخيول المبتورة كالموتى تغطي الأرض. أصبح مصير الجيش معروفاً، فهرع القادة إلى رمسيس الثالث ليكيلوا له المدائح وهم ساجدين عند أقدامه. كان الملك يفكر بمصيره الذي زاد الامتحان الصعب من بلبلته. الآن ستطمئن الملكة إيزيس وستعود روح أبيه إلى الموتى وهي مشبعة بدم الأعداء. اليوم أنقذ رمسيس بلاده، وهو بذلك دخل التاريخ، وسيصلي بصمت لآمون، بل حتى لبعل، الإله السوري. لقد أصبح الحلم الطموح الذي يسكنه حقيقة، فهو الآن يشكل جسداً واحداً مع الوادي ونَفَسُه هو نَفَسُ البلاد، ولا وجود لشيء بعيداً عنه. لقد أعطته هذه المحنة الدموية الشرعية التي تمتع بها كل الحكام العظام، منذ أولئك الذين بنوا الأهرامات وحتى الفاتحين الكبار من السلالة الثامنة عشرة. ولكن لِمَ التفكير بالمستقبل؟ فالساعة الآن للنصر. لقد قادت سنوات الحكم الخمس الأمير المجهول إلى مدفن الحكام العظام؛ والآن تستطيع مصر أن تحلم بآلاف الأمجاد المستقبلية وهي قابعة في ظل الخلود.

وتوقفت الهتافات. في البعيد، كان بعض الجنود لا يزالون يركضون في ساحة المعركة بحثاً عن غنائم بشرية. أما رمسيس الثالث فقد ترك خيوله للحوذي واتجه نحو العرش الذي نُصب على عجل فوق مكان المذبحة، وحوله أبناء البلاط. وبدأ عرض أرتال المساجين الذين كانوا يتقدمون ببطء تحت ضربات السياط، بينما الموتى مكدسون تحت السماء الصافية وقد قُطعت أيديهم. لو رأى ناسخ تائه في هذا المكان الملعون هذه الأعضاء المقطوعة، لوجد فيها شاهداً على عبقرية الشعوب في كل الأرجاء... فكم من السفن

والأوعية الفخارية صنعتها هذه الأيدي قبل أن تضيع في دوامة لا يعرف سرها إلا التاريخ؟ ولكن جنود الوادي لا يأبهون بذلك، فالجائزة الملكية ستذهب إلى أولئك الذين سيعرضون أكبر عدد من الأعداء الذين قتلوا على أيديهم.

لم يكن المنظر المريع لهذه الأعضاء المبتورة يؤثر البتة في رجل النيل، ولا في فرعون؛ وكل ما تحويه ذاكرة العلماء سوف ينتقل إلى ألواح النساخ. سيكون رمسيس الثالث شهماً كسابقيه من الحكام ولن يعدم إلا القليل من المساجين... ها هو يتبختر بعظمة أمام الأسرى المرميين أمامه كيفما اتفق، حيث يأتي الشاردانيون Shardanes ذوي البشرة البيضاء والقامة الطويلة خلف الليبيين ذوي البشرة الداكنة. لم يرى رمسيس الثالث في حياته هذا العدد من ذوي السحنة الغريبة والشعر المحلوق والوجوه المحاطة بضفائر طويلة. كانوا جميعهم ملطخين بالدماء والتراب، ونظرات الخوف في عيونهم تحدق بسيوف الحرس الملكي.

عُزل الرؤساء عن باقي المقيدين حيث ستبت الإرادة الملكية في مصيرهم بعد أن يتم عرضهم في جميع شوارع طيبة. وسمح رمسيس للجنود بالاستيلاء على الغنائم والعودة بها إلى الأراضي المصرية سيراً خلف راياتهم. منذ زمن طويل لم يحتفل الشعب بعيد كهذا العيد.

سيبقى العام الخامس من حكم رمسيس الثالث في الذاكرة، ولكن الملك لن يتكلم عن الانفعالات التي تملكته أثناء الخطر. وهؤلاء الأسرى يشعرونه بهشاشة بلاده، فلن يكون هناك حاميات كافية وعربات كافية على حدود الصحراء للوقاية من خطر مماثل. اليوم أهلك السيف هؤلاء التُعَساء المنقضين على بلاده، ولكن من يضمن الغد؟ هناك أقوام أخرى من شعوب البحر تعيش في بلاد **كنعان** على الحدود (**السورية**)، وربما أيضاً داخل **ليبيا**. كان رمسيس الثالث يعرف وهو يترك ساحة المعركة للغربان وبني آوى أن حجم المذبحة يتناسب وضرورة حماية الوادي من هجمات الجياع. في طيبة، سيعرض المقاتلون أطواق الذهب التي سيرمي بها الحاكم من شرفته، وستجعل الحملات الأخرى هذا الذهب أكثر قيمة. ربما أفلت ملوك هذه الشعوب من قبضته، وقد يتضاعف عندئذ حقدهم عليه ويتحول حسد الجياع مع الزمن إلى ثأر أقوام مذلولة!. وأدار رمسيس ظهره للصحراء، كما يحلو لكل مصري أن يفعل، تاركاً بعض أفكاره على حدود أرضه؛ فهو مطمئن الآن بعد أن تبددت أوهامه وكتب اسمه في التاريخ؛ وسيمنح حياته ووقته للآلهة كبرهان على خضوعه لها.

الفصل الخامس

المبـــارزة

تبدو حقول معبد **آمون** مشرقة في طيبة؛ فمنذ الفجر وآلاف العبيد يحملون المجارف ويحرثون الأرض، يشرف عليهم كهنة الإله الكبير الوصي على المدينة وعلى فرعون. كان الليبي يعمل إلى جانب الشارداني Shardanes القادم من سهوب الشمال، والذي لن يرى بلاده ثانية بعد أن أصبح عبداً لفرعون. محظوظون هم أولئك الذين أجبرتهم الإرادة الملكية أو كفاءتهم في القتال على الالتحاق بالفرق الاحتياطية المرتزقة، فهم على الأقل ليسوا مضطرين لحني ظهورهم أمام كل ناسخ متعجرف، ليس إلا خادماً من الدرجة العاشرة، ولكنه سيد يتعامل بالسوط على قطعة الأرض التي تخصه.

لم يعد فرعون يفكر بذرات الغبار الإنسانية هذه، التي نثرتها طيبته حول المدينة؛ فهي ليست سوى قرابين، أو براهين على تعلق الحاكم بإله طيبة ومجمع الأرباب. حيّا رسول آمون الأكبر الملك بتواضع ظاهر، فهو لا يريد أن يتذكر العهود الماضية التي استطاع سابقيه فيها أن يتحكموا بمصير الفراعنة بعلومهم الدينية الواسعة، طالما أن الذهب الكثير والغنائم تملأ خزائن معبد **الكرنك** منذ عودة حملة العام الخامس.

وانقضت ثلاث سنوات؛ ولكن أحداً لم ينس الموكب الطويل المنتصر الذي جاب شوارع البلاد ابتداء من مدن الدلتا وحتى طيبة. كانت الجموع المنتشية تصرخ فرحاً عند مرور الموكب الملكي وتسجد أمام الحاكم الإلهي الذي يشبه بحوزته الحربية وسوطه وصولجانه التماثيل المحفورة في جدران المعابد. كان الأسرى يسيرون لساعات طوال في الشوارع المغبرة في عاصمة الإمبراطورية الفرعونية ويُعرضون على الجموع الحاقدة لكي تهزأ منهم.

كان الأسرى الليبييون، الذين لم يبق الكثير منهم على قيد الحياة، مربوطين

بالسلاسل كالدواب؛ فحياتهم لم تكن تساوي الكثير في نظر الجنود؛ ولكن الأمر كان مختلفاً بالنسبة للرجال الجسورين ذوي البشرة البيضاء، فهم لا يزالون يدهشون أبناء النيل؛ واقتنائهم كعبيد يرفع من شأن أصحابهم من قادة الجيش الذين امتلكوا أراضٍ جميلة بعد عودتهم من الحملة.

وانقضت الأشهر، وأصبح منظر هؤلاء الأسرى مألوفاً؛ فهم يبنون الأسوار للحقول ويحفرون القنوات ويشقون الطرق. قريباً ستصبح ملحمة رمسيس الثالث ذكرى من ذكريات المجد.

في البلاط، كان رمسيس فخوراً بابنه الكبير الذي رافقه في حملة الدلتا رغم كونه في سن المراهقة لكن هذا المراهق سينمو مع الأيام ويصبح شاباً مفعماً بالنشاط. كان الملك يفكر وهو يراه بأبيه **سيتنخت** وبعلاقتهما الحميمة والمعارك التي قادوها سوية. لقد انقضت عشر سنوات على موت سيتنخت. لن يلاقي حاكم المستقبل رمسيس الرابع الكثير من الصعوبات إذا أعطته الآلهة الحياة الطويلة؛ أما رمسيس الثالث، فهو لم يبلغ بعد الخامسة والأربعين، وتكوينه الجسدي القوي يعد بعمر مديد، فليس هناك داع للقلق بشأن الوريث المقبل. كان رمسيس يجد في نظرات ابنه الشاب نفس الإعجاب الذي يكنه هو لأبيه. لم يكن ليفكر وهو في عمر ابنه بالعرش المزدوج أبداً، ولم تكن عائلته لتطالب به أصلاً؛ ولولا أن غيرت إرادة الآلهة هذا المصير لكان قضى حياته بهدوء كأحد أصحاب المقامات الموسرين.

رُزق رمسيس بأطفال آخرين من زوجته إيزيس، وكان الأمير الوريث سعيداً بطفولة إخوته الصاخبة المحبة، التي يحكمها هو كأخ كبير سمح. كانت إيزيس تتمتع بكل الاحترام والتبجيل، ولكنها لم تعد زوجة الملك الوحيدة... فرمسيس لا يزال يحب صحبة الجميلات، وحريمه يستقبل سنة بعد سنة أجمل زهرات الأرستقراطية المصرية اللواتي لم يكُنَّ أكثر من خليلات، باستثناء واحدة أراد رمسيس أن يميزها: إنها تييْ، التي أصبحت زوجة الحاكم الثانية.

كانت المصلحة العامة تبرر لهذا الرجل الناضج ميوله الحسية، فمن واجب الملك أن يحمي نفسه من سوء الأقدار. وكان على النساء في تلك الأزمان الغابرة إنجاب الكثير من الأطفال كيلا يستطيع الموت القضاء على السلالة المالكة كما كان يفعل بالكثير من الفئات الشابة. وكيف لنا أن نندهش من هذا التوالد عندما نعلم أنه في فترة زمنية أقرب إلى عصرنا، في فرنسا القرن السابع عشر، كان يموت شخصاً من كل اثنين قبل بلوغ سن

الرشد؟ تعود أسباب هذه الوفيات إلى الأمراض المعدية التي كانت تؤذي أصحاب البطون الجوفاء أكثر من غيرهم؛ فلم تكن هناك حاجة إلى وباء رهيب للقضاء على المواليد.

عرفت زوجة رمسيس الثانية كيف تجذب البلاط؛ فتيي الجميلة الأرستقراطية كانت أصغر من إيزيس، ولم تتأخر بإنجاب ذرية محببة، فقد ولد أمير آخر يستطيع اللعب مع نصف أشقائه في حدائق البلاط الملكي المظللة بأوراق الأشجار والركض وراء البط في البحيرات الصغيرة الاصطناعية. كان الفراعنة يحبون زراعة نباتات أدغال الدلتا الوحشية حول وادي طيبة الهادىء، ولكن هذه الأدغال المصطنعة ينقصها التماسيح والأثوار البرية لكي يصبح الصيد مثيراً كما في مستنقعات الشمال العميقة.

لم يهجر رمسيس يوماً زوجته الأولى التي كان يثق بها ثقة مطلقة، ووجود ابنهما البكر صاحب اللقب المشرف، لقب الابن الملكي، كان يعمق الإلفة بينهما. ولكن الحاكم المكرم من قبل الآلهة لم يكن ليحرم نفسه من كل الجميلات المنذورات له، ولو فعل لأثار قلق الجموع.

مرت سنوات عديدة على رجوع رمسيس من حملته العسكرية. كانت الفياضانات تغذي خلال هذه السنين الأرض السوداء، والهدوء يعم البلاد. ولكن رسل نساخ الأقاليم كانوا يعكرون أحياناً صفو السكينة في البلاد بالأخبار المقلقة التي يحملونها من مقاطعات الدلتا. كانت هذه الأخبار تعكر مزاج الفرعون حتى في الرحلات التي يقوم بها لصيد الأسود في الصحراء أو لمطاردة الغزلان. عندما قرر رمسيس العيش في طيبة، كان يعود إلى تاريخ قديم وطويل أساسه القوة والاستقرار في قلب وادي النيل، بعيداً عن الدلتا المعرضة لهجمات البرابرة من كل الأرجاء؛ ومع ذلك، سيظل كابوس سنوات الشباب يلاحقه حتى آخر يوم في عمره. كان يريد أن ينسى تلك السنوات الصعبة إلى درجة أنه هجر مسقط رأسه بي - رمسيس Pi - Ramses . ولكنه لم يتوقف عن القلق بشأن الشمال، ولم يكف عن إرسال الرسل لحكام الحافظات. كان يسهر على حماية الحدود الصحراوية كما لو أنها طفل صغير معرض للخطر على الدوام؛ وإذا كانت نوبيا قد استكانت للعبودية، فإن الشمال سيظل لعنة الفراعنة الأبدية. كم مرة لعن رمسيس ووزرائه أول فرعون قام بفتح حدود الوادي، مندفعاً بتهور نحو الأصقاع المجهولة، ومهيجاً بذلك عواصف الغزوات التي لم تتوقف منذ ذلك الحين!.

كان هناك اسماً يتكرر في كل البرديات المليئة بالأخبار المقلقة التي أرسلها حكام المحافظات للفرعون: هذا الاسم هو ميشِشر Meshesher ، ملك إحدى شعوب البحر

الذي يتهيأ للانتقام بكل تأكيد. ولكن أين يجب مواجهته؟ هل سيذهب رمسيس إلى حد المخاطرة بحياته وقواه الأخيرة في غزوة جديدة؟ فوادي النيل الخاضع للفراعنة يغطي مساحة تقارب الألفي كيلو متر.. وهو لم يحسم أمره بعد فيما إذا كان سينزل النهر من جديد؛ فهذه المعركة تبدو له كالكابوس رغم نجاح حملته الأولى، ووجود هؤلاء القادة المقاتلين يجعل من الهدوء في طيبة أمراً صعب المنال.

كان نشاطه الإداري في بادىء الأمر كافياً للإحاطة بالخطر الدائم، فقراراته تكفي لتجنيد جيش من النساخ للعمل على ملء عشرات البرديات بها؛ وقد أمر الفرعون بتهيئة القلاع على طول أطراف الدلتا الصحراوية. لم يكن خطر الأقوام الليبية وشعوب البحر في الجنوب شديد الأهمية، فهؤلاء الأخيرون ليسوا من شعوب الصحراء، ولا بد أن يخيفهم الجفاف كالمصريين إذا لم يكن أكثر؛ فالكثبان الرملية الممتدة إلى ما لا نهاية تختلف كثيراً عن شواطىء اليونان والبحر الأسود التي ألفها هؤلاء الغزاة، ولا بد أن تردعهم عن سبرها.

زُوِدت أسوار القلاع الآجرية التي تبلغ كثافتها بضعة أمتار بصفوف من الحراس للسهر على حماية البلاد ابتداءً من سيناء على الحدود الآسيوية وحتى الغرب؛ بذلك لن تتعرض البلاد لعصابات النهب المتسللة إلى أطراف الوادي، والتي كان رمسيس يأمل بأن تتعقل بعد أن هُزمت بالأمس. كانت السفن تقوم بدوريات عند مصبات النيل الموحلة، التي تشكل عقبة أمام الأساطيل المعادية، حيث ستفكر ملياً قبل أن تجازف بالسير ضد التيار والخوض في الأدغال العميقة والخطرة. لم تظهر أية سفينة معادية على طول شواطىء الدلتا، ولكن الخطر كامن. كان احتمال قتال عدوين يقلق الفرعون كثيراً. لم يكن الهجوم على الجبهات يخيفه، ولا حتى حرب الحصار، ولكنه يخشى أن يتفوق عليه الأعداء بالعدد؛ فماذا يستطيع ضد عدوين أحدهما ينقض على الحدود الليبية والآخر يغتنم هذه الفرصة ليدمر المدن الواقعة في شرقي الدلتا؟ وفوق ذلك تتدفق القوارب من القنوات كما لو كانت ذباباً على جلد ثور...

عبثاً يبتسم النساخ أمام قلق سيد الحياة. كانت هذه الابتسامات بمثابة إطراء بالنسبة لرمسيس، فلا أحد غيره يستطيع أن يقدّر خطورة الموقف. ففرعون وحيد كما توقع له سيتنخت أن يكون، وسنوات الحكم أكدت حدس الأمير الشاب.

كان على الفرعون أن يتحرك، فعليه يقع حمل حماية الدلتا من جديد؛ لذا جهز قواته بهدوء ووزع الجند على طول الطريق نحو الشرق. كانت هذه الحملة مفروضة عليه، ولكنه لا يريد الظهور بمظهر المستسلم للخطر. لقد قرر رمسيس مهاجمة البرابرة في

فلسطين، بذلك يكمل مشوار المجد الذي بدأه ويسير على خطى رمسيس الثاني الذي ملأت انتصاراته جدران معابد طيبة.

الشرق... هذا الأفق هو الوحيد الذي يعتبره المصريين مكافئاً لحضارتهم، والتغلب عليه هو تحد لا يخلو من الغرور، ولم يكن سيتنخت ليجرؤ عليه. ولكن ظل الأب المبجل يترك المكان الآن للقدوة، لرمسيس الثاني الذي يشعر ابن سيتنخت بأنه سليله بحق. قليلون هم أسياد النيل الذين استطاعوا الوصول إلى الفرات وتأمل الجبال الفينيقية؛ منهم توت موزيس الثالث Toutmosis ، مؤسس الإمبراطورية الفرعونية التي امتدت إلى ما وراء الوادي منذ أربعة قرون، ورمسيس الثاني. وبدوره، يريد رمسيس الثالث تحطيم أسوار المدن السورية ودفع القطعان البشرية أمامه وتوحيد هذا الخليط من الشعوب الوقحة بسوطه. بعد ثلاث سنوات من سحق شعوب البحر، ها هو رمسيس يعود ليسلك طريق الشمال، وكأن القدر يُسيّره ويدفعه إلى تعظيم اسمه أكثر فأكثر.

* * *

فرح رمسيس بالذهاب إلى مسقط رأسه، فقد احتفلت به مدينته الأم كما يجب أن تحتفل مدن الوادي بابن الأمجاد. ومع ذلك، ربما استطاع العديد من الكهنة والنساخ أن يكشفوا له عن غيظهم؛ فالحاكم الذي اصطفته الآلهة، الرمسيسي الجدير بدم أجداده المحاربين، هجر مهد السلالة ليلحق بتراث طيبة. ما الذي كان يريده هذا الفرعون؟ أن يصبح الخلف الحق لرمسيس الثاني، أن يسهر على أبواب مصر المفتوحة على العالم البربري التابع له؟ أم يريد أن يتجاوز العملاق الذي اختفى وتأسيس مصر جديدة على أساس نموذج قديم أصبح طي النسيان؟ هل سيستطيع حفظ التوازن في الجنوب المعزول عن العالم؟ هل سيكون لديه القوة الكافية لتغيير مجرى الزمن وإخضاع القوى المعادية لمصر منذ الأزل والتي جرتها مراراً إلى حروب طاحنة؟ هل تستطيع إرادة ملك ـ حتى ولو كان مختاراً من قبل آمون ـ أن تمحي القرون التي مضت وأضعفت بلاده، والرجوع إلى العصور التي كانت مصر فيها تبدو خالدة، لا تتغير، وقادرة على تحدي الزمن كما تتحدى كثبان الرمال القاحلة التي تحيط بها؟.

لم يكن أحد قادراً على قراءة أفكار قائد الحرب الذي يجوب بعربته الشوارع العريضة لعاصمة الرماسيس القدماء. كان الملك ذاهباً إلى قدره، قدره الذي أصبح متحداً مع قدر مصر، بل الذي تجاوزه ليصبح متساوياً مع مصير الآلهة. هذا الرجل الذي يشبه التمثال، والذي تجعل منه رموز ملكه ودرعه كائناً خيالياً، سيؤجل أحلامه إلى ما بعد الحملة

العسكرية. كانت الحقول تتسع باتجاه المشرق مع تقدم أرتال الجنود المشاة التي تسير بانتظام خلف الفرعون وقادة الجيش؛ أما الرمال والحصى، فكانت تغوص في الأرض السوداء. أصبحت الدلتا وإفريقيا خلف الجيوش، وقريباً ستظهر بحيرة عامر، هذا السطح الصغير اللامع في وسط الصحراء، هذا الحد الهش وغير المحسوس، الذي يفصل مصر عن الصحراء الشرقية. في البعيد، كان الأفق الضبابي يكشف بخجل عن جبال سيناء الصحراوية التي تمثل بداية العالم الآسيوي.

لم يكن أي خبير في خطط الحروب ليفكر في اجتيازها، فالوديان الجافة هي مكان للضياع؛ والعطش والتيه من ألد الأعداء. لم تكن شعوب البحر تقطنها أبداً، باستثناء بعض الرحل الساميين التائهين بين المسايل وراء القطعان الجائعة... كان الوصول إلى الأعداء في الشمال، في بلاد العموريين على الحدود السورية، يتطلب السير أياماً طوال، وبوتيرة منتظمة.

منذ السلالة الثامنة عشر والفراعنة يطمعون بهذه البلاد التي تشكل ملتقى الطرق في العالم القديم. كانت سورية منذ أكثر من ألف عام بمثابة الرهان بالنسبة لأوائل المجتمعات الحضرية الكبيرة التي ولدت على ضفاف الأنهار المعطاءة. فهذه الهضبة كانت تقع بين الوديان الكبرى: النيل في الغرب، ودجلة والفرات في الشرق. كم أقلقت هذه الهضبة الشعوب المتعطشة للسلام! فهي معبر للكثير من الغزوات المفاجئة، القادرة على تحطيم قرون من العمل الدؤوب في تنظيم المجتمع واستقراره. هنا يفقد المنطق المصري حقوقه ويهتاج أفضل مخططي الحروب من هذا الخليط من الشعوب المستقرة بين البحر الأبيض المتوسط وبلاد الرافدين، التي تغير على الدوام حدودها وولائها. كانت أراضي فلسطين طرقاً مثالية تصل بين إفريقيا وآسيا، على العكس من وادي النيل المفتوح على الصحراء الخالية وقلب إفريقيا الإستوائية. تشكل فلسطين أجمل جسر طبيعي في العالم القديم، ولكن في مقابل هذا الوضع الاستثنائي الذي تتمتع به كانت شعوبها التعسة تتعرض للكثير من المخاطر، ولم تستطع أية إمبراطورية أن تمد جذورها في هذه الأرض، فكان على هذه الشعوب أن تعتاد على زوال هذه الإمبراطوريات. ولهذا السبب كانت الأقوام الفلسطينية أو السورية، كالفينيقيين مثلاً، تتحالف في الحروب أوتعقد الصلح وتعلن الولاء للملك القادر على هزم آخر يطمح بإقامة إمبراطورية عظيمة على أراضيها.

منذ ثلاثة قرون ومصر تحاول المحافظة على سيطرتها على مدن وأقوام متقلبين، ولكن الإمبراطورية الحثية كانت تنازعها على هذه السيطرة إلى درجة كبيرة. ومع ذلك، فإن الكثير من الحكماء يعرفون أن العلاقات التجارية القديمة جداً مع البلاد الفينيقية كانت

مفيدة، فهي لم تكلف الكثير من الدماء والأموال. في الألف الثالث قبل الميلاد، كان الفرعون يكتفي بمقايضة قمح بلاده بالبضائع المكدسة في الموانىء الفينيقية، وبالأخص بجذوع أشجار الأرز اللبنانية، ثم يترك للآلهة عناء حكم عالم هؤلاء الغرباء. لم يكن رمسيس يهتم بقصص الأزمان الغابرة هذه، ولكنه اليوم يبدو مأخوذاً بدوامة المجد والمواجهة الحتمية بين الممالك ذات النزعة التوسعية، التي تزداد أكثر فأكثر بازدياد المشاحنات والحروب الطاحنة قرناً بعد قرن. اليوم، قد يقاتل الفراعنة لغزو هذه الأراضي من جديد، فقد أصبحت ضرورية لبقائهم على قيد الحياة، ليس فقط لأنها المفتاح للدخول إلى إفريقيا، بل لأنها أيضاً المفتاح للسيطرة على العالم المعروف.

لم يعد رمسيس يخشى منافسة الحثي القوي... فقد محقت شعوب البحر أمراء هضاب الأناضول العالية إلى الأبد. وكان رمسيس يشعر بالمرارة لهذا الأمر، فقد تعلم المصريون احترام أسياد الحرب هؤلاء، الذين استطاعوا خلال عدة قرون أن يجعلوا من هذه المنطقة إمبراطورية خاضعة لهم. كان يعلم أنهم شجعان وشرفاء، كما أن الدم الحثي يجري في عروق الفراعنة بسبب تحالفات المصاهرة التي تمت بين الإمبراطوريتين منذ عدة قرون، فهم الوحيدون الذين امتزجت دمائهم بدماء الفراعنة. لن تواجه جيوش بتاح Ptah أو آمون - وهي أسماء فرق الجنود المصريين الكبيرة - عربات الجيوش الحثية العظيمة ولا جيوشها المنظمة، ولن ترى تلك الأبهة الحربية الفنية التي تطبق على الصدور لحظة الهجوم.

يستعد رمسيس للقاء عصابات شعوب البحر التي يعتبر أفرادها صعاليك عديمي النبل رغم كونهم محاربين أشداء؛ فمصر لا تحترم إلا الممالك المستقرة، وهذه الأراضي هي ممرات عبور تستقبل كل من ترمي به أمواج التاريخ الصاخبة إليها.

علم رمسيس عن طريق جواسيسه بأنه قد لا يلتقي في طريقه بعشائر الرحل العبرية التي تعيش في بلاد كنعان منذ هروبها من العبودية في وادي النيل، والتي يمكن أن تشكل عقبة أمامه. هنا وجدت هذه العشائر ملجأ أميناً، في هذه الأرض التي وعدها بها يهوه، والتي تمثل بالنسبة لفرعون بقعة مليئة بالهضاب القاحلة. ثم أصبح هؤلاء العبريون العدو اللدود للفلسطينيين، وبدأ الشعبان بقتال شرس على أرض واحدة.

لم يكن رمسيس يأبه بهذه المشاحنات، فالعبريون بالنسبة إليه شعب تابع، استقبلته الأراضي المصرية في الماضي مقابل عبودية قاسية، وقد اختفى ذكره من ألواح النساخ منذ زمن طويل... ولم تولي حوليات حكام النيل هذا الاهتمام المدوي لرحيل العبريين، كما أن رمسيس الثالث لم يكن ليرغب بملاحقة العبريين حتى البحر الأحمر، فموسى وألواح

الوصايا العشر لا يعنيان له شيء، والعبريون ليسوا إلا شعباً كغيرهم من الشعوب التي طلبت العيش في ظل الفراعنة خلال القرون الماضية، مستجدية زادها اليومي الذي لم تكن لتحصل عليه في الصحراء المحيطة. فليبق هؤلاء الغرباء مكانهم في الهضاب ولن تتعرض لهم الجيوش المصرية؛ فرمسيس يتمسك بفريسته، بشعوب البحر الذين يهددون أراضي ومدن الدلتا من جديد.

قرر فرعون سلك طريق ساحل المتوسط المليء بالقلاع الموالية، التي تشكل نقاط دعم في حال الانسحاب ـ الأمر الذي لا يتخيله رمسيس للحظة واحدة. فهنا يشعر بأنه في أرض مألوفة، إذ أن ساحل سيناء الذي يقفل مدخل الدلتا ينتمي، حسب ذاكرة الشعوب، إلى بلاده... وكل سكان المنطقة يعرفون ذلك، حتى النبي موسى أخذ هذا الأمر في عين الاعتبار عندما رحل بشعبه في القرن الماضي، حيث فضل مواجهة منحدرات سيناء الصعبة على العودة إلى المدن المصرية من جديد.

أكد حراس الحصون شكوك الجيش، فشعوب البحر مهتاجة جداً مذ تجمعت في بلاد كنعان؛ فقد استقبلهم الفلسطينيون بفرح إذ وجدوا فيهم حلفاءً أقوياء تجري في عروقهم دماء واحدة، ومستعدين أن يحاربوا معهم ضد العبريين في الداخل والمصريين في الخارج. كان الوضع كما وجده رمسيس أسوأ بكثير مما كانت ترويه الشائعات، فالدانونا Danouana الذين ينتمون لكيليكيا في جنوب الأناضول كانوا هنا، وكذلك السيكول Sicules والشاردانيون Shardanes وغيرهم؛ ولكن ما أقلقه بشكل خاص هو وجود التكر، فهؤلاء القراصنة الذين يخافهم الجميع في البحار سيتعرضون لجيشه، ووجودهم يعني أن على مصر أن تحارب أعداء متنوعين ومبعثرين في عدة أماكن.

أما فيما يخص ميشسشر Meshasher ، فلم ينقل عنه الجواسيس أي خبر. لقد نسي رمسيس الثالث عدوه الآن ليتعرف إليه فيما بعد على عربة القتال وهو يجمع صفوفه. حتى أن فكرة المبارزة بينهما وهما على رأس جيوشهما قد هجرته وهو على عتبة الإعصار القادم.

أصبح الأعداء في متناول النظر، وهم يشكلون مزيجاً مختلطاً وملوناً، أقل عدداً مما كانوا عليه في المرة الأولى. لقد اعتاد المصريون الفراعنة على مقاومة الهجمات الاندفاعية وغير المنظمة، واعتادوا على الأعاصيف الحربية. لم يكن لدى شعوب البحر احتياطي كبير، وبالتالي، فإن إنهاك الصفوف الأولى يكفي لإعادة هذه الموجة الإنسانية من حيث أتت. نظم رمسيس الثالث جنود المشاة والعربات كما الكماشة حول العدو، ثم انقض عليه. كان

واضحاً أن المعركة ستنتهي لصالح جنود النيل، فضيق بلاد كنعان كان يعرقل شعوب البحر ولا سيما أن معسكراتهم وعائلاتهم قريبة جداً من مكان المعركة مما لم يسمح لهم بتوسيع رقعة القتال، فهنا لا توجد صحارى شاسعة. وقد قام رماة السهام والنوبيون بعمل رائع، حيث قضوا على المربعات الأخيرة من الجنود التي تحميهم الدروع الكبيرة، ثم قامت العربات بسحق الهاربين بعد أن بددت صفوف جيشهم.

للمرة الثانية ينتصر المصريون على البرابرة؛ ولكن الانتصار لم يكتمل بعد، فلا زال التكر يقلقون رمسيس رغم هجرهم للساحل وتخليهم عن تقديم العون للهنود ـ الأوربيين للصمود في وجه أبناء النيل. كان الحاكم ينتظر بفارغ الصبر عودة الرسل من الدلتا ليطمئن على الأخبار هناك، ولكنه فوجىء بأن التكر اختاروا البحر كمكان للقتال؛ فبينما المصريون يتقدمون على الأراض الآسيوية، كان التكر يتوجهون نحو مصبات النيل، متأملين بذلك مباغتة المصريين وإرغامهم على العودة إلى بلادهم الغنية، بعد أن يسبقوهم إليها وينهبوها.

كان رمسيس لحسن حظه ابن الدلتا، فقد حذرته السنوات التي قضاها في الإبحار عند أذرعها من خطر المصبات النهرية المفتوحة على البحر الأبيض المتوسط، ولم يكن التكر الذين ظهرت سفنهم فجأة في عرض البحر على دراية بهذا الخطر.

تعرّف بحارة أسطول رمسيس المنتشرين على طول الدلتا على سفن العدو من جآجئها المزينة بأشكال وحشية؛ وبدأ التكر بالهجوم فوراً كعادتهم محاولين الاقتراب من قوارب بحارة النيل. كانت المعركة قاسية، وكان التكر يتحركون بشكل جيد، ولكن المكان هنا يختلف عن بحر إيجة وخلجانه الصغيرة وشواطئه الصخرية؛ فلا تيارات ولا قيعان قليلة العمق، ولا رياح تسهل النزهات البحرية؛ لا شيء سوى أذرع موحلة وأمواج هادئة ومقصبات على امتداد النظر. وسرعان ما وقع التكر في فخ الأرصفة الرملية، فانقلبت سفنهم وأجهز عليهم رماة السهام المصريين. وهكذا انتصر رمسيس حتى وهو بعيد عن معركته.

لن يزعجه الفلسطينيون والتكر بعد اليوم... ولكن الآخيّون ـ وهم أوائل الإغريق الذين نتجوا عن الغزوات الهندية ـ الأوربية في شبه الجزيرة اليونانية ـ قد يسلكون طريق البحر عند حصول أول مجاعة؛ فالبحر الواسع لا يمكن سبره. ولكن أين كان ميشِشر Meshesher وجنوده؟ لماذا لم يحاول أن يفعل شيئاً عندما اضطر رمسيس إلى الابتعاد عن بلاده؟ كان فرعون يطرح على نفسه هذه التساؤلات في مساء يوم المعركة، وهو بين أنقاض المعسكرات التي اجتاحها والعربات المقلوبة ذات العجلات الثقيلة. لقد

أرادت الآلهة تأخير موعد الامتحان الأخير، وهي تقوده مغمض العينين في طريق طويل للبحث عن العقبات، هذه العقبات التي تظهر له كلما قطع شوطاً. إلى أين تريد الآلهة أن تصل به؟ كان عليها أن تراقب هذا الرجل الصغير وهو يحاول تجاوز أجداده العظام؛ ولكن ما الثمن الذي سيدفعه لقاء مغامرته؟.

* * *

في الأشهر التي تلت معركة النصر في سورية امتلأت جدران المعابد والقصور بالنقوشات التي تروي مآثر الفرعون، بحيوية تتناسب وأمجاد حفيد رمسيس الثاني، الجدير بنسبه، وتروي حكايا المدن التي انهارت عند قدميه والجموع المهزومة التي تتوسل إليه وأيديها مرفوعة تجاهه، وكأن الخليقة قد تجمعت لتستجدي عطفه.

عندما يفك الناسخ المتعلق بأرض طيبة الرموز المنقوشة على حجارة الأسوار الآجرية والتي تُعبّر عن قصائد ملحمية مهداة إلى سيده، يحلم هو أيضاً بهذه الأصقاع البربرية التي تجاور أرض النيل، والتي تشير إليها هذه النمنمات. كان يحلم بالقلاع السورية، بالصحراء الرهيبة، وبالآفاق المجهولة فيما وراء مستنقعات النيل.

تحتل شعوب البحر مكاناً كبيراً في هذه المشاهد، حيث تظهر مرمية على الأرض خارج عرباتها، وأقدام جيوش ابن الآلهة تسحقها! كيف يمكن للمرء أن يصدق بأنها كانت تشكل خطراً عندما تظهرها النقوش بهذا الشكل؟ هل يجب أن نرى في هذه النقوش تعبيراً عن غرور الملك، أم فن تقليدي متوارث منذ ألف عام وموضوع في خدمة الملكية المؤلهة؟ أصبح هذا الفن يشكل شيئاً فشيئاً موسوعة تتناسب في مقالاتها مع سلطة الملك المطلقة. ولكن النقوش البابلية لم تكن أقل منها تمجيداً لقوة ملكها الهرقلية... هكذا كان الحال في العالم القديم، وكان الرسم بحد ذاته أداة سحرية متوارثة عن معتقدات ما قبل التاريخ، التي تعتبره، نوعاً ما، تشكيل للواقع كما يهواه الرسام، وليس فقط فن ناشىء يتخبط الفنان في طرقاته!.

لا بد أن لمعاصري رمسيس الثالث رأي حول هذا الموضوع، فقد كانوا يعرفون كيف يقرؤون بين الأسطر وكيف يستمتعون بالصيغ المفخمة ويهملون الأشياء التافهة الذكر. كانت المغالاة في تصوير المعارك تؤثر بهم وتذكرهم بالجهود التي يبذلها أسياد الوادي لحمايته من ضياع أبدي. ولكن ألم يكن هناك سبباً آخر لكل تلك التفاصيل؟ لماذا يلجأ حاكم يخشاه الناس إلى حفر أمجاده على الكتاب الحجري الكبير الذي تشكله جدران المنشآت الأثرية في طيبة؟ هل هذه المغالاة في المشاهد الحربية العظيمة هي تعويذة ضد

المحن؟ أليست تأكيداً على النجاح النهائي؟ فهذه الأحجار تحبس الواقع وتختم عليه لتمنعه من التغير مرة أخرى.

بعد عدة شهور ستغتني النقوش بمشاهد جديدة تمجّد الفرعون. هذه المرة سيكون ميشٍشر Meshesher ملك الماشواش Mashouash هو المهزوم، وسوف يتضرع هو وأتباعه إلى فرعون ويتوسل إليه، وسيبتعد رمسيس عن مدينته للقضاء عليه في عرينه الصحراوي! عندما ازداد ظهور عصابات النهب الليبية في القرى والمدن الواقعة على الشريط الغربي من الدلتا لم يتوانى رمسيس عن التحرك للقضاء عليها وعلى جيوش شعوب البحر، فهو مستعد لمواجهة كل قوى عالم الأقواس التسع. ومن جهة أخرى فإن هذه العصابات قد هُزمت في السنين الماضية ولم تكن جديرة بالوقوف أمام مئات العربات التابعة لفرعون. فقد غزا جنود الوادي أطراف المستنقعات المحيطة، وقضى رماة السهام على أشجع فرسان الأعداء، ولم يبق أمام هذه العصابات سوى الهرب المخجل من وجه الجيش الذي هزم أكبر حضارات الشرق وأغرقها في الظلام. لم تعاني بلاد شرق المتوسط منذ أكثر من ألفي عام مثلما تعاني اليوم في ظل حكم رمسيس الثالث؛ فهذه الممالك التي شهدت أول تفتح للعبقرية الإنسانية عادت إلى ظلام دامس لم تعرفه منذ فجر التاريخ؛ فاليوم يجمعها التاريخ عند أطراف الدلتا في جنون محطم سيغير وجه العالم. ولكن رمسيس الثالث لم يكن يفكر بكل ذلك، فما يهمه هو رجل واحد: ميشٍشر Meshesher .

كان تفوق الجيش المصري كبيراً إلى درجة أن ملك الماشواش Mashouash وجد نفسه مطوقاً هو وأقاربه وبعض أمراء شعوب البحر. كان وجوده يذكّر الفرعون بهمومه، بالسنوات التي قضاها قلقاً على مصير الدلتا؛ بل ويذكّره بسنوات شبابه، بالزمن الذي تربع فيه الغرباء على عرش مصر وتعرض فيه أمراءها الأصليين للذل.

لم يكن أبناء النيل محبين للدماء، ولم يكن لديهم ميل لإراقة دماء المهزومين بدون فائدة، ولكن رمسيس سيكسر اليوم قواعد الماضي للمرة الثانية. فهنا أيضاً يجب أن تتحول التعويذة ضد المحن إلى عمل مدوي يتمثل بإعدام أمراء الأعداء وبقر بطونهم كالخراف على مذبح الانتصار المصري. فقد أصبح لدى الفرعون عدد كاف من العبيد بعد الحملات السابقة، وعلى أولئك الذين بقوا على قيد الحياة أن يلحقوا بأسيادهم إلى الموت. لن تجدي صرخات هؤلاء الرجال الساجدون عند قدمي الحاكم نفعاً، فسيوف الجنود المعقوفة ستنهال على الرؤوس بالمئات. وسوف يتبدد كابوس رمسيس الثالث كلما ازداد غوص هذه الغنائم المشؤومة في التراب، تحت أنظار الحاكم الذي لا يقهر.

الفصل السادس

سيـد الوادي

تبدد كابوس الحرب مع تبدد ضباب الشتاء على مستنقعات الدلتا. لا زالت الجثث منتشرة على أطرافها وكأنها تريد أن تذكر سكان مدن الشريط الغربي منها بالأمواج البربرية التي انتشرت على أراضيهم.

أدرك رمسيس أن زمن السكينة قد حان وآن الأوان للقيام بالأعمال الكبيرة، فبعد تغلبه على كل المحن الصعبة التي فرضتها عليه الآلهة أصبح الوادي ملك إرادته الوحيدة، ويستطيع تنظيمه كما يحلو له. لقد وحد فرعون الأرضين المصريتين في أعلى الوادي وأسفله وجعلهما أرضاً واحدة، هادئة، وبعيدة عن الأخطار الخارجية؛ بل لنقل جعلهما هيكلاً سياسياً ضخماً يحكم عالم الأقواس التسع. كانت المملكة تطيع كل أوامر الحاكم، حتى أقلها أهمية؛ فعليه يقع عاتق بنائها بحيث تتحدى كل عواصف المستقبل.

وشيئاً فشيئاً بدأ ملك مصر يشعر بأنه صوت هذا الجسد النباتي والإنساني الممتد ما شاء النظر، تحيطه الهضاب الصحراوية القاحلة. كان يريد العودة إلى طيبة بسرعة، فهو لا يستطيع التكهن بعدد السنين التي سيعيشها، ولا زال عليه إنجاز الكثير من الأعمال بعد أن تخلص من عبء الحروب. كان يفكر أحياناً ببلاطه، بنسائه، بأبنائه الصغار، وأحياناً بقصره مدينة ـ حابو Medinet Habou . فهذا القصر الذي أمر ببنائه هو معبده الذي سيخلده في ذاكرة الرجال، هو مجد يستحقه، هو مجد لم ينله سيتنخت.

للمرة الثانية، وربما الأخيرة، يدير رمسيس ظهره للدلتا ويتجه نحو جنوب مصر في رحلة منهكة. فشواطىء المتوسط تبعد ما يقارب الألف كيلو متر عن شمال الوادي، والنيل لا يتابع مجراه بشكل مستقيم في الشمال، عند الصخور الصلبة في الهضاب الصحراوية. سوف تستغرق رحلة رمسيس عدة أسابيع قبل أن يصل إلى شعبه الذي سيهرع للقائه؛

وعلى الإيقاع البطيء لسير خيول العربة الملكية، سيفكر الحاكم بروية في القرارات الهامة والكبيرة المتعلقة بسنوات المستقبل.

تشكل بحيرة مريوط نوعاً من الحدود في الشمال الغربي من الإمبراطورية، من جهة الرحّل الليبيين والأقوام البربرية. عندما اقترب الجيش من ضفافها الموحلة، انتابه شعور غريب، وكأنه قد نسي هذه الأصقاع الموحشة. فمنذ دخول أفواج الجنود المشاة في أراضي الدلتا المزروعة أصبحت ليبيا بعيدة، وسهوب الصحراء غارقة في الأفق الضبابي.

بدأت أسوار المدن المبنية في أطراف البلاد تلوح من بعيد. لقد ازدهرت الدلتا بعد أن أصبحت جزءاً مهماً من مصر تزداد أهميته على مر العصور؛ ولكنها لم تتساوى أبداً مع الجنوب؛ وكان سكانها يشعرون بالعزلة على الدوام. لم يكن ظهور السلالة الرمسيسة وولادتها واستقرارها في الدلتا كافياً لجعل سكان هذه الأرض المليئة بالمستنقعات يشعرون بالتعادل مع وادي النيل الجنوبي، فالمياه فيها تنبع من كل مكان وخطرها يهدد الأراضي المستصلحة. كان سكانها يحلمون بالعيش بأمان، ولكن العقود الأخيرة علمتهم أن الغزوات لا تقل تخريباً عن فياضانات النيل الكبيرة والمخيفة، التي استطاع الإنسان بعزمه وإرادته تصريف مياهها التي تملأ المستنقعات وتحويل الأراضي إلى حقول خضراء.

كان رمسيس رغم كل شيء متعلقاً جداً بهذه الأرض، أرض الماء والمستنقعات وغابات البردي؛ وكان يخيل إليه أن ذكريات طفولته مختبئة في مكان ما من هذه الأدغال، فقد عاش فيها زمناً طويلاً. ولكن مكانه في أعلى الوادي، فهناك عرف معنى مهنة الملك. ومع ذلك كان يرغب في تزيين هذه الأراضي الواقعة على حدود الإمبراطورية بشيء آخر غير القلاع البسيطة. كانت الدلتا تعيش في القلق، إذ عليها أن تعيد بناء القرى والحقول جيلاً بعد جيل، فتارة تغرق الفيضانات والمستنقعات الحقول، وتارة تهدم حرائق الغزوات القرى والمنازل. ولكن رمسيس سيمنح هذه الشبكة المعقدة التي تشكلها أذرع النيل المستنقعية رجالاً قادرين على جعلها حدائق غنية ومليئة بالسكان كما هو الحال في الجنوب، وهي الوسيلة الوحيدة لحصر البلاد بحدودها الطبيعية، أي البحر الأبيض المتوسط، الأمر الذي أهمله فراعنة طيبة الذين انصب جل اهتمامهم على غزو نوبيا أو آسيا السامية ولم يلقوا بالاً إلى تلك الأقاصي المجهولة في وادٍ لم يتم استغلاله بشكل كامل. كانت الدلتا في نظر ملوك الجنوب مستودعاً للصيد فقط، ولم يكن أحد ينظر إليها على أنها متنفس الوادي؛ وظل الجميع ينظر إليها هكذا على مدى ألفي عام؛ ولكن رمسيس سيغير هذه الفكرة القديمة عنها بجعلها إحدى القطبين القويين اللذين سيستند عليهما عرشه. كان ذلك في نظر فرعون حلاً لهشاشة مصر أمام الغزوات الساحلية التي لم تتوقف منذ عدة

قرون، فتارة تأتي من آسيا عبر مضيق سيناء، وتارة من البحر الأبيض المتوسط كغزوات شعوب البحر. لقد أخذ ابن سيتنخت على عاتقه أمر إكمال الإصلاحات التي بدأها رمسيس الثاني ولم يكملها لانشغاله بتحقيق حلمه بإمبراطورية آسيوية، ولكن رمسيس الثاني على الأقل أعاد التوازن إلى البلاد بنقل العاصمة إلى الشمال. كان رمسيس يدين إمبريالية خلفه ويعتبرها وهمية، فقد جعلته الأحداث عاقلاً. لقد وعد نفسه بإعادة الفلاحين الملتجئين بالوادي إلى أراضيهم في الدلتا، فالبلد المكتظ بالسكان هو وحده القادر على حماية أرضه، وهو الذي يحث أهله للدفاع عنه، فلا أحد يموت من أجل مستنقعات! سيكون لدى الحاكم الوقت الكافي للتفكير بكل هذه القرارات، ولكن الآن عليه أن يكرم آلهة هذه المحافظات، وينبي لها معابد قوية تقاوم الزمن والبشر. وسيكون لها كذلك جيش لحماية الحرم، لا يتركها لكي لا يُلعن السيد في الآخرة.

شعر رمسيس وهو يدير رأسه باتجاه الأرتال التي تتبعه أن السلام قد يتحقق بالعفو عن هؤلاء الرجال المهزومين والمفضوحين، السائرين بخجل في موكب طويل يشهد على انتصار الحاكم. قريباً سيأتي زمن النسيان وستأتي آخر عصابات شعوب البحر مطأطأة جبينها وتأخذ الأراضي المشبعة بأملاح المستنقعات كهدية إلهية من يد فرعون. ولكن الوقت لا زال مبكراً الآن، فالدم لم يجف بعد، وعلى المهزومين أن يعملوا بكد وتعب لعدة سنوات في الأراضي التابعة للمعابد. نظر رمسيس إلى النباتات الكثيفة الممتدة إلى الأفق وهو يتذكر الانطباع الذي كان لديه دائماً بضخامة الطبيعة في هذه الأماكن الوحشية. كان ابن الدلتا في أعماقه يهمس له بأن مستقبل البلاد سيكون هنا، وعليه أن يغذي هذه الحقول بجيش من الفلاحين للعمل فيها، فهي أكثر اتساعاً من أراضي طيبة ذات الحقول المعدودة.

ويتابع الموكب مسيرته، فتتوحد أذرع النيل وتبتعد المستنقعات، بينما تمتد الصحراء بهضابها القاحلة ابتداءً من مدن ممفيس وهوليوبولس القديمة. وهرعت الجموع لتحتفل برمسيس وهو لا يزال بعيداً، يتأمل بإعجاب الأهرامات الصامدة إلى الأبد. لقد حصد هو ما زرعه هؤلاء الملوك الراقدين في هذه القبور المهيبة منذ ألفين عام، فليتذكر ولاءهم للآلهة. ولكن آمون ليس السيد هنا، فلـ رع Re كهنتها في هوليوبولس وعليه ألا يهملها كثيراً... كانت الجموع متجمعة في كل الأنحاء، على الطريق البري كما على الطريق النهري؛ فالفرعون موجود في كل مكان، وهو منظم هذه البلاد واسمه مرتبط بأصغر قلعة فيها. كانت رؤية التلال التي تعلوها أشجار التين الفرعوني الكبيرة من بين الضباب تثير الراحة في نفسه. عندما يعود إلى طيبة عليه أن يتذكر الجموع، فكل هذه الأذرع تمثل قوة عظيمة

خاضعة لإرادته، وتوجهها أوامره لخدمة عمل يفوق ما سبقه.

لن يراه الكثير من الفلاحين المحتشدين على الطريق مرة ثانية؛ ولكن كيف يفكر أحدهم بالآخر، كيف يفكر ابن الآلهة بهذا الفلاح التعس، جد فلاح اليوم؟ كان فرعون يعتبرهم كذرات غبار؛ كل هذه الرؤوس المحلوقة والجذوع التي تلمع من العرق وتسجد أمام موكبه لم تكن شيئاً؛ ومع ذلك، كان يحبهم كما يحب نباتات حقل محروث. أما هم، فلم يرفعوا رؤوسهم، فقد كانوا يشعرون بوجوده من الصرخات ومن وقع أقدام آلاف الجنود. لم يستطيعوا رؤية الخوذة المزركشة والدرع الذهبي اللامع إلا للحظات، إذ سرعان ما اختفى السحر... ولكن الضجيج لا يزال مستمراً، يملأ هواء الربيع الساخن.

منذ أكثر من عشر سنين وفلاح النيل يُبجّل الفرعون الجديد الذي يحكم كل أيامه. ما الذي يمثله رمسيس الثالث بالنسبة إليه؟ فالاسم المقدس يتكرر على مسامع الفلاح مئة مرة كل عام، وكل مرة يصحب هذا الاسم صفات العظمة والفخامة، كلقب الحياة والصحة والقوة، الذي هو من أقلها تعظيماً نظراً لكونه يُعبّر عن الجوهر الإلهي لسيد الأرضين. كان الاسم يتكرر في خطب مملة أبدية، تعلن عن أوامر الحاكم، ويقرأها النساخ المتواجدون دائماً مع كوكبة من الرجال الذين يشرفون على عمل الفلاح. في تلك الأزمان، كان الرجال في مصر منتشرون في كل مكان، ومكدسون في أجمل واحة في العالم. ولكن ماذا لو أمطرت الأوامر وكذلك ضربات العصي؟.

لم يكن هذا الفرعون أسوأ من غيره، فهو على الأقل يحمي الأرض السوداء ولا يوفر جهوده. وإذا كان هؤلاء المساكين لا يعرفون الكتابة، فالعائلات المستقرة هنا منذ قرون تتناقل التراث الشفوي في ليالي الصيف الطويلة وتذكر عشرات الملوك. فأمام البيوت الصغيرة المبنية من الآجر، والتي تستمتع بالنسمات العليلة القادمة من الهضاب الصحراوية، كان كل فرد يذكر اسماً ثم آخر، يحللون القرون، وينتهوا بإطراء الحاكم الحالي. فهذا الحكم أفضل مما سبقه، ويبدو أن الآلهة قد وجدت ما يرضيها في هذا القائد. وإذا كانت مصادرات محاصيل الفصول السيئة تدفع بالكثير من الفلاحين المتذمرين نحو أعمال السدود، فإن الجميع يعرف أن هموم الحاكم عادلة وتستحق المديح. وكان العجائز يهزون رؤوسهم موافقين على ذلك، فذكرياتهم المؤلمة تخبرهم الكثير...

عندما ينبت القمح في الحقول ويبدأ لونه بالاخضرار، يشكر الفلاح منافع الفياضانات الصيفية التي لا تزال بعيدة الآن... هل كانت المياه سترتفع بهذه الدقة المدهشة لو لم تكن الأضاحي المطلوبة من القرية تذهب لتزيد ثروات المعابد غنى؟ هل كانت الآلهة

ستستجيب لدعاء أبناء الأرض؟ ولا ننسى أن جزءاً كبيراً من المحصول الجيد سيذهب إلى مستودعات الكهنة وفرعون محملاً على ظهر البعير. ولكن في تلك الأزمان الغابرة ما الذي يمكن أن يأمله الإنسان غير الأمان في ظل حماية حاكم قادر على إطعامه؟.

لم يكن لرعايا رمسيس الثالث أن يشتكوا من قسوة الأيام، فقد جاءتهم العقود الأخيرة والحروب الأهلية بهموم جديدة؛ وعندما يلتهي الرجال بتمزيق بعضهم البعض لا تقاوم الحواجز طويلاً عمل الفياضانات القوية في حفر هذه الأرض. ما الذي كانوا سيصنعونه اليوم لولا خيط الماء الذي يمر عبر الجدران الصغيرة من النيل وحتى حقولهم، في شمس الربيع هذه التي تشقق الأرض الطمية؟ لم يكن الفلاح الأمي بحاجة إلى عون برديات دور الحياة، فهو يعرف بخبرته ما يكفي؛ والسنوات التي قضاها كجندي تعس في نوبيا ومستنقعاتها الصعبة علمته الكثير عن الطبيعة الوحشية في الوادي القديم، وكان النظام والانسجام الذي يعيش فيه أبناء الشريط الطمي في الوادي يدهشه كل يوم. فكما في بلاد الرافدين، سعى الإنسان هنا لبناء حضارة حديثة يصل فيها إلى درجة الإبداع رغم بساطتها؛ فبمجرفته غير وجه العالم. وإن كانت الزراعة الحضرية ظهرت أول ما ظهرت في المرتفعات السورية والأناضولية حيث ينمو القمح وبعض النجيليات الأخرى بوفرة، فإن الدور الأساسي كان للوديان الكبرى والمشبعة بمياه الأنهار الكبيرة، والتي تجمّع الرجال حولها حين قل عددهم في الشرق الأوسط السائر نحو التصحر. وحدها وديان النيل والفرات وسهول الأندس والصين تملك الموارد البشرية اللازمة لبناء صرح اجتماعي كبير يحوي كل تعقيدات الحضارات الكبرى. كان كل فلاح بمثابة يد تدعم عرش رمسيس وتقدم ما يطلبه النساخ دون تمرد، ولكن عجرفة هؤلاء النساخ والسوط الذي يحملونه دائماً لم يكونا تطبيقاً لأوامر فرعون، وإذا تمادى النساخ في ظلمهم، فبإمكان الجموع المتذمرة أن تطلب استرحاماً من أحد أعيان المحافظة، فقد يسمع فرعون في قصره البعيد تضرعات شعبه. ثم... كيف تشتكي بينما مالك الأراضي الكبيرة في القرية يعود من الحرب دافعاً نحو حقوله عبيداً ذوي بشرة بيضاء؟ لن يتوانى الفلاحون عن معاملة هؤلاء الأسرى الغرباء معاملة سيئة، فهم يشكلون الدليل الحي على مصير من يجرؤ على تحدي سيد الوادي.

كان الشاردانيون Shardanes يتمنون الموت السريع في العمل تحت أنظار فلاحي النيل الخالية من التعاطف، الذين كانوا ينظرون إليهم نظرة فوقية لإنتمائهم إلى شعب متحضر، لا بربري تائه مثلهم.

كان الفلاح فخوراً بمنزلته، صحيح أن أرضه لا تصل إلى سياج التين الفرعوني الذي

يبعد عن منزله عدة مئات من الأذرع، ولكن لا أحد يعمل بها أفضل منه. بيد أن تسخيره للعمل في الحقل هو بمثابة ضريبة يدفعه رجال فرعون لأدائها؛ ومع ذلك، ورغم تذمره، فإن مائدته لم تكن فارغة أبداً. أحياناً كان القمح ينقص لمدة طويلة، ولكن الخمر والبيرة يزيدان من بهجة أمسيات العيد. وكانت بعض الدواجن تحوم حول منزله الصغير المجاور لمنازل جيرانه الواقعة على تلة صغيرة، والمظللة بأشجار الفاكهة؛ وكذلك كانت شباكه مليئة على الدوام بأسماك النيل الكبيرة. حتى أرضه لم تأن من العطش، فأذرع الشادوف الطويلة ترفع المياه من القنوات وتروي عطشها. فليهدأ بال رمسيس، وليعد إلى طيبة مرتاحاً، فالفلاح لن يتمرد أبداً.

شعر رمسيس بعد انتصاره بأنه تخلص من عبء ثقيل، وهو الآن يستطيع أن يكرس نفسه لبلاده. لكن اهتمامه يجب أن ينصب على كل المحافظات، فقد تركت فوضى الحكومات السابقة آثارها على القرى، ولم يستطع العقد الأول من حكمه أن يرفع كل الأنقاض ويعيد الأمور إلى نصابها في المقاطعات البعيدة، كالفيوم مثلاً، هذا المستنقع الضخم المستلقي في كبد الصحراء نحو الغرب، والذي يبعد مسافة مسير عدة أيام عن الوادي وعن العاصمة القديمة ممفيس. لقد حول فراعنة الأزمان الغابرة مستنقعات التماسيح هذه إلى أراض ضاحكة، شديدة الخصوبة، وفيها مناطق مخصصة للصيد. إلى ما آل مصيرها الآن؟ لم تبين تقارير النساخ شيئاً، فهي تصور الوضع الدائم، حيث الفلاح يعمل دون تذمر، والقمح يتكدس في المخازن، والبلد يزدهر. ولكن هناك الغارات الليبية التي نشرت الهلع في هذا المكان العريق من الحضارة المصرية، وهدمت ما هدمت؛ لذا يجب بناء المدن وحفر قنوات ري جديدة وسد الثغرات القديمة. وعلى الفرعون أن يضمن الأمان في طرق الصحراء المخيفة بمضاعفة عدد الدوريات التي تسهر على طرق القوافل ومراكز المياه النادرة في الكثبان القاحلة؛ فهذه الدوريات هي الوحيدة القادرة على نصب شباك حول الواحة المصرية ووقايتها من الاضطرابات. ومن العبث تمويه الأمر باصطياد الغزلان التي أصبحت نادرة في أطراف الوادي، فالجميع يعلم أن مهمتها هي التقصي الدائم عن أخبار البرابرة في الأفق. لم يكن لدى فرعون الوقت الكافي لزيارة كل محافظة، ومع ذلك كان تصميمه على تغيير حياة السكان فيها يزداد يوماً بعد يوم. فبعد عودة السلام وانقضاء المحن، يحتاج الشعب والأعيان إلى رعاية رمسيس وإلا ستشهد مصر أياماً عصيبة من جديد...

كثيرة هي الأمثلة التي تطرأ على ذهن الملك وتدفعه لأن يصبح بناءً كبيراً، بل خالقاً مبدعاً يضع كل طاقته في إعادة تشكيل مملكته. ولا تزال آثار الإمبراطورية الوسطى التي

بلغ عمرها الآن خمسمائة عام موجودة في الدلتا، تشهد على أعمال ملوكها. فقد حفر فراعنة تلك الحقبة قناة ضخمة هي الوحيدة من نوعها،تغوص فيها مياه النيل وتسير بشكل مستقيم لتصب في البحر الأحمر. بغريزتهم شعر هؤلاء الملوك بضرورة ربط النهر الكبير، حبيس الرمال، بالبحر وشواطئه الجنوبية، في رحلة من الغرب إلى الشرق مروراً بالمدن التي تفوح منها روائح عطور النباتات النادرة. هنا أيضاً، في جنوب البحر الأحمر، يجب العمل على إعادة الشواطيء المنهارة إلى الوضع الطبيعي؛ ولكن ذلك سيتطلب المئات من السواعد النشيطة للعمل شهوراً عديدة تحت لهيب شمس الصيف الحارقة. ومع ذلك لن يتأخر فرعون في إصدار أوامره الملكية المتعلقة بهذا الأمر.

لم يكن وادي النيل يخبأ للحاكم المصمم على إحياء أرضه أحلاماً وردية فقط؛ ففي الجنوب، في الموقع الذي سيصبح يوماً ما تل العمارنة، ستذكّره مدينة نكرها الجميع بحدود قدرته.

هنا، قبل قرنين من حكم رمسيس الثالث، حدثت مأساة كبرى في تاريخ الحكام. إنها مأساة أخنتون، ملك ذاك الزمان ومؤسس هذه المدينة. كانت ذكراه تثير هلع أبناء الرماسيس، فأخنتون تحدى نظام الآلهة. ولكن كيف تجرأ على فعل ذلك؟ كيف تجرأ على المساس بحق عائلاتها في التصدر بتلاعبه بوجودها وتنظيم الألوهية الواحدة، ألوهية أتون وحده، جوهر الشمس المعطاءة؟ فالجميع يعلم كم كان عالم الآلهة معقداً فكل شيء في هذه الحياة يعتمد على حماية كائن خارق. ورمسيس، ككل معاصريه، يحرص كل الحرص على عدم نسيان الصلاة لهذا لإله أو ذاك عند الدخول إلى إقليم يُعبد فيه هذا الأخير بشكل خاص منذ زمن بعيد، ويشكل قوة طوطمية عند العشائر القديمة المنسية. فعند ركوب النيل يجب مدح هابي Hapy ، وفي طرق الصحراء الخطرة يجب مدح إله آخر، وهكذا دواليك...

علم رمسيس أن أمينوفيس الرابع Amenophis IV ، أو أخنتون، كان عالماً شديد التقى؛ ومع ذلك، فقد حطم الغضب الآلهي عمله الذي كرسه بمجمله لتمجيد دين آتون الجديد. حتى زوجته الجميلة نفرتيتي لم تستطع مساعدته على إيقاف موجة الصرخات العدائية المتصاعدة، التي أطلقتها الجماهير بوحي من الآلهة الثائرة. لقد استشف رمسيس من ذلك غضب آمون الذي حُكم عليه بالنسيان بعد قرون من الهيمنة على الإمبراطورية الجديدة وعلى ملوكها، ملوك طيبة المتمسكين بإله أرضهم.

لم يكن رمسيس يخشى مصيراً كهذا، فسِت Seth ، إله الدلتا الكبير، لم يعد

يستطيع توحيد الآلهة ضد الفرعون بعد مقتل أخيه أوزيريس الأسطوري، الذي كان هو السبب فيه؛ أما الآلهة السورية التي أصبحت معبودة في الدلتا، فهي مجرد ضيفة على معبد الأرباب ولا تستطيع شيئاً في أرض النيل. فمسيرة العالم تحكمها رع Re وظلها آمون حسب نشأة الكون عند كبار الكهنة، وسيظل الوضع كذلك بالنسبة للفراعنة أيضاً. ورمسيس الذي يصر على الظهور بمظهر ابن الآلهة المخلص، سيخصص لمعابدها من سبائك الذهب ما يتساوى مع ثروات قصره.

ماذا بقي من مدينة العمارنة التي أنشأتها إرادة أخنتون، والتي كانت حياة البلاط فيها صاخبة؟ هذه المدينة الضخمة التي استطاعت ضم كل العائلات النبيلة التي تم استقدامها بالقوة بعد إخلاء طيبة، المذنبة في عين أخنتون لم يبق منها شيء؛ اللهم إلا حقل من الحجارة وأنقاض جدران لا تزال تحمل آثار روعة الماضي... أصبحت هذه المدينة مكاناً ملعوناً يخشاه الناس ويهربون منه خوفاً من أن تحل عليهم لعنة آمون الجبار إذا رآهم يميلون بشفقة على هذه الجدران المنسية التي بناها ملك متهور!.

كان ابن سيتنخت يدين أخطاء سلفه البعيد ويحاول بشتى الأشكال الإنضواء تحت راية التراث الأقدم في مصر، التراث نفسه الذي كان أخنتون يريد إتلافه. لقد تصرف هذا الأخير كرجل اهتدى أخيراً إلى عبادة الشمس، فحاول تقويم العقائد بكثير من التهور. لم يكن رمسيس وريث سلالة لامعة كأخنتون ـ ابن وحفيد العظام من السلالة الثامنة عشر... فسنوات شبابه الصعبة علمته التواضع، وهو يعتبر نفسه رجلاً يتحكم بمصير أبناء الوادي كلهم، لا إله محاط بلحم بشري حقير. كان معجباً بتاجه ويعتبره كافياً لمجده. وقد يغفر فرعون السلالة العشرين لأمينوفيس الرابع Amenophis الذي عوقب بقسوة بعد موته بحرمانه من شعائر التبجيل التي تهدى عادة للفرعون، ولكن الحاكم الذي قهر شعوب البحر لا يمكن أن يسامحه على أخطائه السياسية الكبيرة وإهماله لمملكته بحجة التبشير الديني؛ فهو بتصرفه هذا أعطى أعداء مصر الفرصة للانقضاض على أجمل الأقاليم الآسيوية وتحطيم القلاع التي بناها أسلافه بصبر؛ ثم جاء موته المفاجىء ليعلن عن زوال الإمبراطورية الجديدة... فالملك لا يملك نفسه ولا يستطيع شيئاً حيال مصيره. شعر رمسيس بأن صورة أخنتون المشوهة توجه له رسالة من أعماق القبر، تخبره بأن الرجل الذي جمح به هواه الديني قد استحق عقاب النسيان. ولكن أولئك الذين كانوا أداة الغضب الإلهي ليسوا أفضل منه بتاتاً، فهؤلاء الكهنة الشديدي الثراء والسمنة كانوا يثيرون لديه قرفاً يستطيع رمسيس أن يفهمه جيداً. ولكن ابن الدلتا كان سينصحه بالمزيد من الحذر فيما لو أراد قمع عجرفة رجال آمون؛ فرمسيس كأخنتون لا يثق برجال الدين في معابد طيبة

الكبرى، ولكن حظه شاء له أن يحكم بعد فشل سلفه المهزوم من قبل الكهنة، وتتويجه في سن النضوج أعطاه فرصة لاكتساب الحكمة، أو لنقل النفاق المفيد لمواجهة المتآمرين الرهيبين المختبئين في ظل قاعات الكرنك. لقد أراد أخنتون أن يكسر شوكتهم، وكان يعتقد أنه بإخلاء طيبة ومعابدها سيتسنى له إبعاد هؤلاء العلماء المتعطشين للسلطة؛ أما رمسيس، فقد كان يفكر بإغرائهم بالذهب أكثر فأكثر كي لا يفكروا بعضّ اليد المليئة بالعسل! فأمام منظر العمارنة، أقسم ابن سيتنخت على ألا يدعَ كبار رسل آمون يغيبون عن نظره للحظة واحدة، فهم أكثر خطراً على أبنائه من الشاردانيين Shardanes . وسنترك للزمن عناء الحكم على نجاح خطته.

قريباً سيهتم رمسيس بأمور الرجال المحيطين به من وزراء ونساخ وكهنة، وسينظم الفئات الناشئة منهم ويرقّي أبطال الحروب الذين كانوا على رأس الجيوش المتجهة نحو الشمال؛ وعليه كذلك أن يضمن السلام الدائم. كان فرعون يعتقد أنه يمتلك كل الوقت لتدبير هذا الأمر، ولكنه وجد أن العجلة ضرورية لتقويم دعائم إدارته. فلتختفي العمارنة في البعيد، وليختفي معها كابوس الملوك الذين يرتجفون من أجل مصيرهم الأبدي. فمن **سيضمن** للجثث المحنطة البقاء في القبور التي هُيئت بعناية من أجلها؟ ولم هذا الذهب إذا كان الآلاف من التماثيل المنتشرة بجانب التابوت في فوضى مليئة بالحياة معرضة للكسر بضربة يد مُدنّسة؟ ستصبح المومياءات يوماً ما جثثاً فقيرة، بالكاد بقايا عظمية شبيهة ببقايا الفلاحين المرمية بإهمال في حفرة من الرمال.

لقد زاد أخنتون الأمور سوءاً بورعه المفاجىء والمتهور أمام قرص الشمس آتون، فالاضطرابات التي نجمت عن إضعاف الملكية أمام رجال الدين فتحت أبواب مدينة الأموات أمام السارقين. فلكي يخلد الفرعون إلى الراحة الأبدية في القبر، يجب أن لا يتغير نظام الكون الذي أملته الأساطير الإلهية؛ وهو الشرط الوحيد لكي تعود روح الفرعون - الكا - إلى جسدها السليم عندما تشاء. سوف يستحق رمسيس خلال عدة قرون شكر الرجال الذين يقودهم كأشكال صلصالية محبوسة في ظلمة القبر في تابوت خشبي. لتمنحه الآلهة الحياة الطويلة التي يحتاجها بعد أن أفسدت المعارك المتواصلة مع الأقوام البربرية السنين العشرة الأولى من حكمه.

بدأت كوبتوس Coptos تلوح من بعيد بمرتفعاتها الهائلة، المنفصلة عن الأفق الصحراوي فيما وراء الوادي. كان رمسيس يحب هذا المكان، ربما لقربه من طيبة؛ فهنا، أكثر من أي مكان آخر، يشعر بانتمائه العميق إلى هذه الأرض الطمية من النيل. وكوبتوس Coptos هي منذ الأزل مدينة الإله القديم مين Min، الذي ولد أمير الدلتا في

ظله منذ خمسة وأربعين عاماً... لقد أصبحت أساطير مين Min المغرقة في القدم منسية الآن، ولكنه الإله الشبيه بآمون الكبير، وقد دهش رمسيس مراراً من التقارب بينهما. قد يستطيع العلماء إخباره بصوت منخفض بأن آمون قد استعار الكثير من جاره، كالشكل الإنساني مثلاً، المتدثر والغامض، بل لنقل الظل. ولكن لا، فهو قد يكلف هؤلاء الكهنة الكثير إذا كشفوا له عن أسرار آمون، إله الإمبراطورية. وقد يُهمس أيضاً... بالكثير من أسرار القوى. لقد كرس رمسيس الكثير من الأضاحي لآمون، ولكنه في أعماقه لم ينس مين Min يوماً؛ فهذا الإله الداكن يحكم هذه الهضاب القاحلة التي تعتبر مدخلاً إلى منطقة فريدة من نوعها؛ ولم يمنحه القدماء هذه الوصاية بالصدفة، فكوبتوس Coptos هي فعلاً عالم غامض يؤدي إلى المناطق الصحراوية المعروفة بثرواتها الجوفية، وإلى البحر الأحمر والبقاع الغريبة. لقد جاب المصريون في أنحائها منذ أقدم الأزمان، كماقام النساخ بتسجيل أدق التفاصيل المتعلقة بالسلسلة الجبلية المنتصبة بين وادي النيل في الغرب وشواطىء البحر الأحمر في الشرق.

كان جوف هذه البقعة من الأرض غنياً جداً، فهو يخفي كميات كبيرة من الذهب.. وقد توالت البعثات إليها قرناً بعد قرن لدعم كنوز الفراعنة بالمعدن الثمين. وربما كان آخر رجال ما قبل التاريخ، أجداد حضارة النيل، يعرفون هذه المناجم. ولقد قام أصحاب المقالع الحجرية وعمال مناجم فرعون بتوسيع رقعة أبحاثهم بحيث شملت سطح الأرض والركام، حيث يكثر الركاز. كان العمل على استخراج هذه المواد الأولية الضرورية لصنع الأسلحة والأدوات لا يتوقف أبداً، فالمنشآت الفرعونية الهائلة والتحف الفنية تتطلب أيضاً مواداً حجرية متنوعة. لم تكن كوبتوس Coptos الوحيدة التي تملك مخزوناً غنياً، ولكن نضيدها الأسود لم يكن له مثيل في البلاد. وجاذبية الذهب لا يوازيها شيء، فالفرعون يشعر بالنشوة وهو يغمس يديه في الأكياس المليئة به. أما الرجال الذين يقومون بهذه المهمة القاسية لاستخراج بعض التبر من الأراضي القاحلة، فلم يكن أحد يعبأ بهم، فأرض المعدن الأصفر كانت تخنق تأوهات هؤلاء المنسيين، وكوبتوس Coptos وأرضها الصحراوية تغذي كنوز فرعون وترزخ تحت سيطرته المتغطرسة. هنا، في قلب مصر، يلمس المرء الثروات الملكية؛ ورمسيس الثالث كسائر الحكام الذين سبقوه لن يهمل عطاءات المُثل المجففة والركام، ولا الشواطىء الصخرية المحيطة بها.

كان الفلاح يبجّل الحاكم المسؤول عن الحياة في الوادي وعن حسن سير الأعمال النافعة للجميع؛ ولكن عمال المناجم والمقالع الحجرية لا يكنون له هذه النوايا الحسنة، فعملهم مضني، والاعتبار الذي يتمتع به هؤلاء التعساء في المملكة أدنى بكثير من الجهد

الذي يبذلونه، وهم كالفلاحين يشرف عليهم موظفو المملكة الوصيين على البعثة. كانت الدوريات المسلحة تراقبهم لكي لا يتوه أحد بالصدفة في هذه الأرض المقفرة والغنية.

في هذا المكان تكثر تماثيل الآلهة، وبالأخص تماثيل الإله مين Min ؛ فعمال المناجم والمقالع الحجرية يعلمون بأنهم يدينون بالنجاة في هذا الجحيم إلى العناية الإلهية. فالحرارة المرهقة، والمياه المقننة من شدة ندرة الينابيع، ولدغات الأفاعي والوحوش عوامل هلاك تضاف إلى العمل المنهك. كان عمال المناجم يحفرون الصخر بأدوات حجرية فقيرة ويفككون الكتل الصخرية بواسطة أوتاد خشبية مبللة بقليل من الماء، ثم تنزلق هذه الكتل في دهليز هُيء بصعوبة بالغة في الأرض الحارقة ليُستخلص منها القليل من تبر الذهب.

كانت هذه المهمة المضنية تُترك عادة للعبيد من أسرى الحرب أو الشعوب التابعة المستقرة حديثاً في أطراف البلاد. وكانت الدوريات تشرف عليهم دون أن تكون في حالة دفاع، فلا شيء هنا يهدد مصالح الفرعون، على العكس من المناطق الصحراوية في الدلتا، المفتوحة لليبيين وشعوب البحر. فسكان المرتفعات الصحراوية الشرقية ووادي حمامات هم رحّل لا حضر، ومصر لم تعد تخشى الغزوات، وأصبح بإمكان أبنائها التجوال في هذه الأماكن الصحراوية الآمنة دون خوف.

تشكل السهوب والهضاب القاحلة منطقة ضيقة تختلف عن الصحراء الشاسعة التي تشعر الحضري المعتاد على آفاق الوادي المحدودة بالضيق. ثم تأتي شواطىء البحر الأحمر لتقطع الصحراء وتحدها بالماء من الجهتين. في الجهة المقابلة من البحر الأحمر، تحوي شبه الجزيرة العربية أقوامها البدوية القليلة العدد، التي بدأ المصريون مؤخراً بإقامة علاقات تجارية معها.

تملك كوبتوس Coptos بالإضافة إلى الذهب مسايل عميقة محفورة في المرتفعات تؤدي إلى البحر الأحمر. لقد اكتشف أبناء طيبة هذه المسايل منذ زمن بعيد، وهي الممر الذي يؤدي إلى البحر الوحيد النافع في نظر أبناء النيل، ولها فائدتين كبيرتين: الأولى هي عرضها النسبي الذي يسمح بالإبحار فيها دون ضياع - وهو أمر ضروري جداً للبحارة في ذلك العصر، والثانية هي اتساعها في الجنوب.

ويحتل اسم الجنوب لوحده جزءاً من موطن الخيال في الحضارة المصرية، فمنابع النيل تضيع في هذا الاتجاه، حيث النباتات العطرة. كان الوصول إلىهذه البقاع الأسطورية شبه مستحيل إذا اختار المرء صعود مجرى النيل، فهناك السهول السودانية الحارة، ومن ثم مستنقعات أعلى النهر التي يسميها العرب بر الغزال، والتي لا يمكن للمرء النجاه فيها.

فسلوك الطريق البحري هو الحل الأكثر أمناً والأقصر زمناً. كانت طرق كوبتوس Coptos تسمح لأبناء طيبة بالوصول إلى شواطيء البحر الأحمر خلال بضعة أيام عبر الوديان الجافة، بدلاً من نزول مجرى النيل حتى الدلتا ومن ثم سلوك القناة البحرية.

قرر رمسيس أن يعيد الصلة بين أراضي أجداده والعالم الإفريقي؛ فنجاح البعثات الجنوبية هو سمة من سمات حكم فرعون عظيم. قريباً ستظهر طيبة وتختفي كوبتوس Coptos وراء الحرس الملكي؛ ولكن جانباً آخر من العمل الذي يتوجب على الفرعون إنجازه قد ارتسم....

الفصل السابع

قصر ملايين السنين

بعد انتصاراته الحافلة واطمئنانه على مستقبل بلاده وعرشه، يستطيع الفرعون أن يهنأ بهدوء طيبة. فالوادي الكبير يطيع أوامره، وهو يعلم أنه سيحتاج إلى وقت كبير وطاقة هائلة لإعطاء هذه الحضارة التي بلغ عمرها ألف عام مؤهلات النجاح والاستمرار في القرون القادمة. ولكن التغيير لن يطال إلا ما هو ضروري للتأقلم مع عواصف الأزمان المستقبلية.

منذ زمن بعيد ورمسيس يفكر ببناءٍ يخلد ذكراه عند الأجيال القادمة، وكان يتحرق كسابقيه من الحكام لتحقيق إنجاز مميز يلهم الحكام القادمين؛ فمشاركته ببناء منشآت جديدة في معابد طيبة الكبرى، وبخاصة الكرنك، لا تكفي للدلالة على عظمة الحكم. لهذا السبب سيتم بناء صرح في غرب النيل، في الجهة المقابلة للحرم الديني المبجّل، لتخليد سيد البلاد.

وتشير عودة الفرعون إلى طيبة إلى إخلاصه للتراث الأكثر نقاءً في الإمبراطورية الجديدة؛ أما بي - رمسيس Pi - Ramses ، المدينة التي أسسها الرماسيس، فقد أصبحت ذكراها بعيدة. واقترب رمسيس من سفح السيم، الشاطىء الصخري المشرف على منطقة طيبة في الغرب. هنا قد لا يستطيع إطلاق العنان لخياله الجامح، فالرحلة أوشكت على النهاية، وقريباً سيبدأ العمل. لقد أنجز الرماسيس الكثير من الأعمال في مستنقعات الدلتا، فالمرافىء والقنوات والقصور والمعابد تزدهر في مدن الشمال؛ ولا يذكر أبناء هذه المحافظات التي استصلحت منذ زمن قصير أن حمى البناء انتابت أميراً بنفس القوة التي أصابت بها رمسيس الثاني العجوز، الذي يتحدث الجميع عن حدائقه المظللة وبوابات المعابد الضخمة التي بناها. ولكن الأمر كان مختلفاً في طيبة، فآخر ملوكها لم يكن له شأن كبير، ولم يكن ذلك ليسوء رمسيس الناضج، الذي اعتلى العرش في سن كان الكثير من الحكام قبله قد

أنهوا حياتهم وأعمالهم فيه، والذي يحاول بكل قواه أن يعطي انطباعاً بتأسيس سلالة شرعية، وهمية... ولكن، ألم يكن الأمر كذلك بالنسبة لغيره أيضاً من مؤسسي السلالات في مصر وغيرها على مر القرون؟ فرمسيس الثالث رغم دمه الرمسيسي وحكم أبيه القصير تشبه صورته الصورة المعذبة والمتسلطة لمؤسسي العائلات المالكة.

كان رمسيس يتمنى أن ينصهر في تاريخ طيبة العظيم، تاريخ كبار فراعنة الإمبراطورية الجديدة الذين تركوا آثاراهم هنا وشيد كل واحد منهم بناءً لا يعبر في الواقع عن شخصيته الحقيقية. لقد أضحى السهل الممتد تحت السيم إلى غرب النيل كتاب حجري يتوجب على سيد الوادي تفكيك رموزه وتأمل معانيه. قد يختار التواضع.. ولكن كبرياءه يفرض عليه العظمة، وقوته السياسية تسمح له بتجاوز الحدود، والملوك المغمورين الذين قضى طفولته في ظل حكمهم سيزيدون من بريق عهده.

كان منظر طيبة في غرب الوادي شبيه بخشبة مسرح عظيم، فالسهل الطمي يمتد على بعد فرسخ، أي ما يكفي لبناء قبر يرضي الغرور البشري ولا يحده شيء باستثناء قبور الملوك السابقين! في الخلف، تشكل المرتفعات الصحرواية ديكوراً باذخاً، قاحلاً، ذو لون آجري قاتم يميل إلى الحمرة تحت شمس الغروب؛ فالهضاب تزداد ارتفاعاً بينما تصبح المنحدرات شواطئاً صخرية، ويتخذ الجدار الصحراوي المحيط بالوادي شكل السيم العظيم، الجبل المؤدي إلى عالم الأرواح.

على تخوم الأرض البشرية، في السهل الذي يمكن أن تغمره مياه النيل، ينتصب معبد جنائزي بأدراجه وشرفاته، بينما تغوص قاعاته السرية الغامضة في ظلمة شاطىء الأموات. هذا المعبد الجنائزي ذو التصميم المنضد المتميز، والذي تحيط به الأشجار، يتحدى الزمن بصالاته المنظمة عند مدخل بلاد الأموات، على مقربة من القبور الفرعونية الكبيرة المختبئة في وادي الملوك. فيه ترقد حتشبسوت المتمردة التي يثير قبرها هذا صدمة لدى الفرعون المتمسك بالتراث رغم رغبته بالتجديد،فهي الفرعونة الوحيدة في التاريخ التي تميزت في حياتها كما في مماتها بمعبدها الجريء هذا، الذي يُرى من كل الوادي، والذي سيصبح اسمه فيما بعد دير البحري. لقد اغتصبت هذه المرأة العرش، ولكن ليس من دون حق؛ فهي ابنة فرعون والوريثة الوحيدة من الجيل الأول. وقد قامت بأعمال كثيرة، ولكن وريثها وعدوها، قريبها توت موزيس الثالث Tout Mosis III قام بمحي كل أثر لتلك التي أبعدته مدة طويلة عن العرش المخصص للذكور، ولم يبق من آثارها سوى هيكلاً حجرياً ومعبداً جُرد من وظيفته الأساسية التي تتمثل بتمجيد ذكرى ملكة اتسم عهدها بالأمن والترف.

ولكن النموذج الهندسي الذي أثار إعجاب الفرعون هو قبر رمسيس الثاني المختلف تماماً عن دير البحري... منذ بداية حكمه ورمسيس معجب بهذا النوع من الهندسة، واستقراره في طيبة أعطاه مجالاً لتأمل «قصر ملايين السنين» والتفكير بنموذج مماثل.

لم تكن قصور ملايين السنين وليدة أفكار رمسيس الثاني المعظّم، فقبل قرنين من الزمن كانت كل السلالة الثامنة عشر قد أظهرت ولعاً بهذه القصور المخصصة لحياة الحاكم الدنيوية، والتي تحيطها مجموعة دينية لتكريم الملك بعد مماته. وهكذا تتوحد المسيرة التي يجب أن يتمها الحاكم في مجموعة واحدة ذات أبعاد كبيرة في غالب الأحيان، ويخلد الملك بعد الحياة وسط ذكرياته ومظاهر عزته. لقد أدهش الرماسوم Ramasseum الذي بناه رمسيس الثاني معاصريه، ولا تزال آثار المعبد تثير الإعجاب رغم التلف الذي لحق بها... وقد قرر رمسيس تقليد هذا النموذج التراثي مراعاة لكبار حكام طيبة الذين يمثلون ذروة القوة المصرية، وبالأخص رمسيس الثاني العظيم.

اليوم تبدو القرابة بين الحاكمين المتوفيين واضحة بالنسبة للمسافر الذي يتأمل الأثرين بتمهل وهو يقطع الطريق الصغير المختبأ بين حقول قصب السكر، هذه الحقول الخضراء التي تبدو كالمعجزة في هذه الصحراء القاحلة التي تحرقها أشعة الشمس. كان الموقع الذي اختاره رمسيس الثالث لبناء مدينة حابو Medinet - Habou قريباً جداً من الرماسوم Ramasseum ؛ واليوم، وبعد مرور آلاف السنين، يخبرنا هذين القصرين، قصري ملايين السنين، أو بالأحرى الآثار التي بقيت منهما كم كان تاريخ مصر متواصلاً كخيط لم ينقطع، نسيجه مؤلف من الإعجاب والكره، من بر الأبناء بآباء رفعوا إلى مرتبة الآلهة وتمتعوا بالكثير من الاحترام والتعظيم.

لقد قرر رمسيس منذ بداية حكمه أن يجعل من قصر ملايين السنين هذا بؤرة لسلالته، فأبيه سيتنخت كان دائماً يقطن في قصور الملوك الأخيرين؛ ذلك أنه لم يكن سوى أحد أصحاب المقامات الذي أصبح فرعوناً فيما بعد لوقت قصير جداً لم يتسنى له خلاله أن يترك أثراً يشهد عليه. أما رمسيس، فسوف يحظى ببناء مؤلف من مجموعة واسعة للحياة الخاصة والدينية، يستطيع الشعب فيه تقديم التحية له أثناء الاحتفالات بالأعياد التي تحدد شهور السنة. سوف تؤمّن هذه المجموعة الهندسية الترف اللازم لحياة البلاط حتى وإن كان رمسيس الثالث لا يشترك وسلفه الماجد الذي يحمل اسمه بالرغبة في حكم أسرته كما يحكم شعبه، وسط مئات الخليلات وعشرات الأمراء من أبنائه. فخلال حكمه الطويل الذي استمر ثلاثين عاماً، لم يختر رمسيس الثالث سوى ثلاث زوجات كانت إيزيس الملكة المتوجة بينهن دون منازع، وكانت مكانتها تلك دليلاً على

إخلاص الحاكم للبشر، كإخلاصه لذكريات التراث المصري. ومع ذلك كان الأمراء يولدون عاماً بعد عام ويحتلون أمهدة العائلة المالكة. وعندما انتهت الحروب مع شعوب البحر، كانت السلالة تحوي عدداً كافياً من الذكور يضمن انتقال الحكم بينهم ـ هذا دون الأخذ بعين الاعتبار عدد الأطفال الذين ولدوا من خليلات الحريم الملكي. كان رمسيس يتمنى العيش وسط عائلة ذات حجم معقول كأي رجل يتمتع بحياة جميلة بين أهله، وكان القصر يحوي حدائقاً مظللة يطلق فيها المرء العنان لخياله وأحلامه، وباحات واسعة للاحتفال بالأعياد الكبيرة، وصالات صغيرة للّقاءات الخاصة. كان كل شخص من العائلة المالكة، أي الزوجات والأمير البكر الذي أصبح الآن رجلاً، يتمتع بجناح خاص وحاشية؛ وكان ذلك يتطلب أبنية كبيرة ومتاهة من القاعات الواسعة. ولكن الحضارات الشرقية القديمة الكبرى لم تكن تبني أكثر من طابق واحد من الأسوار الآجرية، وكانت الجوائز الحاملة نادرة في الوديان النهرية الواقعة في قلب الصحراء، ويبدو أن طموح المهندسين في ذلك الزمان كان محدوداً، فالأسوار الحجرية العالية لا تخفي بساطة التقنية، والأبعاد المهيبة للأهرامات وأعمدة صالات الكرنك اعتمدت على تكديس مواد غير قابلة للضغط وعلى حسابات القوة الرافعة المتوزعة على الجدران المنظمة بمهارة.

لم يكن هذا الفيض البشري ليستطيع العيش دون مجموعة من الخدم والمشرفين تتناسب وحجم العائلة الملكية. فالنبلاء والنساخ وكل أنواع الخدم والعبيد يجب أن يعيشوا في ظل الأقوياء، في مساكن ضيقة وقريبة منهم للاستجابة لنداءاتهم. كان قصر ملايين السنين يحوي إجمالاً، وعلى الدوام، مئات الأشخاص، بل تقريباً الآلاف؛ وهو يحتل مساحات كبيرة مقتطعة من أراضي الوادي الصالحة للزراعة.

كانت هناك رغبة كبيرة في إعطاء هذا القصر أبعاداً خيالية، فعوامل الزمن قد أثرت على أسس البناء الضعيف في الجوار، وتشهد على ذلك أيضاً الأبنية الجنائزية الأخرى. وهذه المجموعة الهندسية هي بمثابة نموذج مصغر عن المملكة، بأماكن عباداتها وقصورها وسكانها الذين يقومون بمعظم المهن في المجتمع آنذاك. وهكذا لا يتوافق هذا «القصر» مع المعنى الغربي للكلمة نفسها، الملوثة في نظر الغربيين بفظاظة قروسطية وحربية.

* * *

كان تنفيذ مشروع قصر ملايين السنين الباذخ وتحويله من حلم إلى واقع يحتاج إلى جهد جبار؛ فهو يستحق اسمه إذ أنه صُمم وبُني بحيث يصمد لآلاف السنين ويشهد على عظمة رجل وصل إلى مرتبة الآلهة!.

سنين عديدة ستمضي في العمل على بناء هذا القصر وسيتم خلالها استبدال أكثر من خمسين ألف عامل في الورشات المرهقة والخطرة. لن يكون إنجاز رمسيس الثالث هذا أقل من الأعمال الهرقلية التي أنجزت على هضبة الجيزة قبل أكثر من ألف عام من توليه الحكم، أي الأهرامات والمعابد الملحقة بها. وقد أفاد الحاكم الرمسيسي من تشييد مبناه في مكان منبسط وقريب من النيل ولا يبعد عن المصادر الغنية بالحجارة، فهو بذلك خفف من الصعوبات الكبيرة في نقلها. وتتم عملية النقل هذه بواسطة طبقات خشبية دائرية الشكل تُحمّل عليها الكتل الحجرية دون صعوبة وتُنزّل في المرفأ المعد لاستقبالها على أطراف النيل، حيث يتم تسييرها فيما بعد نحو الغرب.

لم تكن منطقة طيبة تزود الورشات بكل الأحجار اللازمة، وإن كان هناك الكثير من المقالع الحجرية المحيطة بأطراف الوادي، فهذه الحجارة لم تكن من النوع الذي يعجب الفرعون، على العكس من أحجار الغرانيت التي تُستحضر من الحدود النوبية وتُرسل بعثات كاملة من عمال المقالع لجلبها من الطرف الآخر من البلاد.

اكتسب حرفيي فرعون خبرة جيدة في ظل الإمبراطورية الجديدة، وتشهد على ذلك مباني الجوار؛ ولكن التقنيات لم تتغير منذ عدة قرون، حيث بقيت القوة البشرية هي الأساس لتحريك الأوزان الثقيلة ومهارة العمال الجوهر الذي يعتمد عليه العمل. كان نساخ دور الحياة يعرفون الحساب جيداً ويطبقونه على الأبعاد الكبيرة، ولا تحتاج مبانيهم إلى برهان عن متانتها، فهي جديرة بأن تكون أساساً مناسباً يمارس عليه الحرفيون مواهبهم العظيمة.

وهكذا أصبح الطريق المؤدي إلى النيل بمثابة ممر لموكب متواصل من الجوائز والكتل الحجرية والأعمدة والمواد الأولية المتنوعة، المكدسة على عربات تجرها ثيران هادئة. كان كل ناسخ مكلف بمهمة خاصة، وكان النساخ جميعهم يعملون تحت إمرة أصحاب المقامات ويشرفون على الأعمال ويدونون أصغر الحوادث بأدق التفاصيل. لم يكن الأعيان يثقون بالفلاحين الذين يتم استدعائهم في فصل الشتاء لمساعدة العبيد القلائل المستخدمين على الدوام، فهم رغم عملهم الجدي وتذمرهم من هذه المهمة المرهقة قليلو الخبرة في مجال البناء، ولم يكن بناء بيوتهم الآجرية الصغيرة كافياً لتهيئتهم لبناء أسوار يصل طولها إلى مئات الأذرع وسماكتها إلى عدة أمتار، وتحيط بنطاق يتجاوز الثلاثمائة متر أحياناً ويصل ارتفاعها إلى طول ثلاثة رجال.

وتمضي الأيام، وترتفع الجدران الآجرية شيئاً فشيئاً مشكلة متاهة ضخمة مغطاة

بالجوائز المنتزعة من الآجام الصغيرة في الوادي، أو المستوردة من الجبال الفينيقية. منذ زمن وغابات الأرز في الجبال البعيدة تزود المباني الملكية بالأخشاب التي يقدرها المصريون لجذوعها الطويلة المستقيمة، النادرة في واحتهم الواسعة. أما الآجر، فقد كان يُجفف في قوالب ضخمة أعدت في الجوار خصيصاً لهذا الغرض. ولم يكن الطين ينقص المشرفين على العمل، ولكنهم كانوا بحاجة إلى الكثير من الأيدي الخبيرة لتحويل هذه المادة القديمة قدم الحضر إلى جدار أملس ومستقيم لا تتخلله الثغرات.

قريباً سيُستخدم طلاء يخفي آثار خشونة هذه المادة، وستستقبل الصالات الباردة التي بالكاد يدخلها الضوء حرفيي البلاد والريش في أيديهم وأوعية الألوان على ظهورهم، ليرسموا المشاهد التي سجلها نساخ فرعون بدقة بالغة. ستحتل المشاهد الريفية المكان الأكبر، فالمصريون يحبون العيش في الطبيعة، وهو أمر طبيعي بالنسبة لأبناء الواحة هؤلاء، الذين تضيق عليهم الصحراء المحيطة بهم. كان رمسيس يتمنى الظهور في مشاهد العظمة وسط موكب من المهزومين.

لم يطرأ الكثير من التغيرات على الفن المصري الذي وُضعت قواعده في عصر الإمبراطورية القديمة، فالأشكال الجامدة المتحفظة التي تركها فنانو الأهرامات على جدران المعابد والمصاطب كانت مرجعاً بالنسبة للفنانين المصريين على مر العصور الفرعونية. ولكن الرسوم الجدارية في عهد رمسيس الثالث كانت متنوعة ومليئة بالحركة، وهي تمثل العصر الذهبي الأخير في هذه الحضارة. وقد ترك رمسيس الثالث، كسلفه الماجد الذي يحمل نفس الاسم، أيقونات تعتبر من أهم ما خلفه التاريخ الفرعوني؛ وهي خاتمة الإبداع قبل الانحطاط النهائي الذي سيتم بعد عدة قرون، حيث ستصبح الأشكال فجة وجامدة لا حياة فيها.. كان ابن سيتنخت يعلم بأنه الفرعون الأخير القادر على أن ينهض ببلاده من انحطاط بدأ منذ زمن بعيد؛ وتظهر الرسوم الجدارية الجميلة في المعابد رغبتة في الحفاظ على عظمة الوادي براقة، في الزمن الذي يبدو فيه المستقبل أكثر غموضاً من أي وقت مضى.

تجاور الصالات الفاخرة في القصر الأجنحة والغرف الصغيرة المطلة على الحدائق، وعند حدود المناطق المخصصة للمحيط الملكي تضيع الممرات.. ويقطن النساخ والخدم في المكان الواقع بين المعبد والقصر. كانت مساحة المخازن كبيرة إلى درجة تكفي لتموين هذه المدينة المنعزلة؛ بذلك يعطي المجموع انطباعاً بالثراء والتنوع، بفضل الأبعاد الإنسانية التي تم المحافظة عليها؛ ففن الحياة عند الحكام كلمة غير عبثية.

كان القصر شيئاً ومعبد مدينة حابو Medinet - Habou الجنائزي شيئاً آخر؛ ولكن قصر ملايين السنين يضم الاثنين، فالمعبد لا يشكل ملحقاً مخصصاً للصلوات الملكية. كان عرضه يتجاوز ١٥٠ متر، وهناك أكثر من مئتي متر يفصلون الباحات الكبرى عن مداخل الصالات السرية في جوف المبنى. هنا يكسو عالم البناء أشكال مختلفة ويحدد التراث تنظيم القاعات بدقة. ويبقى الحجر العنصر الأساسي، حيث يتم أولاً اختيار الكتل الحجرية من المقالع المنتشرة في أطراف الوادي، ثم يتم تحطيمها بواسطة أوتاد خشبية مبللة بالماء...

كانت المطارق الحجرية هي الأداة الوحيدة التي يملكها الحجّارون، وكانت عملية الصقل تتطلب جهوداً جبارة تجعل العمل مرهقاً ولا سيما في فصل الصيف. وبعد إعداد الحجارة بقليل من الإتقان، تبدأ رحلتها البطيئة جداً في النيل حتى تصل إلى موقع القصر الملكي، حيث يستعملها حرفيي فرعون بعد التأكد من عدم وجود عيوب بها تحكم عليها بالبقاء إلى جانب الطريق. ثم تأخذ الحجارة الجيدة مكانها في ورشات المعبد وتعلو شيئاً فشيئاً لتصبح بمستوى السور المبني. لم يكن المصريون يعرفون نظام البكرات الروماني المعقد، الذي تُحمل بواسطته الأحجار في الهواء ويخفف بذلك الحمل؛ ولكن الرومانيون لم يستخدموا الكتل الحجرية الضخمة، ولم تبدد الحضارة اليونانية ـ الرومانية قواها لتشييد مبان تتجاوز الحجم البشري بإفراط. وعندما سيفكر الرومان ببناء مبان كبيرة، كالبازليك الإمبراطوري مثلاً الذي ولد بعد ألف عام من تشييد مدينة حابو Medinet - Habou، سوف يخلطون الإسمنت بالرمال ويحلون بذلك المشكلة التي يواجهها المصريون وبنفقات أقل.

من المؤكد أن أبعاد الأسوار وصالات المعبد الجنائزي لم تبلغ أبعاد معبد الكرنك، حتى وإن كان هناك العديد من الصالات المخصصة للإله الوصي آمون، شريك الفرعون.. ومع ذلك كان مجموع المباني مهيباً بما يكفي لتظل بحالة جيدة على مر القرون وحتى عصرنا هذا! فمتانة البناء هي الضمان لخلود الحاكم، وهذا المبنى هو المكان الذي ستقام له فيه الشعائر الجنائزية بعد الموت. لقد أجبرت المعارك الكبرى المهزومين في بداية الحكم على المساهمة في هذا العمل الحجري، وقد هلك الكثير من مقاتلي شعوب البحر تحت الكتل الحجرية المتأرجحة أو الإنهاك الشديد، أو تحت ضربات الحرس الذين كانوا يسارعون لاستخدام السوط مع يد عاملة أرهق القيظ قواها. لقد خسر هناك أفضل رجال الشاردان Shardanes والدانونا Danouana حياتهم؛ أما إخوتهم الأكثر حذراً فقد استسلموا دون قتال وقضوا أياماً هادئة في أراضٍ دلتاوية منحهم إياها الفرعون الشهم! لقد ساهم المعبد في إتمام النصر الحربي باستهلاكه لآخر قوى الغزاة الحية، وسوف يذكر هؤلاء

الغزاة مرورهم بالسواحل المصرية مرة أخرى، ورغماً عنهم، من خلال النقوشات التي تروي الانتصارات الملكية! فالأعمدة والجدران كانت بمثابة كتاب ضخم مصور يروي أمجاد رمسيس الثالث الحريص على الخلود؛ وستكون مدينة حابو Medinet - Habou عنصراً أساسياً لمعرفة عهد ابن سيتنخت.

سيبقى الموقع المختار مليئاً بالجوائز الصغيرة لسنين عديدة، ثم ستظهر الأعمدة والبوابات الضخمة وصالات المعابد شيئاً فشيئاً، وستتخلص الباحات من كل أثر للتراب بعد أن تحيط بها أعمدة مهيبة، تمتد تيجانها ذات تويجات زهرة اللوتس أو البردي نحو السماء الصافية.

هل ستبقى هذه الثروات المكدسة دون حماية؟ فزمن الاضطرابات لم ينته منذ وقت طويل، ولا تزال ذكراه راسخة ومؤلمة؛ والحاكم لم ينس بعد خطر الغزوات والتمرد الداخلي! لن يُترك قصر ملايين السنين عرضة للأطماع، بل سيختبىء وراء أسوار عالية وضخمة ككل المعابد والقصور في مصر. يجب ألا تُهمل الناحية الدفاعية في المباني المخصصة للسلطة الفرعونية أو الإلهية، فالحرب دائمة الحضور حتى في واد هادىء كوادي النيل، ولا يمكن تعريض صناديق الأحجار الكريمة والعطايا المهداة للآلهة والأعيان القاطنين في هذه الأماكن للسرقة والأخطار. ومن جهة أخرى هناك فروق كبيرة في الطبيعة البشرية بين بعض أبناء الوادي والبعض الآخر، فأبناء الشعب لا يُسمح لهم بالاقتراب من أولئك الذين اصطفتهم الآلهة، كالكهنة أو الأمراء المحاطين بهالة من القوة شبه دينية. ربما كانت جزيرة الكريت الميسينية المكان لوحيد الذي تم فيه بناء قصور جميلة شبيهة بالمتاهات ـ وكأن أسطورة المينوتور لم تكن وليدة الصدفة ـ دون الاهتمام بحمايتها... كان ذلك قبل عدة قرون من ولادة رمسيس الثالث. كانت الجزيرة صغيرة وأبناء الكريت بحارة جيدون لا يخشون القراصنة القريبين من شواطئهم. والجميع يعلم إلى ما آل مصير هذه الأبنية الجميلة عندما وضع اليونانيون الأوائل، من الأصل الهندي ـ الأوروبي، أقدامهم على جزيرة الملك مينوس وسيوفهم في أيديهم.

كانت الأمور في مصر مختلفة، فالفرعون يحكم بلاداً واسعة تنبىء أسوارها العالية بأن الثورة ستكون مخاطرة كبيرة! وكذلك تنتصب بوابات المعابد الضخمة والمهيبة أمام المدخل المخصص للكهنة لترد الغزاة. أما الأسوار العسكرية لمدينة حابو Medinet - Habou فقد كانت مزودة بشرفات دفاعية كافية لتثبيط عزيمة المهاجمين. ولكن في زمن الهدوء هذا، الذي اطمئن فيه الوادي بعد انتصارات فرعونه على شعوب البحر، تشكل هذه الأسوار تأكيداً على أمجاد الحاكم أكثر من تطبيق لخطط دفاعية حقيقية... ولكن ذلك لا

يمنعها من فرض هيبتها ولا سيما أن هناك سوراً آخر يحيط بالقصر والمعبد. ولكن هذه الأسوار المزدوجة تثير الشكوك، فالتراث لم يكن يتطلب مثل هذه التدبيرات العسكرية، ورمسيس الثالث الذي أصبح في خريف العمر لم يتوقف عن استكمال اللوازم العسكرية. لقد أراد الملك التعبير بواسطة محيطه المادي عن الأخطار التي هددت عمله خلال السنوات الأخيرة من حكمه؛ ومدينة حابو Medinet - Habou هي الشاهد على هذا الحكم الذي بدأ صعباً وانتهى بالقلق أمام تصدعات الزمن وخيانة البشر. كانت الأسوار الآجرية تجسيداً للتكهنات الصائبة... وسيكون قصر ملايين السنين الباذخ هذا شاهداً على الشيخوخة المأساوية لمنقذ الإمبراطورية الفرعونية.

قد يتساءل الزائر عن الوضع السياسي للمملكة، وقد يزداد اضطرابه عند اكتشاف نظام المدخل الدفاعي، حيث يوجد برج مسنن متصل بمجموعة دفاعية معقدة مبنية حول البوابة الكبيرة. ربما أثار هذا البرج الخالي من الزخارف، والذي يسمى الميكدول، حيرة المصريين في الأزمان القديمة؛ فهو لا ينتمي إلى حضارة النيل، ولم تشهد الإمبراطوريات المصرية مثله في العصور الغابرة؛ فالنموذج مستورد من سوريا حيث بلغ فن القلاع أعلى مستوى له، ولا غرابة في الأمر، فالتاريخ الصاخب لهذه المنطقة المفتوحة أمام رياح الغزو الآسيوية والإفريقية وأمام التيارات التجارية الكبرى يفسر ضرورة حماية المدن المزدهرة وتجارها. لم يتنكر رمسيس الثالث لتراث الرماسيس الانفتاحي، فهو قد جعل استخدام هذا العنصر الغريب رسمياً في طيبة، البعيدة عن الدلتا، ليشهد على الأزمنة الحربية المجهولة فيما مضى.

على العكس من ذلك، كان الجزء الداخلي من المعبد ينتمي في تصميمه للتراث المصري، فالباحات الكبرى في مدينة حابو Medinet - Habou تستطيع استقبال الجموع وراء الأسوار الحامية؛ وهو أمر ضروري إذ أن شعب طيبة كان يُدعى مرتين أو ثلاث في العام لحضور الحفلات الدينية التي تقام على شرف الآلهة التي تحمي فرعون، أي آمون أو مين Min. وأحياناً أيضاً كانت تقام الحفلات بمناسبة الانتصارات عند العودة من حملة عسكرية، فيتوجب عندئذ خروج الفرعون إلى شرفة قصره المطلة على باحة المعبد لإتاحة الفرصة لشعبه لرؤيته والإعجاب به.

كان على الشعب أن يقدر هذا التكريم العظيم، فهو هنا يلج إلى مدخل الآلهة. ولكن فيما وراء هذه الباحة الأولى، هناك المعبد الذي يغلق أبوابه في وجه المزعجين ولا يفتحها إلا للكهنة والعائلة المالكة، التي يرافقها بعض أصحاب الامتيازات في المناسبات الدينية. هؤلاء فقط يستطيعون رؤية البوابات الضخمة المهيبة والقاتمة وأعمدتها المزينة

بالأعلام والتي تشكل مدخلاً إلى الصالات المليئة بتماثيل ذات تقاطع بشرية. هنا يدخل الإنسان الفاني إلى منزل الفرعون المؤله، الذي تسكنه روح الالهة. كان اسم رمسيس الثالث منتشراً في كل مكان، مسجلاً داخل أطر مزخرفة مرسومة على الجدران. وكانت النصوص التي تروي أمجاده تملأ الواجهات المتعددة الألوان، فيتكشف وجهه بشكل منمنم من خلال تقاطيع التماثيل وتعابيرها المتكبرة. ويظهر الفرعون كذلك في اللوحات الجدارية والنقوشات التي تكرر وتكرر صورته العملاقة. وتروي المدائح عظمة الحاكم بكلمات شاعرية وحماسية، وتصور مدفات الأعمدة ساعات المجد، فترينا الآلهة وهي تساعد أبناءها، وشعوب البحر قد استولى عليها الخوف وهي تنتظر الموت! فبيده المسلحة بالسيف الطويل المنحني، كان فرعون يحصد الأموات.

تؤدي الباحات إلى صالات المعبد السرية والمعتمة، المزدحمة بالأعمدة الثقيلة وكأنها غابة حجرية. في هذه الصالات يندر التواجد البشري حتى بالنسبة للكهنة أنفسهم؛ فوجود الآلهة يفرض تحفظاً ضروري للنجاة. هنا توضع قوارب الطواف التي تحمل أسياد الكون آمون والآلهة الأخرى، في انتظار مجيء الرجال لتكريمها وإخراجها إلى النور بحرص بالغ. كان رمسيس يتمتع بحق تأمل هذه الأماكن المحرمة كما يشاء؛ فالحميمية التي بينه وبين الآلهة مسلم بها، وهو يتحول هنا إلى إله بشري.

* * *

أضحى قصر ملايين السنين الملجأ الأمين للفرعون المُلزم بإعادة تنظيم البلاد بعد أن خرّبتها سنوات الانحطاط الأخيرة. عند رؤية الأسوار المهيبة وجمهرة الحرس الساهرة عند المدخل الكبير، يشعر الجميع بأن السلام قد عاد إلى الوادي؛ فرماة السهام والنوبيون الضخام الجثة المسلحين بهراوات، بل حتى مفرزة من الشاردانيين Shardanes ، كانوا يقضون أيامهم في حماية سيد الأرضين من كل تطفل معاد. لقد سار الفرعون على خطى الرماسيس الذين كانوا يستفيدون من الأسرى الشجعان بضم أفضلهم إلى المرافقة الملكية؛ فهؤلاء المهزومين المقتلعين من جذورهم، دون وطن ودون ملك، كانوا مهيأين تماماً لخدمة قاهرهم الكريم على أفضل نحو، ولا سيما أن إخوتهم الذين قُدّموا كعبيد إلى إدارة فرعون أو إلى الآلهة عانوا الموت ألف مرة عند بناء المعبد والقصر، بينما يتبخترون هم وراء دروعهم الدائرية الشكل، كأجانب ذوي بشرة بيضاء وسط أبناء النيل السمر، واثقين من سمعتهم كمقاتلين شرسين.

لم يكن النساخ يعيرون توزيع القوى المثير للإعجاب هذا أي اهتمام، رغم أن قصر

ملايين السنين هو نوعاً ما قصرهم أيضاً؛ أما الفرعون المتغطرس فيما يخص أمور السلطة الملكية بالذات، فلم يكن يخفى عليه شيء. كان يحب رؤية خدمه في كثير من الأحيان، ويبدل إدارته بين الحين والآخر ويستعلم عن شؤون المحافظات البعيدة. كان يستقبل كل أصحاب المقامات وفق بروتوكول صارم، وكذلك يستقبل مواكب السفراء التي تتوافد إليه من بلادها بعد أن تجتاز النيل. وكانت مكاتب الإدارة الفرعونية دائمة النشاط والحركة، حيث يَقدِمُ إليها الرسل وأصحاب الحاجات والأعيان ويقابلون النساخ، أعين وأيدي الفرعون الذين يعملون في هذه الغرف المظلمة. عليهم يقع عاتق ملء البرديات بالبرقيات العاجلة واستدعاء قادة الجيش وحكام المحافظات المتعطشين للثراء السريع على حساب مصالح الملك، بل حتى على حساب المصلحة العامة.

كانت هذه الغرف شبيهة بخلايا ضوضائية دائمة النشاط والحيوية، على عكس صالات المعبد المظلمة والباردة، القابعة في هدوء يلاءم الآلهة. لكن هذا القصر الملكي لم يكن مجرد مكان للعمل، فوراء الأبواب المصنوعة من خشب الأرز، ووراء الصالات الفاخرة، تنبعث أصوات القيثارة من غرف صغيرة وتصدح زقزقة العصافير الغريبة وضحكات الأطفال لتقدم لنا جانباً آخر من حياة الحاكم!.

مدينة حابو Medinet - Habou هي أيضاً مكان مميز تتحقق فيه سعادة رجل؛ ولا تزال جدران القصر وبعض المنشآت الأخرى تحتفظ بآثار مزخرفة تطلعنا على حياة البلاط في ذاك العصر، يظهر فيها رمسيس ـ أحد أقوى حكام الأرض آنذاك ـ محاطاً بالخليلات والخادمات ومتناسياً همومه المادية. كانت سنوات شباب رمسيس التي قضاها بين العوام قد طبعته ببساطة ستبقى جانباً خاصاً من جوانب حياته الملكية؛ فالبذخ لم يمح الجانب الطبيعي لديه، حتى وإن كان الملك يحلم بتحقيق إنجاز يتجاوز الإمكانيات الحقيقية لفرعون في نهاية الإمبراطورية الجديدة.

كيف لنا أن نصدق أن الانحطاط هو قدر المملكة الأزلي عندما نرى زوجات الملك وخليلاته يحطن به بأثوابهن الحريرية الطويلة وضفائرهن السوداء ووجوههن المطلية بالمساحيق؟ كانت تصفيفات شعورهن تشكل تيجاناً على رؤوسهن، تيجاناً تتخللها الأزهار... هذه العناية، بل الإفراط في الاهتمام بباقة أزهار في تصفيفة شعر أميرية لن تلبث أن تذوي، يدل على أن هذه الحضارة قد بلغت الأوج في هذا القرن الثاني عشر قبل الميلاد. وقد وصل الحرفيون الملكيون ومختلف أصحاب المهن التي استأثر بها البذخ الملكي إلى مستوى عال من الجودة لم يبلغه أحد منذ فجر الإنسانية. كانت عصور الانحطاط على مر التاريخ شبيهة بنهايات مؤلمة تتخللها ثغرات مليئة بالأمل، توحي للمؤرخين بالتفكك

وتحدسهم بالموت؛ ولكن، وفي معظم الأحيان، تكون هذه العصور عصور تفتح فن فرح لا مثيل له، وكأن الحياة تعطي المزيد من الحماس والاندفاع لآخر أعياد الإنسانية الجميلة. فلم تكن الفلسفة يوماً في روما وأثينا أفضل مما كانت عليه عند انحطاط قوتيهما السياسيتين.

استطاع حرفيو رمسيس الثالث التخلص في أعمالهم من أثر فن الإمبراطورية القديمة الهادىء والمتحفظ، رغم كمال هذا الفن في الأشكال والنماذج التي تركها الرسامون على جدران المصاطب وحفروها على أسوار المعابد. لقد تميزت مصر منذ الأزل عن باقي الحضارات الكبرى بوحدة المكان والبنى السياسية والاجتماعية، ولكن أيضاً بهذا الاستمرار المدهش لقوانينها الفنية.

لم تستسلم إيزيس الجميلة والعاقلة يوماً في معركة الدهاء التي وضعتها في مواجهة منافساتها على قلب الملك، ولا تزال هذه الملكة محتفظة بجمالها؛ وهي تملك أجمل الحلي والتيجان المرصعة بالأحجار الكريمة البراقة، وأغطية للرأس من الذهب الخالص لها شكل النسر. كانت تأخذ ما تشاء من كنوز الصاغة الذين يشكلون الحلقة الأخيرة من سلسلة الحرفيين العاملين في هضاب الصحراء الخانقة، حيث يحفر هؤلاء التعساء الصخور من أجل بعض اللازورد... لو كانت هذه الملكة تسمح لنفسها بالاختلاط بالراقصات الصغيرات المتهتكات اللواتي يتلوين على دقات الصنوج تحت أعين البلاط، لاستطاعت انتزاع صرخات إعجاب حقيقي. صحيح أنها لم تعد صبية، ولكن منافساتها أيضاً قد كبرن وبدأت التجاعيد تظهر على بشراتهن الجميلة، وكان ذلك يعزيها.

لقد تجاوزت الأربعين ولحق الكثير من أقاربها بالآلهة في بلاد يالو Ialou ، وبإمكانها أن تفخر بأنها قضت أكثر من نصف عمرها إلى جانب سيدها!.

ولكن القلق لم يغادرها بشأن المستقبل، فمكانتها المميزة هذه لم تحصل عليها إلا بعد نضال عنيف لا زالت تعيشه كل يوم. هل هو خوف امرأة تتقدم في السن في عصر لا يحيا فيه الشيوخ، أم هو القلق من رؤية قواها تخور قبل اللحظة القدرية ومنافساتها ينتصرن عليها - وهي العالمة بمكر مكائد الحريم؟ من بين عدواتها تبقى تيي الأكثر خطراً، فهذه الأخيرة استطاعت أن تحتل مكاناً كبيراً في قلب الحاكم ولم تقبل يوماً بمرتبتها الثانية. ألم تنجب هي الأخرى طفلاً لسيدها وأسمته بنطعور Pentaour ؟ لم تكن شرعية إيزيس تثير لديها أي اهتمام، كما أنها عقدت صداقات مصالح في الحريم وفي محيط فرعون. كانت إيزيس تعلم أن موت الفرعون المبكر سيجعلها عرضة للمؤامرات، وربما للموت؛ ولكن يجب ألا تخطر هذه الأفكار السوداء ببالها الآن، فرمسيس لا يزال يحكم نساءه كسيد سمح، وهموم شؤون المملكة لا تتجاوز باب الحريم.

ومع ذلك لم تكن الأجواء بهذا الصفاء، فإسداء أي خدمة لإحداهن يفجّر نزاعات غير متوقعة في عالم صغير يشكل أصغر تمييز فخري فيه كسب لجزء من السلطة، وربما السيطرة فيما بعد على الملايين من الناس.

كانت المزاحمات بين زوجات الملك أمر يخص أصحاب المقامات أيضاً، فهؤلاء يحظون أحياناً بامتيازات بسبب ولائهم لإحداهن، فالحصول على لقب رسول آمون الأول ـ وهو لقب يُحسد عليه صاحبه ـ أو لقب حاكم لإحدى الأقاليم الجميلة ككوبتوس Coptos أو ممفيس مثلاً، يستدعي أحياناً تدخل إحدى زوجات الملك المدللات، حيث يبدو لنا من مشاهد الحريم أن رمسيس الثالث كان يحب الاستماع إلى جميلاته. كن يستفدن من ذلك دون أدنى شك، وهذه الصراعات الداخلية ستغذي مرارة الحكم في نهايته، وسوف تؤثر نهايتها المأساوية على مصير حضارة بأكملها حتى بعد موت الحاكم التعس.

بعد استقرار العائلة المالكة في مدينة حابو Medinet - Habou بدأ الكثيرون بزرع الشقاق بين أفرادها؛ ولكن الفرعون الذي يعيش فوق مستوى البشر بعيد عما يجري، وانتصاراته على شعوب البحر جعلته يترفع عن هذه الصغائر. ومع ذلك، كان لا بد من أن تثير الحياة اليومية في مدينة حابو Medinet - Habou انتباهه إلى هشاشة هذه المجموعة الصغيرة، ذات الطموح الكبير، الغارقة في عزلة البذخ الملكي. لم يلغ الانتقال من بي - رمسيس Pi - Ramses إلى طيبة روابط السياسة والقرابة بين العائلات الرمسيسية؛ فهذه الروابط نُسجت بمتانة على مر أجيال كان الأعيان فيها لاهثين وراء الامتيازات التي تشكل السبيل الوحيد للثراء ولدوام المرتبة الاجتماعية لهم ولأحفادهم. كانت أحوالهم تزدهر بفضل الحاكم، فحمايته تطال كل شيء حتى بعد خلوده في القبر، هذا الخلود الذي يحصل عليه بإنفاق الذهب لتحضير المومياء وتهيئة القبر والإشراف على ملحقاته، وكذلك بدفع أجرة الكهنة المكلفين بالقيام بالشعائر الجنائزية. كانت الأقلية الصغيرة المؤلفة من الكهنة وكبار النساخ ـ وهم جميعاً أقارب ـ تصر على إظهار تعلقها بالفرعون إلى درجة خنقه بوجودها الدائم عنده، وأي تنكر لشخص منهم أو تشريف لمزاحم ما يسيء إلى مستقبل العشيرة ويرمي بها في حزب المتمردين... كان فرعون يجد في ذلك خطراً على سيطرته العظيمة على البشر، وعليه إذاً أن يتخذ جانب الحذر؛ صحيح أن هذه المخلوقات لا تستطيع فعل شيء لوحدها، ولكن ماذا لو رشاها أحد الأقوياء..؟.

هل ستحمي أسوار القصر والمعبد الفرعون الذي أضحى حذراً من هذا الخطر الغادر والمهدد؟ هل عليه أن يخشى السم أم الخنجر؟ لن يحل شيء بهذا المحارب وهو في سن

النضج والقوة، ولكن من يضمن له شيخوخته؟ فعندما تخور قواه قد لا يستطيع إيقاف صعود عشيرة ما وإيقاف خطر التقسيمات والحرب الأهلية التي ستنتج عن ذلك، وعندها ستفقد مصر كل أمل بعد أن عادت ووقفت على قدميها، وسيصبح الوادي الموحد منذ ثلاثة آلاف عام عرضة للعنف والجشع والفوضى، وسيتحطم الانسجام الضروري لتوهج هذه الحضارة الفريدة والهشة على أطراف نهرها المروض!.

لا بد أن هذا الكابوس كان يطارد ملك الأرضين في أحلامه، ولكن لحسن الحظ كانت الأفكار الجميلة تعود إليه عند اليقظة، ووجود أبنائه حوله بصحة جيدة أمر يطمئنه على مستقبل البلاد؛ فهؤلاء الأبناء هم بمثابة الترياق ضد السم القاتل الذي يبثه الحريم الملكي نفسه، هذا الحريم الذي أُوجد في البلاط الملكي منذ ليل الأزمان الغابرة، والذي يضمن خلود الدم المقدس رغم مفاجآت الحياة وصفعاتها. ولكن تعدد الزوجات في سلالة ما هو سبب أيضاً في معاناة أبنائها، ولا سيما لحظة حلول جيل مكان جيل؛ فعندها تتفجر المشاعر التي أخفاها الأخوة غير الأشقاء لسنوات طويلة وتتحول إلى عنف رهيب يقضي فيه خنجر قاتل على حق البكورية! لم يشأ رمسيس التفكير بهذه الأمور الوحشية وهو ينظر إلى أبنائه يترأسون عربات النخبة ويتباهون إلى جانبه أمام الجموع، ولم يكن رمسيس، الابن البكر لإيزيس، الذي سيصبح اسمه في المستقبل رمسيس الرابع، لم يكن يوماً غير جدير بالمهمات التي أوكله بها فرعون. لقد اقترب عمره الآن من الثلاثين وأصبح رجلاً ناضجاً يعرف كيف يستخدم السيف ويقود عربة الحرب. كان نشاطه المفعم يسعد رمسيس الثالث الذي أصبح جداً لطفل يدعى رمسيس كذلك ويمتلك كل صفات الشجاعة الرمسيسية. لم يكن الأبناء الآخرين لرمسيس الثالث وإيزيس أكبر منه سناً، فقد أنجبت إيزيس الكثير من الأمراء والأميرات، وتحمل إحدى بناتها اسم جدتها حبادجيلات.

كان الأمراء من أبناء الملك يشكلون عشيرة جميلة لا تزال القبور المحفورة في جدران وادي الملكات القاحل تحتفظ بآثارها، ولكن لا أحد يستطيع إنكار مكانة رمسيس الرابع الذي يعتبر من كبار ضباط أبيه، والذي أصبح قائداً لعربات الحرب في سن مبكرة.

لم يكن بمقدور تيي أن تغذي طموحها لو لم تنجب طفلاً، فابنها بنطعور Pentaour ولد في نفس الوقت تقريباً الذي ولد فيه أخيه البكر رمسيس الرابع، وقد كبر الطفلان سوية دون صدام، إذ جرت العادة في زمن الفراعنة أن يعيش أبناء الملك كأبناء عشيرة وأن يُكرّم أخوة الحاكم تكريماً عظيماً. ولكن مكانة الكبير ظلت محفوظة لا جدال عليها، فقوانين الخلافة صارمة جداً، وقليلة هي الحالات التي تفسح المجال للصراع بين أبناء السلالات، إذا استثنينا الوصايات أو الحالات التي تكون الأميرة هي

الوريثة الوحيدة للعرش عند موت الفرعون الحاكم. ولكن بنطعور Pentaour وأمه سوف يشعران بأنهما هامشيان نوعاً ما بالنسبة للفرع البكر من العائلة المالكة، ولن يغير زواج بنطعور Pentaour من أخته حبادجيلات، ابنة إيزيس، من شعوره هذا.

هذا الزواج بين الأبناء الذين لا ينتمون إلى أم واحدة قد يرسخ وحدة البلاط، ولكن السنوات القادمة ستثبت العكس، فالهدوء الخادع في مدينة حابو Medinet - Habou يخفي وراءه أحقاداً، والعشائر تدبر مؤامراتها بالسر في انتظار موت الحاكم الذي بلغ حدود الشيخوخة وأصبح تقريباً في الخمسين من عمره. ولكن الكراهية الآن متخفية وراء الأقنعة، ورمسيس الثالث يثق برجاله المخلصين الذين تم تعيينهم في مناصبهم منذ زمن قصير، بعد انتصاراته الحربية. فبازر Paser ، عمدة العاصمة طيبة، وكثيرون غيره، لا يحلفون إلا باسمه، وهو يتمتع بشجاعة وموهبة في القيادة قل نظيرهما. بيد أن التوازن الهش الذي ولد بعد حرب التحرير جعله يتوهم الخلود وأنساه أن السلام والبطالة قد ينسفان سلطة الرجل أحياناً أكثر مما تفعل هزيمة جيشه. ولكن لا زال أمام الطموحين من أفراد العائلة المالكة والأعيان الطامعين بالثروات بضعة سنين بعد لدعم تأثيرهم على الفرعون.

الفصل الثامن

ابـن الآلـهـة

بعد أن عاد السلام ليرفرف في ربوع مصر كان لا بد من التوجه بالشكر إلى الآلهة: الشكر لإنقاذ رجل من خطر الغزوات، والشكر لإعادة الازدهار إلى شعب عانى من الاضطرابات لمدة نصف قرن.

لم يهمل أي فرعون يوماً دوره ككبير الكهنة، فنظرية نشأة الكون في بلاد النيل معقدة بسبب تعدد الآلهة وبسيطة في آن إذا نظرنا إلى جوهر الحياة الذي تجسده كل من هذه الآلهة في أساطيرها؛ ولكن العبادات والشعائر التي نتجت عنها لا تترك لسيد البلاد الـمُكلّف باحترام مختلف قوانينها مهلة للراحة، فهذا الاحترام هو شرط ضروري لحسن سير عناصر الحياة.

تربى رمسيس الثالث في جو يسوده ورع حقيقي، شأنه شأن كل الحكام الذين سبقوه؛ وكذلك الشعب المصري الذي لم ينحرف يوماً عن معتقداته الأساسية خلال أربعة آلاف سنة خلت. فعندما اقتحمت الآلهة الآسيوية معبد الأرباب ـ كعشتار وبعل وغيرها من الآلهة ـ لم تجد لها سوى مكاناً ثانوياً إلى جانب عشرات الآلهة الأخرى، التي تحرك كل منها قوة حيوية وتولد مختلف أشكال الحياة والرجال.

يا لها من آلة سحرية رائعة قادرة على تفسير قوى الحياة المأساوية الكامنة ونوائب الدهر في هذه الواحة المنبسطة في قلب الصحراء. إنها تفسر الأمور لأبناء النيل وتعطيهم الحلول أيضاً. والحل يكمن في التقوى التي لا تشوبها شائبة، في هدية تُقدم إلى الآلهة وفي طقوس تقام لها وفق قواعد وقوانين خاصة. أي بلد هذا الذي يفسح المجال للأحلام والشك الميتافيزيقي أكثر من هذا الوادي الذي تغذيه حياة انبثقت من لا مكان، من الصحراء؛ حياة انبثقت من بقعة مشبعة بالخضار ومحاطة بفراغ الجماد!

كان رمسيس يعرف الأساطير عن ظهر قلب ويعرف كل المعابد الكبرى. لم يكن يجهل شيئاً عن متطلبات كل إله، ولا عجب، فهو مثقف تغذى من علوم النساخ العجائز؛ ولن تُدهش من الاهتمام الخاص الذي سيوليه للعالم الإلهي ولأماكنه المصطفاة، ولن نستغرب كذلك من الإنجازات التي تمت في عهد هذا الفرعون، منقذ العظمة المصرية، ذو المواهب التنظيمية الفريدة. كان يطمح إلى النهوض بالتراث الضخم الذي قُدم للآلهة منذ بداية حكم الفراعنة؛ لذا قام بزيارة المعابد المنتشرة في الوادي على مساحة تتجاوز الألف كيلو متر، وزار كذلك ملحقاتها الكبيرة ومنح عنايته لتلك التي لم ينلها شرف زيارته.

كان إنجاز هذه الزيارات يتطلب أكثر من عشر سنوات، ولكنه الثمن الذي يمكن لابن الآلهة به دعم مستقبل بلاده، فهو بحاجة إلى مساعدة الآلهة لحفظ مملكته. لن يتم توفير شيء، فالذهب والفضة وعناية النساخ مؤمنة جميعها. ولكن هذا الفيض من الهدايا والأضاحي لا يستدعي وجود الحاكم، وإن كان الوحيد القادر على أداء أفضل تكريم ممكن للتماثيل الخشبية المغطاة بالحلي والذهب، والتي يُفترض أن أرواح الآلهة تسكنها؛ ومع ذلك، سيُلزم رمسيس نفسه بتمجيدها إلى الأبد بالتنقل من معبد إلى آخر وبقيادة شعائر الطواف عاماً بعد عام. وهكذا سيقوم فرعون بحملة جديدة، ولكن سلمية هذه المرة لخدمة الآلهة.

لم يهمل رمسيس يوماً الاحتفالات الدينية، وكان يصر على الظهور على رأس شعبه أو بلاطه للمشاركة فيها عاماً بعد عام وشهراً بعد شهر، فتمر الأيام على إيقاع أصوات الأبواق والمسيرات نحو بيوت الآلهة، وكأن الزمن قد تحول إلى صلاة طويلة ومتقطعة.

* * *

ولد الكون من المحيط البدئي؛ هذا ما ترويه أساطير قدماء النيل؛ ثم ظهرت هضبة من العنصر السائل الذي شكّلته الآلهة، وكانت الأرض التي يحيا عليها البشر! فالماء هي رحم الحياة. لم يكن المصريون يعرفون شيئاً عن قصة العصور الأولى من تاريخ الكرة الأرضية ولا عن الجزيئات التي ظهرت في المحيط عندما كانت الأرض تفجر براكينها الرهيبة باستمرار وتطلق غلافاً غازياً لا تستطيع الكائنات البشرية تنشقه. ومع ذلك كانت أساطيرهم تعطي الأولوية للماء. لا بد أن ماء النيل الرطب والجاري في الهضاب الصحراوية قد وضعهم على الطريق الصحيح. ولا تبدأ السنة بالنسبة إليهم مع صقيع الشتاء، فمفهوم الفصول لا يعني الكثير في مناخ الوادي الصحراوي حيث تبقى السماء زرقاء أبداً مهما تغيرت الحرارة! هنا تبدأ السنة بأخيت، فصل الماء المنتشر في كل المناطق المسكونة والوادي الواسع حتى

الهضاب القاحلة. وعندما ينتهي الحصاد يبدأ قيظ شهور الصيف المنهك ويرتفع الماء ببطء ويغمر البيوت المبنية على التلال الصغيرة دون أن يسبب أذى. لقد أعطى هابي Hapy مياهه مرة أخرى وآن الأوان لشكره. لن يتوانى رمسيس عن فعل ذلك أبداً، فسوف يضاعف عدد الأضاحي وسيسجل العطايا في المعابد التي ينام فيها تمثال الإله الصغير المتجسد بجسم بشري مشوه وبدين! هذا الفصل الرائع يجلب الراحة وينهي القلق بشأن سنة كان مصيرها مجهولاً. سوف تُشبع المياه المنتشرة الأرض برطوبتها وطميها أيضاً، وعند انحسارها سوف تترك طيناً خصباً سيكتفي الفلاحون بحرثه بإلقاء حبوب بذار القمح فيه مباشرة.

يا للتناقض الكبير بين هذه الطرق المبسطة والمجهود الجبار الذي يقوم به فلاحو عالم البحر الأبيض المتوسط الذين عرفوا الزراعة هم أيضاً منذ فجر التاريخ. فهؤلاء يفلحون الأرض العقيمة تحت الشمس وينزعون الحصى ويحرثون الحقول الشديدة الجفاف بواسطة محراث بسيط قبل أن يبدؤوا بالبذار، يخالجهم أمل ضعيف برؤية محصول جيد! وعندما ستصبح مصر الفرعونية مجرد ذكرى سوف يندهش هيرودوت من السهولة التي يعيش فيها أبناء النيل في جنتهم، جنة عدن. إنها معجزة تستحق أن يقام لها عيد يكون بحجم الظاهرة الطبيعية، الجوهرية بالنسبة للحياة في هذا العالم الدنيوي! ولن يكون فرعون ابن الآلهة المحبوب إذا لم يفرّح شعبه باحتفال بهذه المناسبة؛ لذلك ستقام الاحتفالات بعيد الأوبيت على شرف ثالوث الآلهة المتشكل حول الكبير آمون.

الماء هو العنصر الأساسي، هو المعنى الحقيقي للعيد؛ ولكن في تلك الأزمان الغابرة كان لا بد من إله يجسد كل شيء. كيف لنا أن نتجاهل اعتباراً من هذه اللحظة السيد الوصي على منطقة طيبة، آمون حامي المملكة والوحيد القادر على توحيد دين الشعب كله؟ كان محاطاً بهالة كبيرة منذ قيام الإمبراطورية الجديدة وحكم فراعنة طيبة؛ ولم يكن رمسيس يسعى لإنكاره بل على العكس تماماً، فحبه للتراث ـ هذا الحب الممتزج ببعض التباهي أيضاً لشعوره بالانتماء إلى سلالة فاخرة ـ واختياره للعاصمة طيبة جعلاه يقتفي أثر أعياد الماضي الكبرى. فهكذا، عندما يأتي فصل الأخيت في كل عام يقود سيد الوادي الاحتفالات بعيد الأوبيت. وتنظم الاحتفالات عادة عند خروج تمثال الإله الخشبي المغطى بالحلي إلى النور، حيث يسافر هذا التمثال من معبده في الشمال، المشار إليه باسم الأوبيت والذي نعرفه باسم معبد الكرنك، حتى أوبيت الجنوب، أي المبنى المماثل في الأقصر. قد لا تترك المسافة التي يقطعها السائح المعاصر الذي يحاول أن يشبع نفسه بسرعة بعبير وصور

الوادي الرائع، قد لا تترك لديه انطباعاً لا يُنسى؛ ولكن لو رجعنا إلى الوصف والنقوشات التي على جدران المعابد...

عندما تعلو المياه يعم الفرح المدينة والإقليم والشعب كله لأسابيع وأسابيع، فتبدأ المسيرات وتبدأ الفرق الموسيقية استعراضها، ويطوف الحرس في أرجاء المدينة يحملون أسلحتهم ويتباهون بها، ويأكل الناس ويرقصون أمام المعابد وعلى أطراف النيل. كان مرور أصغر موكب كفيل بحشد الجموع الفضولية، فكيف إذا مر الكهنة أو الفرعون؟ كانت أعصاب المؤمنين تثور حينها من شدة الفرح لرؤية قوارب الإله تجوب البلاد أمام أعينهم.

تبلغ الأفراح الدرجة القصوى عند الطواف الكبير لقارب آمون من الكرنك وحتى الأقصر. وقد قرر رمسيس الثالث، الحريص على الظهور بمظهر سيد كل شيء، بأن يخرج الموكب الضخم من قصر مدينة حابو Midenet - Habou ، حيث خصصت قاعات لعبادة آمون ولاستقبال قواربه المقدسة. كما أن الباحات الواسعة التي تقع قبل صالات المعبد داخل النطاق المحاط بالأسوار تسهل هذا الأمر. عند الطواف يحتشد عشرات الآلاف من أبناء طيبة على الطريق المؤدي إلى معبد الكرنك، وعندما تقترب أصوات الناي ودقات طبول الحرس والأغاني يترك المدعوون البيرة والفطائر المحلاة بالعسل ليهرعوا ويشاركوا بضرباتهم المتقطعة موسيقيي فرعون. كان لمس الحاكم، بل مجرد لحظ شخصه المقدس حلم صعب المنال، ومع ذلك ها هو ذا رمسيس الثالث هنا، محاطاً بأبنائه وكبار البلاط. ولكن الكهنة القساة الذين يرتدون جلود الفهود يشكلون حاجزاً لا يمكن تجاوزه، وكذلك صفوف الحراس النوبيين والشاردانيين Shardanes الذين يشكلون جزءاً من المرافقة التي تتألف من مئات الرجال؛ فعلى الشعب إذاً أن يكتفي بتخيل الحاكم المستقر في عظمته....

استقل رمسيس قاربه وسار لساعات طوال بين صفوف المؤمنين، مستمداً منهم الطاقة الضرورية لإنجاز عمله العظيم الذي كان قد بدأ به. كانت الهتافات تسكره، فهو الوحيد الذي اصطفته الآلهة كما يقر الجميع بذلك.

كانت المياه منتشرة في كل مكان، هادئة ولكن مقاومتها صعبة، يتقبلها المصريون كما يتأقلم الناس اليوم مع الرياح الموسمية. ليتخبط أولئك الذين يلحقون بالموكب في الطين، أما أبناء البلاط، فهم أرفع من أن يغوصوا فيه. ولكن الجزء الأكبر من المسافة سيتم قطعه باستخدام القارب، وهذا الأمر يشكل صعوبة بالنسبة للجموع إذ ستنحد الأماكن التي ستستطيع فيها هذه الأخيرة إطلاق العنان لفرحها وإملاء معدتها بالطعام، وهو أمر غير عادي أيضاً! عند حافة النيل قرب معبد الكرنك، ينتظر بعض الفضوليون الآخرون خروج

قارب آمون. لو لم يقم الفرعون، كسابقيه من الحكام، بوضع أسطول صغير باذخ ـ لا يتناسب البتة مع المسافة النهرية القصيرة الواجب قطعها ـ تحت خدمة الزورق الصغير الضعيف الحامل لتمثال الإله، لما كان هذا القارب على مستوى عظمة الحدث.

ساهم رمسيس الثالث مع الكهنة بإخراج الإله آمون ذي الشكل المتطاول والغطاء المرهف من معبد الكرنك إلى النور. بعد إراقة الخمر وإقامة الصلوات الشعائرية، لم يجرؤ أحد على اللحاق بالحاكم إلى غرفة الإله؛ فهو وحده يستطيع أن يهمس في أذن التمثال بكلمات تنم عن الاحترام الذي يكنه الفرعون له. وبعد ذلك يستعيد وجه رمسيس تعابيره الجامدة التي تزيد اللحية المزيفة والتاج الكبير من جمودها حتى يصبح الرجل كالتمثال. هل نطق جيداً بكل العبارات اللازمة؟ هل كان متواضعاً وصادقاً بمستوى المرتبة التي يحتلها؟ في الواقع، قليلون هم الكهنة الذين يشكون بهذا الرجل، فرمسيس الثالث كان دائماً يسعى للظهور بمظهر أفضل الحكام.

حمل رجال الدين القارب ذي الجؤجؤ المرتفع، الذي وضع فيه التمثال الهش، والذي تم تزيينه بالكثير من الأقمشة المصبوغة والأعلام والأحجار الكريمة. ولكن أعين الجموع لن تستطيع رؤيته إلا من الخارج، إذ أنه سيوضع في سفينة جديدة بخوض المعارك الكبيرة ضد قراصنة التكر! إنها قلعة حقيقية يرزخ هيكلها تحت ثقل التزيينات إلى درجة أن قارب الإله لم يجد مكانه فيها بسهولة. وعندما يبدأ الجدافون بالتجديف ضد التيار لجر السفينة، ستتأرجح هذه الأخيرة بما فيها، وستتأرجح معها زوارق الأعيان الصغيرة التي تحيطها من كل الجهات وتتصل معها بحبال.

قريباً ستظهر بوابة أوبيت الجنوب وسيعاد أمون إلى مقره بعد إقامة عروض جديدة وقضاء ساعات طويلة في الغناء والصلاة. ولن تتوقف الاحتفالات بانفصال تمثال آمون عن الموكب الملكي، فهي ستستمر حتى ساعة متأخرة من الليل وسيبقى الشعب منتشر في الشوارع وهو واثق من أن الأيام القادمة لن تخلو من الطواف والأعياد طالما فرعون موجود.

بعيداً عن الجموع، كانت مدينة حابو Medinet - Habou تعيش أحلى الأوقات في هذا العيد الذي وصل فيه البذخ إلى درجة لم يعهدها البلاط في باقي أيام السنة، حيث قام فرعون بتقديم العقود الذهبية ومختلف أنواع الهدايا إلى أصحاب المقامات وحكام المحافظات، وإلى الكهنة والنساخ. بهذه الحركة، وفي هذه اللحظة، يتحول رمسيس من مخلوق بشري إلى كائن إلهي يمثل العالم الآخر ويسمح لأبناء الوادي بالإطلاع على سر الطبيعة العظيمة ومعجزتها الدائمة، أي المياه المرسلة من قبل العناية الإلهية.

انتهت الاحتفالات، وعاد آمون إلى غرفته المعتمة وأصبح الفرعون لا يخرج إلا قليلاً؛ وفي نفس الوقت بدأ مستوى الماء ينخفض ببطء شديد في حقول الوادي. أصبح زمن الحرث قريباً، فأخيت يمضي والشمس باتت تبكر في المغيب. قريباً سيأتي أوان البذر والتعب، قريباً سيأتي بيريت.

لم يعد بالإمكان استدعاء الفلاحين، فهم في هذا الفصل يقضون أيامهم في الحقول مع عائلاتهم. ومع ذلك كان على الفرعون أن يعطي الأوامر للنساخ لكي يقوم الفنانون بإصلاح البوابات المتهدمة وترميم نقوش الصلوات المحفورة على الجدران. أصبحت الطرق صالحة لنقل المواد من جديد، وأصّبح بإمكان العبيد نقل الكتل الحجرية لرفع جدران المعابد في كل البلاد ولتشييد الأبنية الجديدة التي بوشر العمل بالعشرات منها.

كان رمسيس الثالث يشرف عن كثب على هذا النمل البشري العامل؛ وهو وإن فوض النساخ بهذا الأمر لم يتخل عن القيام بالأسفار التفتيشية في كل الوادي المغطى بالمعابد على مدى آلاف الكيلومترات! في الطرف الآخر من البلاد، في ممفيس قرب الأهرامات، يسود الإله بتاح Ptah ذو الرأس البشري، حامي الحضارة والفن الذي عبده أوائل الفراعنة. كانت حالة المعابد في هذه المدينة التي أُهملت لصالح طيبة ثم لصالح بي - رمسيس Pi - Ramses سيئة للغاية، ولكن الفرعون الورع لن يدعها للوحشية البدائية؛ فالإنسان يترك أثره في هذه الحياة الدنيا في المعابد كما في الزراعة، وهو قد نظم الوادي بتقسيمه إلى أربعة أقسام لكل منها إله يعبده ويقيم له الشعائر وفق قوانين صارمة، لعله يطلعه على خفايا الكون. لقد قلب الفلاح المصري مستنقع الوادي الكبير رأساً على عقب، وأنجز الكهنة والنساخ الكثير من الأعمال المخصص معظمها للآلهة. وهكذا فإن الإنسان في تلك الأزمان الغابرة، الإنسان الشجاع والقلق، يتأرجح دائماً بين حقيقة ما هو عليه وبين ما يمكن أن يستشفه من عالم الغيب.

وهل يمكن أصلاً أن يكون الوضع مختلفاً؟ فهؤلاء البشريون يعيشون متمحورين حول الواقع وحول ما هو يومي؛ وحتى عندما يؤدي رمسيس الثالث مئات الطقوس المختلفة لعبادة الآلهة، عندما يتلفظ بكلماته المتلعثمة ويقوم بحركات الصلاة، فهو يزيد من تشبثه بالواقع.

لقد جمع النيل الكثير من الرجال على ضفافه، لذلك لا بد من أن يكون عالم الآلهة غنياً بالأرواح أيضاً؛ وقد أدى توحد قبائل ما قبل التاريخ تحت عصا فرعون إلى نشوء ذرية

إلهية كفيلة بتنظيم حشود العالم الآخر في مجتمع عقلاني لا يجرؤ الرجال على التخلي فيه عن أي من القوى الطبيعية المؤلهة.

التحية أولاً لهابي Hapy الذي لولاه لما كان النيل، وتحية لمعابده المشيدة في الموقع الذي تتدفق فيه المعجزة المائية أكثر من أي مكان آخر. ولكن جوهر الحياة يفرض أيضاً تقديم الأضاحي لخنوم Khnoum ، الإله ذو رأس الحمل، ولهاتور Hathor ، التمثال المهيب الذي يحتل موقعاً في معبد الأرباب! وكيف لنا أن ننسى الشعائر الجنائزية المقدمة لأوزيريس، رمز العالم الآخر والحياة المتجددة؟! كان المصريون يفضلون تماثيله الطينية الصغيرة ويجعلون فيها عدة ثقوب لكي ينبت فيها الزرع. وهناك مين Min الذي يخصه رمسيس بمحبة كبيرة باعتباره ولد في نفس اليوم الذي يُحتفل فيه بعيد الإله الممجد في كوبتوس Coptos . لمين Min أيضاً ستُقدم الأضاحي، وسيطوف الملك والأمراء والبلاط كله ويضعوا الهدايا الثمينة عند أقدام هذا الإله العجوز الذي خرج على ما يبدو من المناطق المجهولة في إفريقيا السوداء.

لا تزال الطقوس القديمة التي تعود إلى زمن ما قبل التاريخ تُتبع في الوادي؛ فعادة تحنيط الحيوان المقدس في محافظة ما والمحتقر في المحافظات المجاورة متوارثة عن هذه العصور، تماماً كالإلاهة التي تعبد في محافظة مجاورة ولا تأخذ سوى دوراً ثانوياً هنا، رغم كونها زوجة الإله الوصي على المدينة. لقد أصبح مفهوم الآلهة أكثر تعقيداً، حيث أصبح لها زوجات وأطفال، أي عائلة وذرية، وأصبح لها كذلك أشكالاً متعددة تم تشبيهها بالكثير من الآلهة الأخرى. فآمون مثلاً استوحى الكثير من مين Min ، وضُمت إليه رع Re بعد أن أزاحت مونتو Montou عن عرش طيبة، فتوجب على هذا الأخير بعدها أن يكتفي بالظهور في الثالوث العائلي.

يبدو العالم الإلهي مفعماً بالحياة، ولكنها حياة غير مستقرة إذ أنها تخضع لتطويرات عديدة في صلوات رجال الدين. كان الكهنة أسياداً في فن تنظيم المراتب في المجتمع الإلهي، وقد سعوا لتفسير العالم من خلال هذا التنظيم، واستطاعوا كذلك أن يوجدوا لأنفسهم مكاناً حسناً في مجتمع الرجال. وظهرت نتائج هذه الخيمياء في البرديات الثقافية في دور الحياة، حيث طُوِرَتْ نظرية نشأة الكون المعقدة على مدى قرون.

وقد أشيع هذا العلم في أوساط النخبة والعائلة المالكة بالدرجة الأولى، أما الشعب، فهو لا يلمس سوى الجوانب الأكثر مادية للدين؛ فالشعائر المقامة للآلهة لا تمسه أبداً.

بإطلاع الشعب على أساطير الإله المبجل في هذا اليوم أو ذاك يكون رمسيس قد

أوجد أساساً قوياً يدعم به شرعيته. وهناك آخرون حول الحاكم يحملون ألقاباً مقدسة، كالكهنة وغيرهم من الأعيان وأفراد العائلة المالكة؛ وهي ألقاب يعترف بها الفلاح لأنها مرتبطة بالأعراف القديمة للمحافظة. كان دور الحاكم يجبره أيضاً على تقديم الأضاحي للآلهة المشتركة مع الإله المصطفى في يوم عيده؛ وربما كان رمسيس يمضي من الوقت في زيارة المعابد أكثر مما يمضي منه في تفقد أحوال شعبه.

كيف لنا أن نُدهش إذاً من جسامة المهمة ومن ضخامة الميزانية التي تتطلبها؟ فالهبات التي قدُمّت للآلهة تملأ حواشي مخطوطة ضخمة من ورق البردي لو مدت على الأرض لغطت مساحة تتجاوز عشرات الأمتار، وهذه البردية لا تزال موجودة حتى يومنا هذا.

* * *

كان رجال الدين سعيدين جداً بورع الحاكم، فهم أول المستفيدون من الحماس الديني الذي نشره رمسيس الثالث في البلاد، وكأن عرشه متعلق باستقرار العبادات. اثناء الأزمة التي حصلت في العقود التي سبقت استلام سيتنخت الحكم، في العام ١٢٠٠ قبل الميلاد، كانت المعابد متروكة في حالة يرثى لها؛ فتقديم الأضاحي إلى آلهة الوادي لم يكن يشكل الاهتمام الرئيسي بالنسبة للملكة تاوزرت Taousert ولعشيرة السوريين الموالية لها، اللهم إلا حين كانت تريد أن تقدم ضماناً عن إخلاصها للتراث. وقبل زمن تاوزرت Taousert كان الحكام مهتمين ببقائهم السياسي بالدرجة الأولى. ولا تغرّنا المسلات التي نصبها هؤلاء الحكام وتركوها عرضة للمخاطر، فقد اقتصر إنجازهم في هذه الناحية على ترميم بوابة أو نذر مصلى للآلهة؛ ولم تكن هناك سياسة مترابطة على نطاق واسع منذ حكم رمسيس الثاني. ومن جهة أخرى لم يحاول الملوك الأخيرون الذين حكموا في الدلتا الإدعاء في فترة الاضطرابات بالإشراف بعناية على ما يحدث على بعد خمسمائة متر نحو الجنوب، في طيبة!.

تشكل المعابد مجموعات هندسية واجتماعية هشة أكثر من القرى والقلاع الحربية، بل أكثر من المدن نفسها؛ ويشهد على ذلك تاريخ مصر. فتخريب المناخ الهادىء والأمن الذي بظله تنتعش البلاد يؤثر فيها أكثر من أي مكان آخر. فالنهابون يسطون بادىء ذي بدء على المخازن المجاورة لصالات المعبد ويسرقون قطعان الثيران من أراضي رجال الدين؛ ولا يستطيع حراس الآلهة شيئاً حيالهم ولا سيما عندما يتحد خدم آمون وبتاح Ptah مع الجياع أو المتمردين. ولا تزال دور الحياة تحتفظ بذكرى هذه اللحظات المؤلمة في البرديات

التي يمكن تقديمها كبرهان إلى حاكم قليل الحذر... مثل هذه العمليات كانت تحدث في فترات الفوضى الكبرى التي تفصل الإمبراطورية القديمة عن الإمبراطوريات الوسطى والجديدة في تاريخ مصر. وقد عَنِيَ الفراعنة المؤسسون للإمبراطورية هم وسلالاتهم بترميم المعابد وأعطوها الأولوية.

ولم يخرج رمسيس الثالث عن هذه القاعدة، بل على العكس، فقد وسع المهمة وطبقها بشكل منهجي. هل لأنها تتوافق مع حاجة استثنائية؟ ربما. فإن كانت الآثار العمرانية التي تركها رمسيس الثاني منذ خمسين عاماً تقريباً لا تزال موجودة، فهي ستتآكل مع الأيام؛ فالمستقبل سيظهر أن فن الإنسان لن يستطيع الصمود أمام عوامل الزمن. وقابلية هذه المجموعات الدينية للعطب السريع تشكك في أهميتها، ولكنها في نفس الوقت تعكس المغالاة التي فيها؛ فبيوت الآلهة في تلك الأزمان الغابرة تطلبت عملاً وجهداً فاق كل ما تطلبته المباني المماثلة المسيحية والإسلامية في العالم.

ربما توجب البحث في جهة الهند أو أميركا القديمة، في حضارات المايا والأستيك، للعثور على معابد هرمية ضخمة قريبة في أحجامها وطبيعتها من المعابد المصرية. وعند مقارنة هذه الحضارات الثلاثة القديمة التي ولدت فيها أول منشآت ملكية في تاريخ الإنسانية، نلاحظ أنها متشابهة من ناحية تركيز السلطة في يد الملك المؤله والكهنة الذين ينشرون الأساطير. فمن الطبيعي إذاً أن تتحد الملكية مع التيوقراطية وتحاول تلبية متطلبات المبادىء السياسية التي ولدت نتيجة اتحادهما عن طريق البناء الضخم. بيد أن تغير المجتمع وتجزئته سيؤدي فيما بعد إلى تقليص المجموعات الإنسانية التي تشكل كتلة واحدة وتقسيمها إلى كتل صغيرة ستتحمل كل منها على حدى عناء نصب مذبح لآلهتها.

تشكل صالات المعبد ذات الدعائم الكبيرة والغرف المظلمة الملحقة بها والمخصصة لعبادة الإله الجزء الأساسي فقط من مجموعة المباني الدينية؛ فهناك صالات أخرى للنشاط الديني لا يستطيع السائح المعاصر رؤيتها لأنها اندثرت مع الزمن. هذه المنشآت، كالكرنك مثلاً الذي تغطي مساحته عشرات الأمتار المربعة، تتطلب حولها نطاقاً واسعاً ولا سيما أن بواباتها عالية وجديرة بأن تكون بوابات قصور منيعة. خلف الباحات توجد حدائق مظللة بالأشجار... وقد تطلب بناء هذه الصالات المخفية عن أعين الشعب سنوات عديدة وربما قرون؛ فمعبد آمون مثلاً ـ الكرنك ـ تطلب بناؤه سنوات عديدة، ولم تتوقف الأعمال فيه طوال فترة الإمبراطورية الجديدة. وتوحي أعمدته الضخمة ذات الجذوع المنتفخة بأنها من عمل الجبابرة، وهي تشبه في حجمها أشجار السكوا الأميركية الكبيرة.

إلى جانب مهارة الحرفيين والمهندسين هناك رجال الدين المكلفين بأمور العبادة التي

لا تقل جسامة عن الهندسة. وهناك أيضاً جموع العبيد والخدم المكلفين بصيانة المبنى وتلبية حاجات مئات الكهنة المختصين بمهام مختلفة ومحددة بشكل دقيق، تتطلب قضاء سنوات في الدراسة للإعداد لها! كان بيت الإله، بل لنقل مدينته فهذه الكلمة أصح، عبارة عن مجتمع مصري مصغر لا تقل مخازنه ثراءً عن مخازن حاكم المدينة؛ فقد تكدست في معابده هبات الملوك الكريمة وأُلحقت به مئات الهكتارات من الأراضي الزراعية في الوادي الضيق.

لم يكن الشعب يجهل مدى ثراء رجال الدين ومعابدهم؛ ومن جهة أخرى كان عدداً كبيراً من الفلاحين مجبرين على إطاعة أوامر الكهنة، فأراضيهم مُنحت للقطاع الديني بأمر من حاكم أو آخر، إما حاكم تقي ورع أو حاكم ضعيف أمام متطلبات الكهنة الجشعين التي لا تنتهي. والكل يعلم كذلك أن قطيع الثيران الجميلة المبرقعة هو ملك للإله المحلي؛ فالمعبد وملحقاته استأثروا بالأهمية المطلقة في كثير من المدن؛ ولم تكن المحافظات تشكل سلطة مضادة في إطار الملكية الشديدة التمركز في هذه الحضارة التي تعتبر من أكثر الحضارات قدماً. عند أول كارثة سياسية يفقد رجال فرعون السيطرة على الشعب ويبقى المعبد المكان الوحيد المتحكم بالمراتب الاجتماعية، في انتظار أن يدفع هو أيضاً ضريبة كبيرة من جراء تفكك البلاد. وبين الحذر من قوى الكهنة المتهتكة والخوف من انهيار دعائم المجتمع، كان على رمسيس أن يصنع التراث دون تحطيم سياسته الطموحة على الصخرة التي تكسرت عليها سمعة الكثير من الفراعنة السابقين.

في السنوات الأولى من حكم رمسيس شعر كهنة آمون بالارتياح الكبير للمرتبة الأسطورية التي وصلوا إليها في عهده؛ فقد استعاد الإله الوصي على طيبة مكانته من جديد عند حاكم مصر، وسوف ينضم آلاف العبيد الذين تم أسرهم أثناء الحروب ضد شعوب البحر إلى القطيع البشري التابع للكرنك وملحقاته. وفي كل فصل ستتكدس الهدايا الثمينة في كنوز المعابد المكرسة لسيد عاصمة مصر.

ومن الطبيعي أن يحاول الكهنة إظهار إخلاص بمستوى الاعتبار الملكي الذي يتمتعون به، فباكنخونصو Baken Konsou ، كبير الكهنة، لم يفقد يوماً مكانته لدى رمسيس الثالث. وتمضي السنين وتتغير سياسة الحاكم ويصبح رجال الدين أقل وداعة. هل أصيب الفرعون فجأة بالدوار ككثير من الحكام الذين سبقوه أمام سلطة كهنة طيبة وقوتهم؟ قريباً سيصبح نصيبهم من الهدايا أقل من نصيب رجال الدين الآخرين، وسيتوجب على خدم آمون الاكتفاء برواتب جيدة.

لقد عاش رمسيس الثالث مدة طويلة في طيبة وآن له أن يلاحظ الأخطار التي تهدد الحاكم في حلبة الوادي الجميل، الذي تم تهدئة الأوضاع فيه بالمكر والحيلة. ففي هذه الأماكن من التراث القديم حيث قبور الفراعنة الأموات، لم يكن ملك مصر سوى محتل فان للعرش؛ وكل أولئك الذين وقفوا في وجه رجال الدين رأوا أسماءهم تمحى عن لوائح التاريخ. فأخنتون ليس سوى شبح في هذه الأماكن، وآخرون، كتوت عنخ آمون، لم يستطيعوا فرض شخصيتهم الضعيفة على الكهنة، ولم تترك أعمالهم الضخمة أي ذكرى. ولولا الصدفة العجيبة التي أنجت بعض الآثار من السلب الذي تعرض له وادي الملوك، ولولا اكتشافات عصرنا الحديث، لما أعيدت الذكرى الشاحبة لهؤلاء الحكام المجهولون تماماً من قبل معاصري رمسيس!.

كان قلب رمسيس يحدسه بأخطار المكان وأعرافه. لقد أراد، وهو ابن الدلتا، أن يعود إلى التراث؛ ولكن نجاة مصر تكمن أحياناً في القطيعة، في إضعاف كهنة آمون. عندما أراد أخنتون فعل ذلك فرض الأمر بعنف مستبقاً بذلك زمانه بكثير، أما رمسيس الثاني، فقد كان لديه اهتمامات أخرى تتعلق بشؤون الإمبراطورية. قد يستطيع رمسيس الثالث أن يعيد الأمور إلى حجمها الطبيعي شيئاً فشيئاً، فالمحن التي عانت منها مصر، كالحروب الأهلية وغيرها من الغزوات، جعلت قوة الكهنة نسبية؛ وباستطاعة الفرعون أن يستغل الفرصة. غريب وضع هذا الرجل المؤله، فهو السيد الذي يحكم العاصمة القديمة، ولكنه يبقى حبيس قصره المنيع. هذا الرجل الذي سيؤسس سلالة رمسيسية جديدة قلق من التقسيمات التي طالت عشيرته؛ وهو رغم كونه نصيراً متحمساً لآمون، يرى أن توازن قوى الآلهة أمر ضروري للحفاظ على البلاد المصرية من الضياع.

قريباً ستسلك الأساطيل الصغيرة المحملة بالذهب والهدايا الملكية طريق معابد الشمال المنسية، معابد بتاح Ptah في ممفيس ورع Re في هليوبولس. وهناك آلهة أخرى أيضاً سُجل اسمها على لائحة المستفيدين من الكنوز الملكية الكبيرة؛ فبهذا الثمن فقط يمكن للتجديد أن يتقدم بخطى عملاقة. كانت السياسة الملكية تهدف إلى توحيد الأراضي المصرية أكثر من إعادة التوازن بين الشمال المنسي والجنوب، وكانت تهدف أيضاً إلى جعل كل محافظة قطب اهتمام، وكأن كل أصقاع الوادي يجب أن تبقى مرتبطة بالسلطة تحسباً من حدوث عواصف تاريخية. كان رمسيس الثالث واعياً لتنوع أرضه ولهشاشتها الطبيعية المذهلة بحكم موقعها، حيث تحيط بها الصحراء من جهتين مفتوحتين على العالم الخارجي وأطماعه؛ فهذا الشريط الأخضر بحاجة إلى نسيج متين لمقاومة التجزئة ولضمان استمرارية الوحدة بين الشمال والجنوب. لن تكون عشرات الآلهة المبجلة للقوة التي تمثلها في مكان

اصطفائها كثيرة لضمان هذه الصلابة التي بات رمسيس يشك بها على ما يبدو. فرمسيس الذي يتقدم في السن يعاني من ضيق هو لا شك ثمن بريق نجم الأمير الذي تحدى القوى المعادية؛ ففي ذلك العصر كانت الإمبراطوريات الكبرى التي اخترعت الكتابة والزراعة والملكية المؤلهة تستسلم الواحدة تلو الأخرى وتسقط تحت هجمات الشعوب المجاورة التي تطمع بنهب الثروات المكدسة في الوديان الخضراء الجميلة...

الفصل التاسع

حاكم الأقواس التسع

كان رمسيس، ابن الآلهة الوفي، يحلم بالجنوب حيث نشأت الخليقة الأولى في مصر الفرعونية، وكان عليه أن يعطي ضمانات للآلهة تثبت قوته؛ ولكن أراضي الشمال البربرية لم تكن لترضي رغبات الآلهة، فالآلهة لا تقدر سوى البقاع الأسطورية الكائنة في عمق الأدغال الإفريقية حيث ينبت غذائها الروحي: البخور. البخور، هذا العطر الساحر الذي يستخرج من الخشب ويُحوَل إلى رماد كان يُحرق في المعابد منذ آلاف السنين، فيتصاعد دخانه الكثيف في حلقات دائرية، في الغرف المغلقة والرطبة الكائنة في جوف المعبد.

الصبر والبخور، هذا الخليط المرهف الذي يرمز للآلهة ولشرابها، لجشع الرجال الأكثر ثراءً، يوحي لنا فوراً ببلاد اليمن السعيد. كان الصبر والبخور يشكلان رمزاً لأشياء لا يمكن الحصول عليها، أشياء مخصصة فقط للرجال المجانين والأثرياء بما يكفي لدفع حفنة من الذهب لأجل بعض العصي العطرة! كيف لنا أن نندهش إذاً من تكريس هذه المواد الثمينة للاستخدامات الأكثر نبلاً؟ فالروايات القديمة تحولها إلى عطور مُسكِرة توَزَعْ في القصور الملكية؛ ولكن مصر الورعة قررت أن تقدمها أولاً إلى أنوف آلهتها.

لم يخطر ببال رمسيس أن يتساءل عن أول كاهن حمل بين يديه الكأس التي يحترق فيها البخور وسكر من رائحته العطرة قبل أن يقدمها للآلهة ويصلي لها. لقد سعى الفراعنة منذ ولادة مصر الفرعونية إلى إيجاد هذه المواد الثمينة التي يخلو منها الغلاف الصحراوي، ويخلو منها كذلك الوادي المليء بالمستنقعات والمشبع بالمياه، والذي لا تتوفر فيه الشروط الخاصة جداً والضرورية لنمو هذه الشجيرات.

هذه النباتات العطرة ذات الجذوع المشوهة والقليلة الأغصان تكثر في الأراضي

الجنوبية من الصحراء، في الجبال المنتشرة هنا وهناك حول البحر الأحمر، كبلاد العرب السعيدة ـ أي اليمن ـ التي أطلق عليها هذا الاسم الإيحائي في العصور اليونانية ـ اللاتينية القديمة لتناقضها مع الصحراء الشاسعة القاحلة في وسط الجزيرة العربية. لم يكن أحد آنذاك يتخيل الثروات الكامنة في جوف الأرض، فالمجتمعات القديمة كانت تحيا بفضل الطاقة البشرية وأحياناً الحيوانية، أما النفط، فلم يكن ليشد أبداً أولئك التائهون في البراري الوحشية الواسعة، حتى وإن كان الزيت يستخدم منذ ذلك الحين لإشعال الفوانيس.

تنتصب الأسوار الطبيعية لبلاد العرب السعيدة في الشرق من المضيق الذي يغلق البحر الأحمر؛ وتربط القوافل هذا القطب التجاري في الجنوب مع شواطىء البحر الأبيض المتوسط؛ وبعد عدة قرون سيرد ذكر هذه التبادلات التجارية في قصة ملك إسرائيل سليمان وملكة سبأ التي تشمل مملكتها هذه الأراضي، المتميزة بتضاريسها القادرة على اجتذاب كمية الأمطار القليلة التي لن تسقي أبداً السهول الصحراوية الواقعة في الشمال. ويعتبر الساحل الشرقي من البحر الأحمر نقطة العبور التي تربط الأراضي المعزولة من البلاد العربية بالبحر الأبيض المتوسط ـ ملتقى الطرق الحضارية الوحيد القريب آنذك ـ فتبيع بلاد العرب عطورها مقابل فاكهة حرفيي شعوب الشمال الأكثر تقدماً. ولكن الثروات الطبيعية لهذه المرتفعات لا تقتصر فقط على الجبال اليمنية، فالهضاب والمرتفعات الواقعة إلى الغرب، على الطرف المقابل من البحر الأحمر، أي البلاد التي سيصبح اسمها يوماً إثيوبيا، لها نفس الظروف المناخية.

كان المصريون يعرفون هذه الأراضي الجنوبية منذ زمن طويل، ومن غير المعقول إذاً ألا يهتم الفرعون بالأطراف الجنوبية من عالم الأقواس التسع؛ ولكنهم كانوا ينفرون دائماً من النزول إلى الشواطىء المقابلة من البحر الأحمر رغم معرفتهم بالوسط الصحراوي؛ فالقارة الآسيوية الشاسعة المساحات والمنفتحة على كل الشعوب التائهة تخيفهم كما تخيفهم الحمية الحربية عند قبائل الرحّل في الصحراء العربية. في الحقيقة لم يستكشف المصريون خلال بعثاتهم البحرية الحذرة سوى البلاد الفينيقية وبعض ما حولها، وربما جزيرة الكريت أيضاً والبحر الأحمر؛ وهي اكتشافات لا تنم البتة عن روح المغامرة بالنسبة لهذه الإمبراطورية التي تملك إمكانيات هائلة إذا ما قورنت بالفينيقيين الذين وصلوا إلى سواحل بريطانيا العظمى في القرن الخامس عشر قبل الميلاد! لقد اختار أبناء النيل السواحل الغربية الواقعة في أقصى جنوب البحر الأحمر؛ فهم يفضلون البقاء على الأرض الإفريقية حيث لا يوجد الكثير من القبائل المحاربة. هنا يعرفون كيف يجدون أشجار البخور؛ وإذا لم يستطيعوا الوصول إلى السافانا الجافة في الهضاب الداخلية، فإن السكان المحليين سيقومون

بحصدها ومقايضتها بالهدايا الثمينة؛ فعلاقات مصر مع بلاد بونت Pount الشهيرة تعود إلى زمن طويل، وهي لا تزال مستمرة.

لم تكن الأصقاع البعيدة تسحر المصريين، ولم تكن الحيوانات الغريبة ولا الوحوش والشياطين والكنوز الأسطورية التي يذكرها المسافرون في قصصهم تثير اهتمامهم؛ فأبناء النيل لا يريدون سوى العصي الجافة، أما المفاجأة فستكون من نصيب الآخرين، أي الشعوب الإفريقية التي تستيقظ في صباح أحد الأيام لتجد سفناً كبيرة ترسو على خلجانها الرملية الصغيرة. هذا ما تصفه لنابدقة نقوشات معبد الفرعونة حتشبسوت في دير البحري. كان قباطنة الفراعنة يذهبون إلى هناك دون سلاح، فأي قبيلة هذه التي تجرؤ على تحدي مئات البحارة والجنود المصريين؟ كما أن سكان هذه الأماكن المنعزلة التي لم تتعرض للتيارات التجارية إلا نادراً لم يكن لهم ملوكاً بل مجرد قادة صغار محليين، وهم لا يملكون الوسائل لرفض هذه المقايضة الناجحة، بل كانوا يتهافتون على السكاكين والمرايا والقطع الفنية التي صنعها الحرفيون بنهم، فهذه كلها أشياء لا يعرفونها بسبب تأخر ظهور المعادن في جنوب الصحراء زمناً طويلاً. كان المصريون يخفون طمعهم بمنتجات الأرض الإفريقية التي تعتبر عادية جداً في هذه البقاع الوحشية؛ فأكوام الأغصان العطرة وجلود الفهود وريش النعام لا تساوي شيئاً بالمقارنة مع الأدوات المتقنة الصنع التي أحضرتها السفن الكبيرة، والتي تمثل ثمرة مئات السنين من الأسرار الحرفية. أما في نظر أبناء النيل الذين لم يفارقهم الحنين إلى وحشية الوادي البدائية، فإن فاكهة الطبيعة الإفريقية أغلى من الذهب.

لم يكن المقام في بلاد بونت Pont يطيب للمصريين، فهم لا يألفون الشعوب السوداء، والمصلحة المشتركة هي السبب الوحيد للأخوة اللحظية بينهم؛ كما أن هذه الأكواخ الفقيرة المنتصبة فوق الأوتاد، والقرى المسورة بأغصان الأشجار، الشبيهة بالقرى الإفريقية المعاصرة، لم تكن لتثير اهتمام أبناء النيل الذين يعيشون في المدن. أما السهوب التي في داخل البلاد فهي لا تشجع على الزيارة وإن كانت الأمطار اللازمة لنمو النباتات المطلوبة تهطل فيها بغزارة؛ فسرعان ما سيعود الأسطول إلى الشمال، حيث ينتظره فرعون.

لم يكن رمسيس الثالث يختلف عن الحكام الكثر الطامعين بإقامة علاقات مع بلاد البونت Pount ، فهو قد نظم هذه الرحلة بهدف إعادة إحياء الروابط القديمة بين البلدين. كان يعلم مدى خطورة ضم أراض بعيدة كل هذا البعد دون وجود قوى دائمة تضمن الحماية للقلاع المعزولة في في تلك الأطراف الخالية، لذلك اكتفى بإرسال قباطنته لإعادة التحالف مع هذه البلاد الأسطورية، بحيث يبقى الطريق إلى الجنوب مفتوحاً ولا يفلت منه هذا الجزء من عالم الأقواس التسع.

كان رمسيس ينظر إلى سفنه وهي تسير في النيل بسعادة بالغة، فسفارة مبعوثي قبائل بونت Pont تذكره بقوته الكبيرة، فهو يستطيع نقل أفضل أبناء هذه الشعوب إلى منفى مؤقت. كان ذلك يرضي غروره، وإن لم يشك يوماً بتفوقه في هذا المجال. وسفراء بلاد بونت Pont هؤلاء سيجعلون أعياد طيبة تحظى بأشكال غريبة، ولكن الأهم هو شيء آخر، هو البخور الذي يُسكر رمسيس الثالث. فبدون البخور لن يكون هناك أضاحي ولا صلوات أمام تماثيل الآلهة. وهل بإمكاننا تخيل طواف دون مبخرة تنشر الدخان حول الموكب؟ كيف سيتجرأ على الظهور أمام آمون دون أن يقدم له أقداحاً مليئة بالبخور المحترق فوق الجمر الأحمر؟ هل سيدع الآلهة الأخرى ومئات المعابد التابعة للعالم الآخر تعاني من جوع روحي؟ إذا حصل هذا ستنهال الكوارث على الوادي... لذلك يجب التفكير بالحصول على أطنان من المادة الثمينة، على قوارب مليئة بالنباتات العطرة، لكي يطمئن الفرعون إلى وجود احتياطي منها لسنوات عديدة.

عندما ينتهي تخزين البخور في المستودعات الملكية سيلتهي رمسيس بالوحوش التي تم إحضارها من إفريقيا. كان رمسيس يحب الصيد بالقوس، ويطيب له وهو واقف في عربته أن يثقب بطون الفهود التي تمثل طريدة رائعة، مقاتلة وأصيلة. وكذلك كان يسعده سجود السفراء له ولا سيما بوجود أعيان أجانب من سوريا وغيرها.

يتميز وادي النيل بانعزاله في غلاف صحراوي إفريقي يحيمه من أخطار عديدة، ولا سيما خطر فقدان الاستقرار الذي طالما عانى منه الشرق ذي الحدود الدائمة الاهتياج، والذي يمثل بؤرة تمتزج فيها ثقافات الشعوب، بؤرة يخشاها المصريون المتمسكين جداً بأعرافهم.

لم يكن الجنوب يشكل خطراً يهدد المملكة، وخير برهان على ذلك هو أن نوبيا لم ترفع رأسها منذ الحملة العسكرية الأولى التي قام بها رمسيس الثالث في أول عهده منذ عشر سنوات. كان على الملك أن يدير أنظاره نحو المشرق الذي اعتاد عظام فراعنة الإمبراطورية الجديدة أن يقيسوا أنفسهم به ويجربوا مصيرهم فيه. ولكن هذه المرة ستكون المخاطرة كبيرة حتى وإن كان رمسيس قد انتصر على شعوب البحر، فرمسيس الثاني كاد يخسر حياته هناك عندما وقع في فخ معركة قادش؛ وهناك فراعنة آخرون رجعوا منه مذلولين وقاموا بتزوير الشواهد في المعبد لكي يوحوا بالانتصار. لم تكن الأمور في الأرض الآسيوية سهلة بالنسبة لملوك النيل منذ تأسيس الإمبراطورية المصرية في القرن السادس عشر قبل الميلاد، فكل حاكم كان مضطراً لإعادة بناء العمل العسكري والدبلوماسي للحكم السابق.

في الواقع، كانت الإمبراطوريات قد تمحورت حول الهلال الخصيب حيث حققت العبقرية البشرية تقدماً كبيراً، فولدت الزراعة في المرتفعات الأناضولية ثم تبعتها ولادة المجتمعات الزراعية المنظمة في الوديان الخصبة المجاورة، في بلاد الرافدين ومصر. فمن المنطقي إذاً أن نجد أقدم الممالك العظيمة في هذه الأنحاء التي مرت بالمراحل الحاسمة من تاريخ البشرية، والتي لا ينافسها بالقوة والازدهار سوى الصين التي تملك وديان جميلة معطاءة وتزود الأندس بالقمح. فهناك إذاً ثلاث أقطاب مميزة رسمت حدود الحقل الثقافي وهي: أسوار بابل الشهيرة في الشرق، قصور الملوك الحثيين في مرتفعات الأناضول في الشمال، وأخيراً الأهرامات المصرية في الغرب.

في هذه الأماكن الشرقية المتحضرة، ولكن القاسية أيضاً بسبب الصراع من أجل الهيمنة على البلاد المجاورة، يفقد المصريون بعض غرورهم ويضطرون إلى الاعتراف بقوة الحكام الآخرين. وقد تعمد الفراعنة أحياناً إرجاع حدود بلادهم الطبيعية إلى ما قبل المدخل إليها، أي إلى مضيق سيناء؛ فهكذا تستطيع الإمبراطورية أن تتنفس الصعداء قرناً بعد قرن حسب قوة ملوكها؛ فهي في أيام المجد تصل إلى جبال لبنان، وأحياناً تنحسر إلى فلسطين. ولكن اللعبة كانت واضحة، فما أن يتم ابتلاع الفريسة السورية حتى تقترح كل من الممالك الثلاث على البلد المهزوم سلاماً مشرفاً؛ ولم تكن أي من الإمبراطوريات الثلاث لتفكر في غزو منافساتها البعيدات.

في أعماق صالات دور الحياة، المليئة بمئات البرديات التي يعود تاريخها إلى الألف الثالث قبل الميلاد، يقبع النساخ العجائز ويذكرون الحكايات التي تصف هذا الشرق الأوسط المحاط بممالك قوية. فقبل عشرين قرناً من ولادة المسيح قام ملوك بابل المتغطرسين بحروب ضد الملوك السوريين وانتصروا عليهم. ومن لا يذكر حمورابي وقوانينه؟ ولكن الفراعنة لم يتجرؤوا في زمن الإمبراطورية الوسطى على غزو آسيا رغم اهتمامهم بفينيقيا التي كانت غنية جداً آنذاك، فملوك بابل كانوا يقظين في حراستهم للمنطقة... وفيما بعد، في زمن الإمبراطوية الجديدة، قام الحثيون بغزو مدن بلاد الرافدين العظيمة ونشروا النظام بدورهم في هذه الأماكن التي هبت عليها الكثير من عواصف الهجرة.

أصبحت بابل ضعيفة جداً بعد هزيمتها أمام الحثيين، ثم تداعت على مر القرون تحت ضربات الشعوب البربرية التي كانت تشكل خليطاً من الهنود ـ الأوروبيين في الألف الثاني قبل الميلاد، كالـ الكاشيون Kassites والعلاميون Elamites الذين قدموا من المرتفعات الإيرانية وانقضوا على بلاد الرافدين الغنية ولعبوا دورهم في مأساة كثيراً ما شهدت هذه

الأنحاء مثلها. ولكن تحضر أبناء هذه المناطق، حتى وإن هُزِموا في المعارك، لعب دوراً في استيعاب الشعوب البربرية لها والمحافظة بذلك على ثقافة البلاد بعد أن تضاءلت قوتها. وفي غرب هذه المناطق، عند سهول جبال الأناضول، تقع مملكة الميتاني Mittani التي أسستها إحدى الشعوب الهندية الأوروبية؛ وقد قاومت هذه المملكة رياح التاريخ خلال عدة قرون ثم انهارت قبل قرنين من ولادة رمسيس الثالث تحت ضربات جيرانها الحثيين، واختفى ملوكها الحوريون Hourrites تاركين فراغاً ملائماً لغزوات بربرية أخرى. وفقدت المنطقة استقرارها؛ فالقادمين الجدد لم يستشعروا أهمية حضارات بلاد الرافدين التي علّمت الميتانيين الفنون والثقافة. كان رمسيس يتذكر هذه الإمبراطورية المندثرة بحزن، فحريم طيبة لم يخل من أميراتها اللواتي أرسلن إلى مصر كنوع من أنواع الحلف ودليل على اندماج ملوك ميتاني Mittani بحضارات الوديان.

كانت الإمبراطورية الحثية الكبرى التي افترست جيرانها قد اتسعت دون التفكير بالخطر الذي ستجره عليها عزلتها، فقد تنازعت ـ وهي آخر من حكم الشرق الأوسط آنذاك ـ مع فراعنة الإمبراطورية الجديدة حول السيطرة على فلسطين وفينيقيا؛ ولكن المصريين لم يتورطوا يوماً بشكل فعلي في هذا الشرق غير المستقر والهامشي بالنسبة لواديهم. وقد أضعف هذا التزاحم الإمبراطوريتين، ولا سيما الإمبراطورية الحثية التي بددت في هذا الصراع الكثير من القوى الثمينة التي ستحتاجها لصد غزوات أخرى باتت متقاربة في هذه الفترة من التاريخ التي تزايدت فيها حركات الشعوب. وبتبديدها لقواها سوف تعجز هذه الإمبراطورية، التي تعتبر الأخيرة في المثلث الحضاري الشرق أوسطي، عن صد هجمات النهابين من شعوب البحر، وستتحطم قبل زمن قصير من تولي رمسيس الثالث الحكم.

ما الذي بقي في عصر رمسيس الثالث من أنظمة الأزمان القديمة؟ قد يكون هذا السؤال هاجساً شرعياً يطارد الفرعون الذي يُعتبر الحاكم الأخير المؤله في المنطقة، فهو يحكم مملكة مرممة تقع بعيداً عن ساحة المعركة الشرقية؛ ولكنه قلق من حضور المرحلة التاريخية الجديدة كشاهد متميز وعاجز عن فعل شيء. وهويعرف أن دوام أي شيء في تاريخ مصر المقبل لن يكون دون سياسة شرقية صلبة، وهو ليس مجنوناً لكي يتخلى عن ثروات هذه الأصقاع. صحيح أن فينيقيا لم تعد الشاطىء التجاري الكبير كما كانت عليه في القرون السابقة ـ بسبب غزوات شعوب البحر وقيام القراصنة التكر بإثارة الاضطراب في طرق البحر الأبيض المتوسط ـ ولكن طرابلس وأوغاريت وغيرها من المدن مليئة بالذهب

وبيضائع تجهلها الأماكن الأخرى، حتى أن بحارتها قد وصلوا إلى ما وراء مضيق جبل طارق للمقايضة بها. فالذهب والأقمشة والتحف الفنية يجعلون من هذه المدن متجراً غنياً لا يتناسب ثراؤه مع ضيق أراضيها.

في الألف الثاني قبل الميلاد كان النجاح الفينيقي قد وصل إلى أوجه، فقد استطاع ملوك المدن الفينيقية، وللمرة الأولى في التاريخ، تطوير نموذج مثالي للمدن التجارية؛ فهي على صغر مساحتها تعتبر مستودعاً ضخماً، وأسطولها هو الأساس الذي تعتمد عليه قوتها. ويمكن تشبيه المدن الفينيقية نوعاً ما بمدينة فينيسيا (أو البندقية) الإيطالية، ولكنها فينيسيا العصور القديمة. ويعوّض دورها في تزويد الدول الكبرى بالمنتجات النادرة والغريبة عن ضعف جيوشها. وقد نسجت هذه المدن روابط تجارية دقيقة وهامة جداً مع الكثير من الممالك في تلك الأزمان الغابرة، وعرفت كيف تجعل وجودها هاماً جداً بالنسبة للحكام الكبار المولعين بالكنوز؛ وبالمقابل كان ملوكها يحصلون في أحسن الأحوال على حماية الإمبراطوريات الكبرى وفي أسوأها على معاملة حسنة في حال سيطرتها عليهم. وقد لعبت مصر هذا الدور؛ وتشهد الكنوز المكتشفة اليوم في جوف قصور هذه المدن البحرية على مدى تأثر الحرفيين الفينيقيين بأبي الهول والأشكال الفنية المصرية الأخرى.

لو لم تكن فينيقيا منطقة تجمع الناس واللغات هل كانت ستستطيع في القرن الرابع عشر قبل الميلاد اختراع الأبجدية الأولى في العالم، بدل الرموز الهيروغلوفية المصرية ولغة بلاد الرافدين المسمارية؟ إنها كبرج بابل؛ فهي مليئة بالتجار والبحارة القادمين من كل أرجاء البحر الأبيض المتوسط والأراضي الشرقية، والمجبرون على التحدث بعشر لهجات مختلفة!لقد أدى اختراع الأبجدية إلى تنحية الهيروغلوفية المصرية واللغة المسمارية اللتان تمثلان رموزاً للأفكار إلى مرتبة وسيلة للتعبير عن لغة صعبة الاستعمال بالنسبة لسائر الناس؛ فمئات الصور والرموز وغيرها من الألفاظ والأفكار ذات التركيبات المعقدة والمتشعبة فيما بينها تجعل من هذه اللغات أداة لا يمكن استخدامها إلا من قبل مخترعها. ألم تكن الهيروغلوفية أصلاً لغة العلماء من النساخ أو الكهنة؟ فهي ليست أساساً للغة شعبية؛ وهي تشبه بتركيباتها ـ الجديرة بالاحترام كونها من أوائل المحاولات لاختراع لكتابة ـ الرموز الصينية المعاصرة.

تعبّر هذه اللغات جميعها عن حاجة المجتمعات الحضرية الكبيرة إلى الاتصال فيما بينها وإلى الأرشفة ونشر الرسائل الملكية وحفظها في المنشآت الأثرية. كانت المدن الفينيقية كمتاجر جامعة لمختلف الأجناس، يحاول فيها المصري فهم التاجر الذي يمدح نحاس بلاد

الرافدين، ويساعده في ذلك صاحب قافلة أرامي! لقد استطاعت الأحرف الفينيقية بمرونتها المدهشة وبإمكانية تكيفها مع كل اللغات تجاوز الرسوم الرمزية المصرية بسرعة. ولم يكن هذا النتاج الفكري الإنساني الرائع وليد الصدفة، فهو ثمرة خيال أبناء أوغاريت الخصب، أبناء المدينة التجارية الكبيرة الواقعة في شمال فينيقيا، على الساحل السوري.

لا بد أن رمسيس الثالث كان يعرف هذا الاختراع، فأبجدية أوغاريت تجاوزت منذ تلك الأزمان القديمة حدود المدينة الضيقة، وكانت تُحفر على صفائح فخارية صغيرة وإلى جانبها ما يعادلها في اللغة المسمارية، لغة الأحلاف والتبادلات في الشرق الأوسط. لقد أراد الفينيقيون عبر الأبجدية أن يسهلوا نقل كل لغات الشعوب التي تلتقي على أراضيهم، فكل من فلسطين وفينيقيا والمنطقة الداخلية من سوريا كانت تخضع لتأثيرات مختلفة ولا بد من لغة للحوار، فالتاريخ يسير بخطى سريعة، والإمبراطوريات تختفي ولا تعود قادرة على حفظ التوازن لقرون عديدة، وكذلك تظهر الممالك وتندثر خلال بضعة عقود.

قد يعاني رمسيس من الدوار أمام هذه الدوامة البشرية، فالحروب والتحالفات تتوالى بإيقاع متسارع؛ ولكنه قد يستفيد ربما من هذا الأمر، فهو كآخر حاكم كبير في المنطقة يملك الجيوش اللازمة لزيادة نفوذه، ويستطيع أن يضم إليه أجزاءً من الأراضي المحيطة بالفرات دون عناء كبير. في الواقع، لم يكن رمسيس يطمح إلى بلوغ ضفاف الفرات حيث كان يصطاد كل من أمينوفيس Amenophis وتوت موزيس Toutmosis منذ أربعة قرون، ولم يكن أصلاً في حالة استعداد ذهني لهذا الأمر، فهو يعمل على انتشال بلاده من الفوضى وتأمين مستقبلها بحيث يكون مبنياً على أسس قوية. أما دفعها إلى القيام بغزوات في هذه الأراضي الهائجة فهو قرار يخلو من التبصر لم يكن رمسيس ليقدم عليه.

قد يقول البعض بأنه يتبع سياسة الخوف، وقد يقول آخرون بأنه ملك بعيد النظر يتصرف حسب ما تمليه عليه الحكمة؛ ولكن رمسيس الثالث سيكتفي ببناء بعض القلاع في بلاد العموريين في سوريا لكي يقي حدوده المصرية من عدوى الهباء الشرقي. ربما كان يتوقع بأن جيوشه لن تقدر على تحقيق نصر أكبر من تلك الانتصارات التي حققتها في الحملات الأولى من سنوات حكمه ضد شعوب البحر، ولكنه مع ذلك سيكلف الحراس المصريين الكامنين في القلاع على الحدود الشرقية بمراقبة الأفق الخالي من أسوار حصونهم العالية؛ فالضيق الذي يشعر به الفرعون لم يتبدد. كان الكابوس السوري يطارد ليالي الفراعنة حتى في زمن الرماسيس؛ وتبدى تأثير هذا البلد الذي مزقته قرون طويلة من الحروب، تبدى تأثيره في الوادي الهادىء في المجال الديني، حيث دخلت آلهته الحربية

مجمع الأرباب، كالإله بعل مثلاً؛ وتبدى كذلك في فن القلاع، حيث أصبح الميكدول، الذي يساهم في تحصين البوابات في الشرق، يزين قصر ملايين السنين.

كسابقيه من الحكام، وقع رمسيس بدوره في الفخ؛ فسوريا ـ إذا استثنينا السيطرة على فينيقيا الشديدة الثراء ـ ليست ضرورية لحياة مملكته؛ ولكن خلود مصر يستوجب التحكم بطرق الشرق! ألا تعرّض هذه المهمة المضجرة مصير البلاد إلى الخطر بينما المفترض فيها أن تحصّنه؟ وأي شعب مجهول سيخرج من هذه الأماكن الشاسعة المتروكة للأطماع في ظل غياب إمبراطورية شمالية توقف الأقوام البربرية بانتصار حربي رائع؟ ما كانت أبجدية أوغاريت تقوله بالفكر والتجديد الثقافي كانت الأسلحة الفلسطينية تؤكده بعنفها: فالتاريخ سيغوص في الهباء ويفقد معناه. كان هذا التاريخ ثابتاً حتى الآن في نظر الشعوب المعتادة على بطء التقدم والاتصالات، وكذلك لم يرد ذكر موت الحضارات في أساطير نشأة الكون.

كان هذا التسارع في تاريخ شعوب البحر الأبيض المتوسط يوحي إلى رمسيس بضرورة إعادة تنظيم مملكته بشكل عميق وأسلوب حديث؛ كما أن ازدياد عدد الشعوب التي تعيش على حدود بلاده محتشدة في أراضي ضيقة يجعل المدخل إلى الشرق مفتوحاً أكثر من ذي قبل، ومن جميع الجهات. لم يكن هناك شيء يوحي باستقرار الوضع قريباً، فازدياد الاضطرابات كان يسرّع التحويلات السياسية والتأثيرات المتبادلة بين الشعوب! كان على رمسيس أن يتقبل هذا التطور الحتمي دون أن يتأثر به رغم ذلك، فالقلاع السورية والأحلاف المعقودة مع ملوك هذه الإمارات كافية مبدئياً لتحقيق أمن الحدود. ولكن يجب أيضاً الحذر من الشعوب التي في طور التشكل، كالشعوب الآرامية السامية، هذا الشعوب الجسورة المستقرة في الواحات الصحراوية كواحة تدمر الجميلة، والتي تعيش من تجارة القوافل. لقد ظهر اسمها في لوائح بلاد الرافدين منذ الألف الثاني قبل الميلاد. وقد تشكلت أيضاً ممالك غير مستقرة تستطيع الوقوف في وجه جيرانها الأقوياء. لم تعد مصر تستطيع احتقار الشعوب التي ظهرت وتطورت حديثاً، فهي قادرة رغم كل شيء على الاستفادة مما قدمته التأثيرات المختلفة.

اندمج الآراميون في ثقافة بابل وفينيقيا وعقدوا مع مدنها اتفاقات تحالف عسكري في زمن الحروب، وأصبحوا قادرين على إظهار قوتهم لمصر. لقد انتهى زمن التمييز بين الإمبراطوريات الكبرى والأقوام الصغيرة الرحّل التي بالكاد كان الفرعون يقبل استعبادها فيما مضى مقابل بعض المراعي في وادي النيل. لقد شهد التاريخ المضطرب لهذه المناطق

بزوغ قوى جديدة، وأصبح من الضروري من الآن فصاعداً الانتباه إلى كل السلالات الجديدة وكل الشعوب الحضرية. هنا تنتهي العزلة المصرية وتُقلب صفحة تاريخ النيل القديم إلى غير رجعة. ففي عصر رمسيس الثالث تتبدد أوهام رمسيس الثاني الذي كان يعتقد بأنه ممثل وادٍ ذي وضع متفوق، لا يمكن لجيرانه من أصحاب السهوب الفقيرة أن يمسوه؛ وكان بالكاد مقتنعاً بضرورة معاملة إمبراطوريات الشمال، كالإمبراطورية الحثية مثلاً، معاملة الند للند.

لقد أصبحت مصر من الآن فصاعداً مملكة كسائر الممالك؛ صحيح أنها محمية جيداً وعدد سكانها كبير وتعيش بعيداً عن الاضطرابات، ولكن إلى متى؟ فخلف العشائر الآرامية التي أصبحت تشكل الجزء الأساسي من الشعب السوري يستطيع رمسيس أن يستكشف موجة جديدة صاعدة محتقرة حتى الآن، هي موجة المحاربين الآشوريين في شمال بلاد الرافدين، الذين يشكلون خليطاً من الشعوب السامية التي تقطن في أطراف الصحراء العربية وشعوب بلاد الرافدين الأكثر تطوراً. وتقع عاصمتهم نينوى في شمال الفرات، أما ملوكها فهم قادة مرتزقة مخيفون استطاعوا بعرباتهم الحربية بلوغ شواطىء البحر الأبيض المتوسط؛ وهذا فأل سوء بالنسبة لمصر. لن يتسنى لرمسيس الثالث أن يعلم بأن هذه الجيوش الشرسة ستكون أول من يطرح قوى شعبه أرضاً ويحول حضارة النيل المتعجرفة إلى أرض مستعبدة.

كان رمسيس الثالث محقاً إذاً في تخوفه من فراغ الشرق؛ صحيح أن جنوده يترصدون الطرق بلا جدوى، ولكنهم يفعلون ذلك في الاتجاه الصحيح. لن يظهر شيء في الأفق الآن؛ ولكن يبقى أن يوطد سيد النيل البناء المصري في انتظار حدوث الهجوم المتوقع. لقد دخلت مملكته دوامة الأمم ولم يعد أحد يشك بذلك. ولكن الصمت وفراغ الصحراء هما أسوأ عدوين بالنسبة للمصريين الذي ذاقوا مرارة الانحطاط.

الفصل العاشر

نهر وَ بَلَدَيْن

هاقد مر جيل كامل، بل أكثر،على حكم رمسيس لمملكته؛ وهو أمر لا يستطيع أي حاكم قبله التباهي به، طبعاً باستثناء رمسيس الثاني الذي يمثل القدوة السياسية والإنسانية بالنسبة لرمسيس الثالث والذي توفي عن عمر يقارب المائة عام. كان عمره الطويل يبدو وكأنه بداية خلود منحته إياه الآلهة العطوفة،فهذا العمر هو مدة استثنائية جداً في تلك الأزمان الغابرة!

كان رمسيس الثالث عازماً على إعادة بناء مصر بحيث يعطيها دفعاً جديداً يضمن استمرارها لألف عام، وبقي وحيداً أمام هذا التحدي الكبير الذي أخذه على عاتقه؛ ولم يكن يبدو أن هناك ما يعترض مصيره ومخططاته، ولكن عدم استقرار الشرق و عرضية التوازنات الدولية الكبرى في القرن الثاني عشر قبل الميلاد تنذر بالخطر وتجعله يستشف أهمية تقوية مملكته وتزويدها بالطاقة البشرية الكافية لجعلها قادرة على مقاومة العواصف. وكان على الحاكم أن يوجد نقاط دعم لسياسته هذه في نوبيا وشواطئ المتوسط، لذلك كان لا بد من بناء القلاع، فهي بالنسبة إليه بمثابة ضمان للأمن.

ومع تقدم السنين وازدياد خبرته شعر رمسيس بهشاشة هذه المواقع الدفاعية التي أثارت فيما مضى دهشة الأقوام الرّحل، أصحاب القوافل الذين يدفعون أمامهم النساء والأطفال وقطعان الخراف، كالعبريين المهاجرين مثلاً. فعندما يأتي جيش من الغزاة، يطوّق جزء من مقاتليه القلاع بينما يهرع الآخرون الذين يشكلون الأغلبية إلى داخل البلاد، تماماً كما فعل الهكسوس في القرن الثامن عشر قبل الميلاد. وأثناء حرب التحرير، اضطر فرعون طيبة الشاب احموزيس/ Ahmosis إلى استعادة القلاع في الدلتا الواحدة تلو الأخرى، وضحى في سبيل ذلك بأعداد هائلة من رجاله. فهذه القلاع أصبحت بمثابة نقاط قوة

بالنسبة للعدو المحتل. أضف إلى ذلك أن هذه القلاع لم تكن مجدية كثيراً في زمن الاضطرابات الليبية،قبل أن تحاول شعوب البحر القيام بالهجوم الكبير ضد الحكام الذين سبقوا رمسيس الثالث وضد رمسيس نفسه؛ ففي تلك الأزمان كان الرحل بارعون جداً في فن التسلل إلى داخل البلاد وتخزيبها دون أن تستطيع القلاع شيئاً آنذاك.

وكان الفلاحون من أكثر المتضررين، فهم فوق تعرضهم للنهب على أيدي هؤلاء الغرباء القادمين من الأفق البعيد، كان عليهم دفع ضرائب باهظة لصيانة الحصون. وكان جيران هذه القلاع يتذمرون أيضاً، فسكانها يلتهمون طعامهم وكأن هذه القلاع وحوش ضخمة هادئة وشرهة جداً في آن. وعلى مر السنين، بدأ التكاسل يخيم على هذه الحاميات، وأغرقها الروتين في الخمول فجعلها غير قادرة على مواجهة الأقوام الجائعة والمصممة على تجاوز الأسوار المنتصبة في وجهها.

لهذه الأسباب قرر رمسيس تقوية بلاده من الداخل، وذلك بالاعتماد على سكان الأقاليم في حماية مصر دون التخلي عن القلاع. وكانت الدلتا تشكل الجزء الأساسي من مخططاته، فقد خطر ببال الحاكم استخدام أولئك الذين هزمهم بالأمس لحماية مصر، وسوف يحاول أن يجعل منهم الورقة الرابحة الأساسية لمصر المستقبل. فمنذ بضعة سنين سمح الفرعون لشعوب البحر بالسكن في الأطراف المستنقعية أو الصحراوية من الدلتا، ولم يكن له أهداف سياسية من وراء ذلك آنذاك؛ ولكن فيما بعد منحهم الملك أراض للسكن وأراض قابلة للزراعة لأسباب سياسية، فكانت النتيجة أنه ولدت مدن جديدة وتحول آلاف الرجال وعائلاتهم إلى رعايا لفرعون في زمن قصير.

وهكذا اختلطت شعوب البحر مع أبناء النيل؛ ولكن هذا الاندماج لم يتم بين ليلة وضحاها. لم يكن لهؤلاء المهاجرين الذين جاؤوا من أراض جافة في الشمال خبرة في التصريف والسقي والأدغال المشبعة بالمياه، ولا بد أن الفيضان قد أرعب الكثير منهم؛ فالزراعة تختلف عن تحريك الرمح والسيف؛ ولكنهم استطاعو بعد ذلك حفر القنوات وحراثة الأرض، وقلبوا بمجارفهم الكتل السوداء الطمية التي أعطت لمصر اسم بلاد النعيم. لقد أصبح لهؤلاء التائهين المشردين أراض خضراء يمتد خضارها إلى ما شاء النظر، وأضحت الحملة التي قاموا بها ذكرى بعيدة لم يشهدها الكثيرين منهم.

كان حكام محافظات الدلتا يراقبون هؤلاء القادمين الجدد، فهم أيضاً ملزمون بدفع الضرائب حتى وإن كان النساخ يفضلون ترك عناء حل الخلافات مع هؤلاء الشعوب إلى قادتهم الذين تجري في عروقهم نفس الدماء؛ فالمصريون لا يزالون يذكرون جسارة هؤلاء

الرجال عندما واجهوهم في المعارك. ومع مرور السنين، لم يعد أحد يسمع عن هذه القبائل المبعثرة في محافظات الشمال الوحشية، فهي تحتل أراضي غير متطورة ولا تثير اهتمام المصريين البتة.

كان رمسيس الثالث يتابع أخبار استقرار هذه الشعوب باهتمام بالغ، فهو يفكر بضم عدداً من جنودها المحاربين إليه، ويأمل من جهة أخرى برؤية مصبات النيل محاطة بالحقول الخضراء كما في الجنوب. لم تكن جموع القادمين الجدد كبيرة إلى درجة إحداث تغييرات جذرية في نسيج سكان النيل القديم، وكان يبدو أن الفلاحين والصيادين في تلك المناطق غير مهتمين بوجودهم؛ ولكن منذ السنوات الأولى لاستقرار هذه العشائر ظهر التناقض بين أكواخها وعرباتها وبين قرى الفلاحين المصريين المبنية من الطين المجفف.

وهكذا بلغ رمسيس الثالث أول أهدافه، وهو إعادة التوازن بين شمال مصر وجنوبها بحيث يكون الأمر لصالح الشمال، لأنه ابن الشمال. وباستقرار هؤلاء المحاربين في الدلتا ستكون المناطق الثلاث المهددة بالأخطار الخارجية: الساحل والحدود الليبية ومدخل سيناء محروسة من قبل فلاحين قادرين على حماية أملاكهم. ولكن يجب القضاء على المستنقعات وتصريف المياه وجعل أكبر قدر ممكن من الأراضي التي تسقيها أذرع النيل قابلة للزراعة. لم يكن ذلك بالأمر السهل، فأذرع النيل تتباعد حسب ارتفاع الفياضانات وتنشر مستنقعات لا يمكن النفوذ إليها، وكذلك فلن يتم هذا العمل خلال عهد حاكم واحد، فقد أُهملت الدلتا لمدة ألفين عام ولازال هناك الكثير من الأشغال الواجب القيام بها! ولكن المهم هو الشروع في تمدين هذه الأماكن البعيدة، فالتاريخ يسير باتجاه الشمال بينما يسترخي الجنوب الذي يبجّله المصريون في محيطه الافريقي، بعيداً عن التيارات الحضارية المستوردة.

وتبقى طيبة العاصمة ، ويبقى الجنوب المكان الذي تتركز فيه المعابد الرئيسية والجزء الأساسي من السكان الذين يبلغ عددهم عدة ملايين، وذلك رغم وجود بي - رمسيس Pi - Ramsis وغيرها من المدن التي تفرض نفسها كمنافسة للعاصمة، ورغم الإهمال الدائم للمنفذ البحري. مع مرور السنين سيصبح الشاردانيون/ Shardanes من أصحاب المقامات في المملكة، وربما في الجيش أيضاً؛ وعندها ستستقبل مصر الرياح الحاملة للتغيرات وستتأثر بها. كان ذلك هو الثمن الذي ستدفعه البلاد من أجل بقائها، إذ عليها أن تجاري الدول الأخرى؛ ولكن ملكها حريص على التحكم بهذا الاندماج الذي أصبح متعته الباذخة الوحيدة من الآن فصاعداً.

في كل الأزمان كان فقراء الصحراء يحصلون على ملجأ في أطراف الوادي؛ ولكن

وضعهم كعبيد يختلف جداً عن وضع شعوب البحر التي بات المصريون يتقبلونها في عصر رمسيس. فقد تطورت عقلية الحكام والصفوة بعد أن اكتفت لزمن طويل بتقدير النبلاء فقط من ممثلي الحضارات الأجنبية، وبقبول آلهتها كبعل وعشتروت، واكتفى الفراعنة بإحاطة أنفسهم بمستشارين يزودونهم بالمعلومات اللازمة عن عادات وتقاليد الشعوب الأخرى وباستقبال السفراء بشكل جيد. لقد تم دمج العشائر الفقيرة بالشعب المصري بناءً على أوامر الحاكم، وهو تطور مهم سيؤدي إلى تقوية الدلتا. ولكن خليط الشعوب الذي تشكل في الشمال يقلق الحاكم وإن لم يعد هناك مجالاً للشك في خضوع أولئك التائهين الذين هزموا لمرات عديدة. ألن يصبح الجنوب مختلفاً عن الدلتا الجامعة لأجناس مختلفة والتي دخلت في دوامة شعوب البحر الأبيض المتوسط؟ فمن وجهة النظر هذه، سيؤدي إعادة التوازن بين المملكة بهدف توحيدها وضمان استمرارها إلى تجزئة المجموعة البشرية إلى مجموعتين تجهل إحداهما الأخرى، وسيشعر الفلاح المصري في الدلتا بأن هناك نقاطاً مشتركة بينه وبين القادمين الجدد أكثر مما بينه وبين أخيه الذي بقي معزولاً في الجنوب...

***

مضى عشرون عاماً على حكم رمسيس الثالث للبلاد، واقترب الملك العجوز من عامه الستين وهو لا يزال على عرش بلاده المستقرة والبعيدة عن خطر الحروب الأهلية. كان يرغب بجعلها قوية بما يكفي لمقاومة الأعداء في الخارج، وكانت الدلتا تبدو له أمل مصر المستقبل؛ وهو لم ينسى انبهاره بالجنوب وبثقافة طيبة وتقاليدها، ولكن ما يحدث في الجوار يجعله ينظر إلى البعيد ويتوهم أن سكان الدلتا من أبناء النيل هم من سيمنحه الأمل بعد التعب الكبير الذي لقيه.

لم تتغير مدينة حابو/ Medinet - habou على مر السنين، ولا يزال رمسيس يستقبل زواره فيها ببذخ يليق به. كانت عظمة القصر تذهلهم، فهناك قناة تربط القصر بالنيل مباشرة، وهناك الرسوم الجدارية التي تصف الانتصارات الملكية وتذكر بأمجاد رب البيت؛ أما أوراق أشجار الحدائق التي يمكن التكهن بوجودها من خلف الأسوار، فقد كانت تعد بالعيد والراحة. كان كهنة آمون يزورون الحاكم في مناسبات كثيرة،فهم رجال دؤوبين ولهم امتيازات ومكان خاص في البروتوكول الملكي، ولكن نهمهم للسلطة بات يضجر الحاكم.

أدرك رمسيس أن جنوب مصر أصبح على مر الأجيال منطقة نفوذ كهنة الآلهة المختلفة وعلى رأسها آمون. كان هؤلاء الكهنة يملكون الجزء الأساسي من مجموع

الأراضي. ولكن إن كان رمسيس قد أهداهم هذه الحقول ذات الأرض السوداء الخصبة فذلك لا يعطيهم الحق في التصرف كأسياد صارمين لا يعرفون التسامح. كان النساخ دائمي التشكي من رجال الدين هؤلاء، فسلطتهم باتت تثير الخوف،وبإمكان البعض أن يتساءل بحق عما إذا كان جنوب مصر لا يزال ملك ابن ستينخت! فرغم أن نصيب آمون من الهدايا أصبح أقل من نصيب الآلهة الأخرى لم تتغير الأمور كثيراً؛ ومع مرور السنين لم يعد رمسيس يستطيع بذل نفس المجهود كما من قبل لفرض احترام وصاياه؛ فقد استعاد كهنة آمون مجدهم بكل بساطة وأصبح بإمكانهم إلقاء الأوامر وجعلها تُنفذ، الأمر الذي أقلق مستشاري فرعون.

أصبح دوي المشادات والشائعات قوياً في مدينة حابو/ Medinet - habow ، وكان الكهنة في السر يقدمون دعمهم إلى أحد أفراد العائلة المالكة المستاء من وضعه. وقد استفادت تتي، زوجة الفرعون الثانية، من هذا الأمر وأصبح ابنها بنطعور/ Pentaour يتحدى بنظراته نصف شقيقه الذي سيخلف والده على العرش، والذي سيصبح اسمه في المستقبل رمسيس الرابع.

بعد أن أصبح رمسيس في الستين من العمر ـ وهو عمر طويل في ذلك العصر ـ بدأ الكهنة يطمعون بالميراث الملكي. لم يكن لرجال الدين هؤلاء نفس أهداف فرعون، فالمشروع السياسي الكبير الذي يهدف إلى تقوية مصر وإخضاعها إلى حاكم واحد فقط لا يمثل بالنسبة إليهم الوعد بأمور طيبة. صحيح أن السلام في الوادي يضمن لهم الثراء، ولكن وجود فرعون ذو سلطان كبير يلجم نفوذهم ولا تعود الولائم الكبيرة كافية لإرواء تعطشهم للسيطرة على أرواح الأمراء! فكلما كان الملك ضعيفاً كلما لجأ الشعب إلى الكهنة؛ وقد أضحت التيوقراطية ثابتة منذ حكم السلالة الثامنة عشر في الامبراطورية الجديدة، ولم يكن توت عنخ آمون سوى لعبة بين أيدي كهنة آمون... لقد استطاع الكهنة الانتقال من حماية مصالح مصر المتجسدة بإرادة الحاكم إلى التحكم بالعرش بسرعة كبيرة! وها هو رمسيس الثالث يتذكر بحذر حركات رجال دين طيبة عندما جاؤوا منذ ربع قرن يقدمون له الولاء ويحيّون فيه منقذ البلاد الخاضعة للغرباء ومغتصبي العرش.

ولكن الكهنة لهم دور في نشر الوعي الجماعي اللازم لاستمرار البلاد، فلولا الوحدة بين رجال الوادي لما وجدت مصر، ولولا قبول كل فرد في المجتمع لفرعون لما كان هذا الأخير يمثل شيئاً. فالفرعون،هذا السيد الذي يملك سلطات لا محدودة، هذا الطاغية المثقف، يستمد سلطته في الواقع من إيمان الفلاح البسيط بدوره النافع؛ والكهنة هم الذين ينشرون هذه الرسالة ذات الجوهر الديني بحماس كبير.

كان رمسيس يشك في احتمال تجرؤ أحد على مواجهة الملك الصلب والعنيد، ومع ذلك كان انعطاف الجنوب نحو التيوقراطية واضحاً جداً. كانت مصر القديمة تبدو غارقة في روتين يحرمها من المواهب الشابة، فأين امراؤها الشجعان الذين أسسوا الامبراطورية الجديدة، والذين لولاهم لاختفت مصر منذ القرن الثامن عشر قبل الميلاد؟ كانت بؤرة الحضارة هذه تبدو وكأنها عاجزة عن التطور، فالتيارات التجارية هي نفسها منذ قرون، والحقول تحدها نفس الهضاب الصحراوية؛ أما المدن، فهي رغم بذخها لم تشهد ثورات فنية وهندسية، إذ أنها متروكة بين أيدي الكهنة يستغلونها كيف يشاؤون ويملؤون مستودعاتهم بالمؤن والهدايا، ويتنازعون مع كهنة الآلهة الأخرى حول هذه الأرض أو تلك تاركين الوادي يفقد وزنه شيئاً فشيئاً.

وهكذا طغت المصالح الفردية على المصلحة الجماعية وبدأت روح مصر تختفي؛ فقريباً لن يبقى من بلاد النيل سوى الظاهر المهيب. كثيراً ما أثارت عصور الانحطاط هذه تساؤل المؤرخين، وكانت تذهلهم في معظم الأحيان؛ ومن المؤكد أن رجال تلك العصور التي انزلقت ببطء إلى الهاوية لم يستطيعوا أبداً إدراك الوضع في مجمله. ورمسيس كغيره من الملوك لم يستطع اكتشاف جمود الوادي وتحديد مداه في الوقت المناسب، فكل ما فعله هو محاولة الحد من مكانة الكهنة وجعل النساخ يبذلون المزيد من الجهد، ولكنه من جهة أخرى كان يبالغ في تقدير بلاط طيبة وأعطاه الكثير من ضمانات الوفاء.

من سيكون الفرعون غداً؟ هل هو رمسيس الرابع أم أمير آخر قوي بما يكفي لإزاحته عن العرش؟ هذا الاحتمال الذي يشكل أزمة سياسية لم يمنع بالتأكيد كبار كهنة آمون من النوم براحة بال في ملحقات معبد الكرنك الفاخرة. فما يهمهم هو معرفة حجم الثقة التي سيمنحهم إياها سيد الوادي الجديد. كيف لهم إذاً أن يفكروا في المصلحة العامة وأن يقلقوا بشأن حماية حدود الدلتا أو إقامة توازن بين كل المحافظات التي تعج بالسكان أو تلك الغنية بالمستنقعات،أو تلك المفتوحة على أفريقيا أو فلسطين؟ لم تعد روح الرجال قادرة على بعث الاطمئنان في نفس الحاكم العجوز الذي يقترب من النهاية، وقريباً سيتحول حلمه إلى كابوس.

هل أدرك رمسيس أن حلم شبابه في إحياء تراث طيبة لم يعد يتواكب مع سير التاريخ؟ فطوعاً أو كرهاً ستخسر مصر القديمة المعزولة في واديها الجميل معركة الحضارات. لذا يجب فتح المملكة لاستقبال تأثيرات الشمال، وتطوير العلاقات الاقتصادية مع سوريا، والقلق بشأن البحر الأبيض المتوسط وما يحمله من مفاجئات.

ما اكتشفه رمسيس الثالث العاشق للتراث القديم متأخراً تكهن به التجار والحرفيين

منذ زمن طويل. ولكي يقتنع المرء بذلك يكفي أن ترسو سفينته في الميناء النهري لأحد أذرع النيل وينظر كم أصبح عدد البيوت الآجرية كبيراً خلف أسوار المدينة، وكم من شارع عريض مظلل بالأشجار ومحاط بالأبنية تم شقه؛ ولينظر كذلك إلى مخازن الحرفيين كم أصبحت غنية ومتخمة بالمنتجات. لم تعد الدلتا ملك نفسها، فقد اندمجت بسوق البحر الكبير الذي يحمل التطور ويربط البلاد ببعضها: اليونان بالنيل وسوريا بالأناضول. لقد فقد النيل دوره بينما سطع نجم البحر الأبيض المتوسط، الذي أصبح محاطاً بممالك وشعوب قادرة على تبادل الخيرات والتقدم التقني، بل وحتى الفني.

كان الملك العجوز الذي يسعى لتجديد شباب بلاده ولتخليد اسمه في التاريخ يجد في الدلتا فائدة أخرى هي عدم سيطرة الكهنة الجشعين على الأرض والرجال فيها. فرجال الدين في ممفيس وهوليوبولس استطاعوا استعادة أهميتهم واستدراك تأخرهم في هذا المجال بالنسبة لكهنة آمون، أما في الشمال فقد كان تأثيرهم لا يزال ضعيفاً. كانت كثير من أراضي الدلتا تابعة للمعابد، ولكنها لا تمثل الجزء الأساسي من الثروات؛ فهنا يملك فرعون احتياطي من القوة، وهو هنا سيد العمل ويستطيع التحرك كيف يشاء ودون أن يضطر إلى اتخاذ احتياطات؛ لذا يجب الاستفادة من هذه القوة وبدء تشغيلها.

كانت مصر بحاجة بالدرجة الأولى إلى جنود للتعويض عن قوى شعوب البحر المرتزقة؛ فقد يساعد الرجال الجسورين الذين ولدوا على ضفاف النيل الجنود الأجانب القادرين على الاتفاق مع حكام آخرين إذا ما تبين أن الأرباح التي سيجنوها من وراء ذلك كبيرة بمستوى آمالهم. لذا تم استدعاء الكثير من أبناء محافظات الشمال إلى معسكرات التدريب. لم تثر سياسة الفرعون هذه الحماس، هذا أقل ما يمكن أن يقال؛ ولكن هل كان أمامه الخيار وهو يرى الجنوب يفلت من سيطرته؟ لقد بدأ الحقد يغذي قلوب أبناء الدلتا ضد الحاكم الذي ولد في هذه الأراضي ذات الطبيعة الوحشية، التي يتطلب تصريف مياهها جهداً جباراً.

بعد أن تم اختيار الجنود أصبح من الضروري تزويدهم بالعتاد اللازم، وكانت المدن التجارية هي التي ستتحمل هذا العبء، حيث انهالت الضرائب على المستودعات ومتاجر الحرفيين، وكُلفت بعض السفن بالإشراف على مراقبة أذرع النيل. لم يخف ازدهار الدلتا من جراء هذه العمليات، ولكن الجميع بدؤوا يعتقدون أن رمسيس الثالث أصبح مجنوناً للقيام بهذه التجهيزات العسكرية في زمن السلم. هل تنبّه القائد إلى أمور لم يدركها الآخرون، هل يستطيع أن يكون على صواب دون أن يفقد ثقة الجموع؟ مهما يكن لقد أدى تصرفه هذا إلى زيادة تذمر الشعب.

لم يكن رمسيس يستمع لهذه الشائعات،فهو واثق من صحة أفكاره، ويجب أن تطيع الدلتا وإلا ستفقد البلاد قوتها. لم تعد أذرع النيل تمثل فقط الحدود مع البلاد البربرية، فقد أوشكت أراضي الدلتا الواسعة أن تصبح قلب البلاد، ويجب أن تصل إلى هذه المرتبة خلال بضعة فصول وأن تحوي حاميات عسكرية وأسطولاً حربياً، وأن تتطور مدنها وقنوات الاتصال فيها. كان الوقت يعمل ضد فرعون،وجولاته التفتيشية في الدلتا تؤدي إلى المزيد من الأوامر والأعمال التي تحتاج إلى الذهب واليد العاملة.

* * *

كان النساخ منذ الامبراطورية القديمة يتخذون وضعية تمثلهم وتنقل أشكالهم للأجيال القادمة؛ فكانوا يتربعون والقلم في أيديهم، ويتركوا للنحات عناء نحت أشكالهم في تماثيل توضع في قبورهم. كانت طبيعة الملكية الفرعونية تعتمد كثيراً على وجود هؤلاء النساخ، فلولاهم لعمت الفوضى بكل تأكيد، فهم كالكهنة يساهمون في العمل على نشر النفوذ الملكي ويستفيدون منه، ويجعلون علومهم في خدمة المفهوم الذي يقتضي بأن الفرعون رجل لا تتحكم فيه الطبيعة البشرية المعرضة للخطأ، وأنه يسيطر على كل الضمائر... هذا المفهوم كان يعتبر جديداً في العصور المغرقة في القدم.

وهكذا فإن العلاقة بين الفراعنة والنساخ تعود إلى عصور ما قبل التاريخ، إلى العصر المجدلي حيث وجِدَ الساحر في المجتمعات القبلية. ويعتبر النساخ قادمين جدد بالنسبة للكهنة،فهؤلاء الأخيرين ظهروا أولاً بسبب الحاجة الملحة إلى تفسير العلاقة بين الإنسان والعالم، ولهذه الأسباب ظل وضعهم ثابتاً. والنساخ هم أكثر المستفيدين من الطبقية في المجتمع، فقد ولدت الطبقية مع بداية التحضر في الألف الثامن قبل الميلاد في الشرق الأوسط، وتأخرت عن ذلك بضعة آلاف من السنين في الغرب. ومع بداية النشاط الزراعي أصبحت الطبقية حتمية، حيث يتم اقتطاع جزء من الانتاج لمنحه للصفوة؛ فالصفوة تقوم بدور سام هو التعبير عن إرادة الآلهة كما يفعل الكهنة. ولكن دور النساخ الأساسي هو النطق بلسان العائلات المستقرة في الحكم.

والملك أيضاً يستمد سلطته من تراكم الثروات، فهو يصادر جزء من كنوز الجماعة إما بقوة عشيرته أو بسبب الهالة المحيطة به، وربما أيضاً بسبب مكانته المتميزة كقائد حرب. وهو يدير هذه الثروة باسم أتباعه المخلصين ويستفيد منها لفرض جزية على كل الفقراء أو المساكين الذين يقعون تحت قبضته! وعلاقة العنف هذه ليست جديدة؛ فالصيادون في عصور ما قبل التاريخ كانوا يتنازعون فيما بينهم على أراضي الصيد؛ ولكن التحضر والنمو

السكاني الذي نتج عن النشاط الزراعي أدى إلى تنظيم هذه المجموعات الإنسانية. وتعود الحروب الأولى بالمعنى الحديث. أي استغلال منطقة تابعة للعدو وذبح سكانها وسرقة الثروات المتراكمة في مخازنها - تعود إلى هذه العصور، وقد أعطت الحرب حجة للملكية لتبرير وجودها،حيث تتذرع بضرورة تنسيق القوى في مواجهة الصراعات الناتجة عن اصطدام المجموعات الإنسانية الكثيرة العدد ببعضها البعض. ولكن لحسن الحظ إن الإنسان متشابه في كل مكان،فعملقة الملك الاجتماعية تتحجم نوعاً ما عندما يضطر إلى منح جزء من سلطته إلى عدد كبير من أولئك الذين سيقومون بمهمة التعبير عن إرادته بحماس ويحصلون على دخل منه.

ظهر الناسخ في بلاد الرافدين ومصر قبل أربعة آلاف عام من ولادة المسيح، ثم ظهر في الصين بعد ذلك بقليل؛ وكان مكلفاً بنقل صدى أفكار الحاكم إلى الجهات الأربع من البلاد، وبتصوير مخططاته بطريقة تتناسب مع العادات المتبعة آنذاك. ويبلغ عدد النساخ في مصر عدة آلاف، فهم يشكلون جيشاً يجب على رمسيس الثالث أن يهتم بأمره ليضمن سيطرته عليه، بعد أن استطاع مؤخراً الهرب من تأثير الكهنة.

أصبحت الأمور تتطور في اتجاه واحد غير قابل للانعكاس.. فالناس من الآن فصاعداً ينتمون لهذه الطبقة أو تلك؛ ولن تدع المجتمعات القديمة مكاناً للطموح الشخصي، وإن كانت النصوص المصرية أو الرومانية تذكر باستمرار النجاح الباهر لأحد العبيد القدماء، فهذا العبد يجب أن يكون خادماً لدى أحد ذوي النفوذ،وهو بذلك يعيش في ظل السلطة!

كان نساخ الدلتا وطيبة وكوتبوس/ Coptos يستمدون غذاءهم الفكري من التراث القديم؛ فبالإضافة إلى ما يتعلمون من دور الحياة هناك الأحاديث التي يرويها لهم الأجداد، النساخ مثلهم. وليس هناك أسوأ من تعجرف حركات الناسخ الذي يضع القلم في الحبر وهو واثق من قدرته على تجاوز الزمن والأمراء الفانين! ولم يكن الناسخ ليهتم بفناء الأمراء، فمهما يكن الأمر سوف يدفع خليفة الحاكم المتوفى، شرعياً كان أم لا، أتعاب النساخ أولاً كضمان إخلاص ووفاء.

لم يعد لتاريخ ظهور النساخ الذي تحتفظ به البرديات القديمة أهمية في زمن رمسيس الثالث، فالملك يعرف فائدة هؤلاء الخدم المكلفين بنشر أوامره والعمل على تطبيقها وحفظها للأجيال القادمة في المباني التي شُيّدت لمجد الحاكم أو الآلهة، والمكلفين كذلك بتسجيل المراسيم الملكية وتصنيفها لتشهد على حكم الملك... في الواقع، لم تعد الذكرى والكلمة المقدسة التي من أجلها اخترعت الهيروغلوفية المهمة الأولى للنساخ في عهد ابن سيتنخت... فقد تعقدت الدولة الفرعونية وولدت مهام جديدة أصبح القائمون بها من

أصحاب المقامات، وافتُتحت لهم مكاتب أضيفت إلى اللائحة الطويلة لخدمات القصر الملكي. كانت هذه المكاتب تظهر في كل عقد من السنين، وكان المشرفين عليها يتناولون اللحوم والحلوى المصنوعة من الدقيق الناعم والعسل، وغيرها من الأصناف التي يقوم بتحضيرها الفلاحون التابعون لهم! لا بد أن رمسيس كان يعلم أن رجال الفن هؤلاء، الواثقين من قوتهم، سوف يطالبون بالمزيد من الأموال والأراضي والتشريفات لسلالاتهم الصغيرة، وسوف يسعون قريباً إلى مطالبة حكام محافظاتهم وقادة فرق الجيش بدفع أجور لهم، وينسوا دونما خجل مهمتهم في توحيد مصر الكبيرة. سوف ترى مصر هؤلاء النساخ ينقضّون على خيرات الشعب كأسراب الجراد ويقوّضون البناء السياسي المتواجد منذ ثلاثة آلاف عام بلمح البصر. عندما سيحصل ذلك سيكون رمسيس الثالث آخر فرعون جدير بهذا الاسم.

وكما تقتضي الأمور، أصبح الناسخ من الآن فصاعداً يملك جزءاً من السلطة، رغم ظهوره الدائم أمام الملك بمظهر الوضيع المنهار وهو يضم يديه النحيلتين كقصب المستنقعات إلى بعضهما البعض. في تلك الأزمان، لم يكن النساخ ينقلون كلام الملك وأوامره بأمانة ودون تحريف، ففي القرن الثاني عشر قبل الميلاد كان كبير الخدم المشرف على عبيد القصر وحاكم المحافظة المسؤول عن جميع مشاكل المنطقة ومختلف محصلي الضرائب والمشرفين على الأعمال يتصرفون في كثير في الأحيان دون أمر من الملك. وكيف للحاكم أن يقرر مصير قناة يملؤها الوحل في ممفيس أو أمر تصريف مياه مستنقع في الفيوم؟ ففرعون يدير البلاد والنساخ يحكمونها! وعندما يتولى ملك كبير السلطة، يسهر أقاربه على جعل النساخ يحترمون الأوامر؛ ولكن إذا جاء ملك سَمِح وتربع على العرش المزدوج، يبدأ الناسخ بالتباهي بسلطته ويسعى لزيادة ثروته بفرض نسبة من الضرائب أكبر من تلك المطلوبة، ويستغل اليد العاملة لبناء قبر له ويلهيها عن أعمالها. كان يفعل كل ذلك دون أدنى خوف، إذ أنه يستطيع إسكات كل الأسياد الصغار بالمال الذي حصّله من الفقراء المعدمين.

لن يستطيع الفرعون الاستغناء عن النساخ سواء ارتاب بهم أم لا؛ وسوف يزداد عدد أصحاب المقامات في عهد رمسيس الثالث، فهو لا يريد تقليص الطبقة المفكرة وخاصة بعد أن رأى لا مبالاة أبناء الوادي تجاه مشروعه الذي يهدف إلى إحياء شباب بلاده الهرمة. ولكن النساخ سيقومون بمطاردة القرويين في كل المحافظات؛ فكل شخص يتمتع ببعض السلطة يسعى إلى إحياء الهرم الإنساني الصغير المؤلف من الخدم التابعين له، ويكون هو المسؤول عن نتائج عملهم؛ أما الحاكم فهو يجلس على رأس هرم المستشارين الملحقين بالبلاط الملكي.

يا له من طموح رهيب! ولكن هل يملك رمسيس وسائل أخرى للتحكم بملايين الرجال؟ فبعد ثلاثين سنة من الحروب الأهلية قرر الفرعون منح الطغاة المحليين بعض السلطات،حيث سيحصل حكام المقاطعات على تشريفات، وكذلك قادة الجيش في معسكراتهم، وسيُكلف كبار النساخ بأعمال ويُمنحون سلطات واسعة. وهناك أيضاً وزيري فرعون اللذين سيتوليان أمر الشمال والجنوب وسيكونا نسخة عن الملك ويصدران الأوامر قبل أن يخبراه بالأمر. ولكن ماذا لو عمل أحدهم لمصلحته الخاصة؟ هل سيكون النساخ مختلفين عن الكهنة؟ هل سيريدون، هم فقط، عظمة البلاد؟ إذا كان هناك سمة دائمة لعصور الانحطاط سنجدها حتماً في انتهازية الرجال وميلهم إلى مصالحهم الشخصية. وفي بلد يتمتع بمركزية الحكم وطبقية كمصر الفرعونية، سيؤدي ذلك حتماً إلى انهيار النظام كله!

الفصل الحادي عشر

الخَونَة

تمضي الشهور،ويصبح رمسيس الثالث عجوزاً، ويصبح عهد ستينخت وملحمة تحرير مصروكابوس الحكام الصغار ذكرى بعيدة. عندما كان الرجل في تلك العصور القديمة يبلغ الثلاثين من عمره، كان يعتبر في شرخ الشباب؛ وهو عمر لم يكن رمسيس قد تولى فيه الحكم بعد؛ وعندما يبلغ الملك الأربعين يعتبره أبناؤه الذكور شيخاً جليلاً، أما في الخمسين،فعليه أن يشكر الآلهة على منحه الحياة الطويلة. كان المرض، أو مجرد انهاك الجسد الذي كان يتعرض لآلام في تلك الأزمنة أكثر مما يتعرض لها في أيامنا،يجعل الرجل في سن الستين متعباً ويتطلع إلى الراحة. وكان الابن البكر لفرعون، رمسيس الرابع، قد بلغ العمر الذي يؤهله للحكم منذ عدة سنوات؛وقد أشركه أبوه البعيد النظر في العرش، ولكنه بقي ممسكاً بلجام الأمور بحزم،تسيطر عليه فكرة ثابتة هي الانتهاء من تحديث مملكته والموت براحة ضمير بعد تأمين مستقبلها الهائج من مخاطر التاريخ!

لم يعد الملك يظهر كثيراً في البلاط، وأصبحت عربته لا تقاس بالعربات الأخرى المعدة لصيد الأسود. ولكن ما فائدة الوحوش التي تم إحضارها له من أعماق سهول السافانا السودانية إذا كان سيد الوادي يبقى حالماً وبالكاد يهتم بعدو الحيوانات الجنوني عندما يتم مطاردتها؟بات الحاكم يقبع في قصره ليرتاح في حدائقه الرائعة، ولكن النساخ لم يكونوا يجرؤون على انتزاعه من تأملاته،فقد بدأ التعب يظهر على محيا هذا الرجل الذي باركته الآلهة، وأصبح مصيره الذي كان براقاً حتى الآن يقلقه في الوقت الذي بدأت فيه أحلامه تتحقق.

كان الجميع في مدينة حابو/ Medinet - habou يتأملون وجه الحاكم المليء

بالتجاعيد وظهره المنحني باهتمام بالغ. لقد مات الكثير من أبنائه ودفنوا في وادي الملكات بعد أن دفعوا للمرض ضريبته المعتادة في سن مبكرة. ولكن مازال هناك ما يكفي من الأمراء في عائلته لتأسيس سلالة صلبة، حتى ولو مات ابنه الأكبر واختفت ذريته كلها.

تبدو مصر بالنسبة لحكام الأقاليم مملكة مستقرة قائمة لألف عام؛ ويستطيع رمسيس الثالث أن يحتفل بفخر بعيد ميلاد حكمه الطويل. عندما سينقل انوبيس/ Anubis روح هذا الملك الذي يعتبر من أفضل من خدم معبد الأرباب إلى العالم الآخر، لن يخاف رمسيس من نظرته السوداء ولن تخيفه كذلك قرون الإله ابن آوى؛ بل على العكس، فهي ستمنحه الثقة قبل البدء بمحاسبة الأرواح. وكسابقيه من الحكام والمصريين من أبناء العائلات النبيلة، لن ينسى رمسيس الثالث أن يأمر بنسخ مقاطع من كتاب الأموات على جدران تابوته،فالتقاليد لها ضرورياتها التي لا يمكن إهمالها.

كان الكهنة والمثقفون متفقين على أن هذا الملك العجوز يستحق عرفان الآلهة أكثر من أي حاكم آخر، ولو استمر الحال على ما هو عليه لبضعة سنوات فقط، لكان رمسيس قد انتقل إلى بلاد يالو/ Ialou بهدوء وطمأنينة، ولاعتبره الجميع التوأم الناجح لرمسيس الثاني.

ولكن العاصفة هبت في هذه السنوات الأخيرة الهادئة من الحكم، وكانت كضربة صاعقة هزت العرش وشكلت أول شق في جدار البناء الملكي الجميل! ففي منتصف القرن الثاني عشر قبل الميلاد أعلنت مقاطعة اتريبيس/ Athribis في قاعدة الدلتا العصيان على سيد الأرضين المبجل. هل كان التمرد متوقعاً، هل كان الملك يشك بتلاعب محافظات الدلتا وبدسائس الجواسيس فيها، أو بخيانة ناسخ يشعر بتأنيب الضمير؟ لقد أبقى التاريخ هذه الحقبة في الظل، ولكن ثورة مدينة اتريبيس/ Athribis غرست الخوف في قلب آخر فرعون عظيم وبددت أوهامه.

ولكن ما جعل الملك يشك في إنجازاته أكثر مما فعلت هذه الثورة التي تُعتبر حدثاً مدهشاً في بلد يتحكم فيه الملك بحزم هو محرّض، أو بالأحرى مرشد هذا الهيجان الشعبي: فالوزير المسؤول عن شمال مصر هو من قام بقيادة المعارضة بنفسه وهو من وجّه الإهانة لسيد البلاد دون خجل أو خوف.

لقد حدثت المأساة في مدينة اتريبيس/ Athrisbis الدلتاوية، ولكن كان من الممكن أن تحصل في أي مكان آخر؛ فالمدينة الصغيرة لم تزود الحوليات التاريخية بأي شيء خاص

عنها، وقد تطورت ككل مدن المنطقة خلال الامبراطورية الجديدة، مستفيدة من التآكل الاقتصادي في الجنوب. وهي تقع عند قاعدة الدلتا بين ممفيس وهوليوبولس، وتشهد مرور التجار والقوارب المسطحة في النيل الذي يبدأ بالتشعب فيها إلى عدة أذرع. على مقربة من هذه المدينة سيأسس العرب المسلمون بعد ثلاثة آلاف عام عاصمتهم القاهرة،وهو برهان على موقع اتريبيس/ Athribis الممتاز كضيعة تحظى بعناية الآلهة. كانت التجارة فيها مزدهرة وأسواقها تعج بالمؤن، ففيها توجد الطيور الداجنة السمينة التي تتغذى من الأرض السوداء، والأسماك الكبيرة وغيرها من الطرائد المائية التي يصطادها الصيادون بمهارة وهم جاثمين على قورابهم الضامرة. ما الذي ينقص أبناء هذه المدينة إذاً؟ فهم أقل بؤساً من الفلاحين الذين كانت القصص تروي آلامهم وشكواهم عبر الأجيال، وتشهد على ما عاناه هؤلاء المساكين من ضغط النساخ ونهب الجنود وضربات عصي القضاة، بل وحتى من سعار أسراب طيور الزرزور التي كانت تتهافت على حقولهم وتقضي على الفاكهة الطازجة فيها!

كان الموقع الجغرافي لأتريبيس/ Athribis في نواحي ممفيس قد منحها مرتبة مشرفة بصفتها قريبة من المدن المؤسسة للحضارة المصرية؛ فهي ليست ضيعة رملية مغبّرة تقع على تخوم نوبيا حيث بالكاد يستطيع حرفيي الورشات الملكية صنع شيء، وليست أيضاً موقعاً حدودياً بسيطاً في الدلتا معرضاً لأطماع النهابين الليبيين. لا بد أن كل شيء فيها يستنشق السعادة والسلام في ظل رعاية سيد الأرضين ومبعوثيه؛ فعدد سكانها يزداد باستمرار بحيث يكفي لإغراق الشوارع التي شقها الفراعنة السابقين،أو بالأحرى الحكام المحليين، بالناس،ويكفي كذلك لتطويق أسوار المعابد. كان الفلاحون يهرعون إلى نواحي هذه المدينة والمدن المجاورة لثرائها ولتوافر فرص العمل فيها. ومع ذلك كانت المكان الذي تفجّر فيه الغضب الشعبي بعنف فطيع، دل على الضيق العميق الذي عانى منه المجتمع المصري في نهاية الامبراطورية الجديدة؛ تفجّر العنف في المكان الذي لم يكن أحد يتوقع أن يحدث فيه شيء من هذا القبيل.

ربما كانت ثورة هذه المدينة رمزاً لغضب الدلتا التي رغم ازدهارها يعاني أبناؤها عاماً بعد عام من سوء المعاملة بسبب الاصلاحات التي بدأ بها رمسيس الثالث. لم تجرؤ أية مدينة حتى تاريخ هذه الثورة على القيام بما يثير الشك في نفوذ الحاكم، باستثناء البلاد المحيطة،أوالمحتلة نوعاً ما، كنوبيا. ولكي تجد ذاكرة النساخ مثل هذا التفكك يجب أن تعود إلى الاضطرابات التي حدثت في نهاية الامبراطورية القديمة. كانت الضرائب تزداد بمعدل

زيادة متطلبات رمسيس الثالث، والمصادرات تطال حتى مناضد الباعة، وكان على النساخ أن يعملوا على إرضاء السلطة الملكية حتى ولو أدركوا تصاعد لاشعبية الحاكم، فهذا الأخير المعزول في مدينة حابو/ Medinet habou لم يستطع التكهن بما سيحدث، فقد كان غارقاً في صراعه مع الزمن.

هذه المعاينة الأولى لثورة اتريبيس/ Athribis تكفي لرسم حدود عمل رمسيس الثالث، فهو قد بلغ هنا نقطة اللاعودة بالنسبة للمتطلبات التي يمكن أن يفرضها الفرعون على شعبه. هل كان ليقدر على إجبار آلاف الرجال على بناء إهرامات الجيزة الأسطورية، المنتصبة على بعد عشرات الفراسخ نحو الجنوب؟ كلا بالتأكيد؛ لأنه إذا كانت مدن الدلتا لا تزال تبجّل ابن الآلهة، فإن مصلحة كل مجموعة إنسانية، كالنساخ أو الحرفيين أو حتى الفلاحين الذين اتحدوا فجأة، أصبحت تتغلب على المصلحة العامة. لقد بدأ أبناء شعب فرعون يفقدون شيئاً فشيئاً الشعور بأن أعمال الملك هي تعبير عن إرادة البلاد، وهو تطور جوهري يعتبر كسر حقيقي للتوازن الذي بلغه الوادي منذ ألفين عام. لقد بدأت هذه الأزمة في التشكل منذ زمن بعيد، فتاريخ تطور العقليات يسير على إيقاع مختلف عن التطور السياسي.

أصبح المصري يهتم بمصلحة أقاربه ومدينته أكثر من الإخلاص للفرعون، وهذا التغير الكبير في المجتمع يُظهر تقاربه الفجائي مع بعض شعوب حوض البحر الأبيض المتوسط التي كانت حينها في طور التشكل، كالأخيّون والاترووريون، ثم تجمعت بعدها، في ممالك صغيرة تخضع لسلطة جوار قريب في نمط حياته من حياة الرعايا، وشكلت صيغة سياسية جديدة هي صيغة الدولة ـ المدينة. وهكذا يكون لظهور ملك المدينة علاقة بالأزمان المضطربة والمجموعات الإنسانية التي تجزأت إثر الغزوات الهندية ـ الأوربية على كل شواطئ البحر الأبيض المتوسط؛ وسيكون ظهوره بمثابة قاعدة لتاريخ المستقبل، حيث ستحل مجموعات سياسية جديدة محل تلك الأكثر صلابة وقوة، وسيظهر مفهوماً مختلفاً تماماً للعلاقة بين الرعية والحاكم. وإذا كانت الامبراطوريات الآشورية ثم الفارسية تشكل خروجاً عن هذه النزعة، فهي لن تحظى بالعمر الطويل والاستثنائي الذي حظيت به الامبراطوريات المصرية أو البابلية الأكثر قدماً.

لقد انقضى زمن الامبراطوريات الضخمة دون أن يشعر أحد بذلك، ولا حتى رمسيس المتربع على رأس الجبل الإنساني الكبير الذي تمثله مصر، والغارق في أفكاره البعيدة عن الاهتمامات الانسانية. وبالمقابل، أصبح زمن المدن قريباً؛ فهناك قرطاجة

الإفريقية التي بناها الفينيقيون،وميسينيا/ Mycenes اليونانية وطروادة الأسطورية وغيرها من مدن منطقة ليسيا Lycie أو كاريا Carie . وسوف تتطور هذه المدن حسب إرادة التيارات الإنسانية لشعوب البحر الأبيض المتوسط، هذا البحر الذي سبب خللاً في التوازن المصري لعدم قدرة بلاد النيل على مواكبة التطور والقيام بالإصلاحات اللازمة في الوقت المناسب. فحتى روما العظيمة سوف تؤسس امبراطوريتها بناءً على موافقة جموع المواطنين المتجانسة! كان رمسيس على وشك خسارة معركته مع الزمن، فالوقت يمر بسرعة وعليه العجلة؛ ولن يفيده توبيخ النساخ ولا ذكائه الشديد وتسلطه المتطلب في فعل شيء لكسب هذا الصراع.

تصف لنا الشواهد النادرة عن ثورة اتريبيس/ Athribis انقضاض الجموع الفجائي على كل ما يخص الإدارة الفرعونية، حيث تم نهب كل المباني العامة والمعابد الكبيرة، وسُرقت كل التماثيل وكنوز الآلهة ومؤن المستودعات الملكية. فجأة، اكتشف المصري اللامساواة المفجعة بحقه والفائض الرهيب من الثروات التي حولت بمهارة إلى تماثيل ذهبية وحلي وأثاث مرهف لتتمتع بها الأقلية المفكرة.

وامتدت الاضطرابات إلى الجوار وشملت المخلصين للفرعون الذين لم يرحمهم الهياج الشعبي، وانهار أساس القوة الملكية الذي تم بناؤه بصبر خلال سنين عديدة بلمح البصر، مبرهناً بانهياره هذا على هشاشة هذه الملكية التي يجب أن يكون رضى الجميع فيها أساسي لضمان سلطة الحاكم. لا بد أن أبناء هذه المدينة المزدهرة الذين كانوا يعانون من ضغط كبير قد عبّروا في هذه الثورة عن غضبهم لحرمانهم من الثروات التي تجعل الناس يهرعون إليها ويقفون على عتبة أبواب الأثرياء. لم يعد ذكر اسم الفرعون يستدعي المديح، فقد أصبحت ذكرى انتصاراته على شعوب البحر بعيدة، وقد مضت سنين عديدة على مرور موكبه عقب معركته معها؛ ولم تكن اتريبيس/ Athribis تفكر في السخرية من عظمة الحاكم، فقد انضمت حينها إلى جموع المتحمسين الذين كانوا ينتظرون مرور الموكب الملكي في طريقه نحو طيبة والمجد. ولكن المدينة تحترق اليوم،والشعب يحطم الحكم.

لو كان عدم الخضوع يحمل في أحشائه بذور الثورة لكان أدى فقط إلى بعض الاضطرابات الصغيرة، ولكن مأساة اتريبيس/ Athribis ترافقت بخيانة أتباع الحاكم، بخيانة الوزير العاصي، الذي حفظ التاريخ صورته كرمز لجهاز الدولة المستفيد من حظ كبير. هل حرّض على الثورة، أم استغل هو وأتباعه كره الجموع للحاكم على أحسن وجه؟

في جميع الأحوال، لم يتردد هذا الرجل الذي يمثل صوت الفرعون في قيادة التمرد. ولا تساوي دهشتنا شيئاً أمام غل رمسيس الثالث، فالوزير الذي عينه بنفسه في هذا المنصب، والذي لا يمتلك مبرراً لفعلته، يجرؤ على تحديه أمام أعين الشعب عامة. لقد أثارت خيانة هذا الرجل الذي كان يتمتع بحظوة لدى الملك ويستمد مجده من مكانته لديه، والذي يجسد من ناحية أخرى ثقة الحاكم في شخص بعيد عن الخلافة، أثارت خيانته هذه دهشة مدينة حابو/ Medinet - habou ؛ ولكن والحق يقال، لم تشعر البلاد بالأسى.

استدعى رمسيس أبناءه الأمراء وكلف رمسيس الرابع الذي يجسّد الوفاء نفسه بالاستعداد لإعادة فتح الدلتا، وأقسم الآخرون على الإخلاص، وأخذ الحريم يتحسر ويتأوه كما تفعل الأرامل. ولكن هنا كان الكثير من الكهنة وأصحاب المقامات يعلمون بأن تهور الوزير يفتح الطريق أمام الطموحين. لم يكن الملك العجوز الذي يعيش في برجه العاجي ويحتقر المنافقين الذين يرتادون البلاط، لم يكن ينظر في أعين هؤلاء الطموحين الذين تخفي نظراتهم بشكل سيء غيظها من حكمه الطويل. لقد أنهك هذا الرجل، فالمجد والثروة وحياته المشربة بالمدائح أدت إلى إفساد مزاجه، وها هو في ساعة التحدي المتأخر يتردد قبل أن يتخذ القرار بمواجهة السفيه على أرضه. يالسخرية القدر! فالدلتا التي وضعت الحاكم على عرش طيبة تهدد الآن بعزله. لكأنه يواجه حكم الآلهة قبل أن يُغلق تابوته على جثته المحنطة.

كيف استطاع فرعون أن يجد القوة اللازمة للقيام بآخر حملة عسكرية في تاريخ حكمه بعد أن توقف عن الحروب لمدة خمسة عشر عاماً؟ كان الرماسيس رجال صلبون، وكان الغضب يحرك الملك، ولكنه لم يكن يثير الحماس لدى المحيطين به سواء في مكاتب النساخ أو في البلاط؛ فالجميع يطيعون الأوامر بحكم العادة لا غير. لقد تعبت مصر وهرمت كسيدها، فرمسيس الثالث يجسدها حتى آخر لحظات ضعفها.

انطلقت الحملة التأديبية دون أن تكتمل فرقها؛ هذا ما نخلص إليه عند معرفة نتائج المجابهة. لقد جعلت هذه الثورة رمسيس يفهم فجأة إحدى نقاط ضعفه الكبيرة، وهي وضع قوة استثنائية لم يحصل عليها الكهنة ولا غيرهم في يد الوزير. فهذه القوة تشكل خطراً ولا سيما في ظل هذه الأجواء التي يتم فيها تحطيم التراث الملكي المميز للأرضين. فقد استطاع الرجل المسؤول عن الدلتا رشي الجنود والنساخ، وأصبحت الجموع تلبي نداءه؛ وكان لوعوده قيمة ومصداقية كما لوعود الحاكم. فجأة تبلور الوجه الآخر لكل الاصلاحات، وتبين أن الوزير قد تسبب في الكثير من الأذى في حين كان من المفترض به أن يعمل على خير البلاد.

عندما سلك رمسيس الطريق النهري نزولاً باتجاه الدلتا وجد نفسه فيها أميراً عادياً، أو حاكماً بسيطاً يملؤه التعجرف. لقد بدأت مصر تواكب سير التاريخ، ولكن البداية كانت فجة؛ فهي قد تطورت ولكن ليس في الاتجاه الذي توقعه فرعون المكلف بتحقيق أحلام الحكام السابقين. ها هي أعمال رمسيس ذات النزعة الماضوية تتبخر كما تتبخر أحلام الرجال عند الاستيقاظ.

* * *

وصل رمسيس الثالث إلى الدلتا وهو غير واثق من النصر بعد أن تبددت أوهامه ووجد نفسه مضطراً إلى تحطيم مدينة ساهم هو نفسه في إغنائها. لقد جمع ابنه البكر وقادة فرق الجيش احتياطي المشاة وزودهم بالعتاد جيداً لعدم قيامهم بتدريبات منذ زمن طويل. ولكن الوزير وأتباعه أيضاً لم تكن تنقصهم الأوراق الرابحة؛ فالدلتا توحدت ضد فرعون، ويستطيع أصحاب مقامات المنطقة أن يسلحوا فرقهم من المستودعات الملكية؛ هذا بالإضافة إلى قوة الأسطول المتواجد عند أذرع النيل والذي لا يملك الجنوب مثله. وكذلك فإن المدن الآهلة بالسكان والتي رفض أبناؤها القيام بالخدمة العسكرية في جنوب البلاد تعج بالرجال. ولد الغضب العام في هذا الشمال المصري الذي سبق وانهالت عليه الغزوات في القرون الأخيرة من شعور أبنائه بأنهم يتحملون وحدهم عناء استمرار الامبراطورية وإعالتها، في حين لا يستفيد من ثرواتها سوى العاصمة طيبة. لا أحد يفكر هنا بالخضوع،وستكون المعركة ضارية إذا لم يجد فرعون بسرعة حليفاً قوياً في المنطقة.

ولم يتردد رمسيس الثالث؛ فقد أرسل في استدعاء شعوب البحر الذين منحهم إقطاعات في أطراف الدلتا عله يجد فيهم هذا الحليف القوي؛ وهو قرار لم يسبق له مثيل، فهذا التحالف مضاد للطبيعة، وسيبقى هذا الفصل الحزين في تاريخ الحضارة المصرية محفوراً في ذاكرة النساخ.

ولكن هل كان أمام آخر فرعون حقيقي في الامبراطورية المصرية خيار آخر بعد أن خاصمه شعبه وحطم وزيره المخلص عمله؟ إنه يستعد لمداواة الشر بشر أكبر منه؛ ولكنه ربما يتعلل بمخططه الذي يمكن اعتباره جيد سياسياً، حيث يهدف إلى ضرب القوتين اللتين تهددان عرشه ببعضهما البعض حتى ولو أدى ذلك إلى زرع سهول الدلتا بالجثث. في جميع الأحوال يقر رمسيس بأن مصر لن تخرج من هذه المواجهة منتصرة، فالإهانةالتي وجهت للحاكم ستبقى خالدة على جدران المعابد.

لم يتأخر الشاردانيون/ Shardanes وغيرهم من الهنود الأوربيين المستقرين في الجوار،على بعد بضعة عشرات من الفراسخ، عن تلبية نداء الحاكم، فقد جاءتهم فرصة عظيمة لكسب ما لم يستطيعوا أخذه بالسلاح؛ ورمسيس الثالث يمد لهم يده، إذاً لن يصبحوا بعد اليوم عبيداً يركعون للصلاة أمام نظرات الحاكم المهينة. سيصبحون حلفاء موثوقين وجنود صفوة،وسينالون لقب منقذي الامبراطورية ويرتقون إلى موقع الشرف في المعركة.

لم ينس هؤلاء المقاتلون بعد استقرارهم في الدلتا سلاحهم وفنونهم الحربية التي كانت كابوساً يطارد شعوب البحر الأبيض المتوسط لقرون عدة؛ فهم لا يزالون يحملون سيوفهم النحيلة القاطعة ويرتدون التنانير الجلدية والخوذ ذات القرون والريش، ولا يزالون يحتمون بالدروع الدائرية الشكل.

خطب قادة شعوب البحر بفرقهم المتحمسة ثم ساروا نحو اتريبيس/ Athribis . لم ينقض جيلاً بعد على استقرار هذه الشعوب في أراضي الدلتا، وهذه ليست بالمدة الكافية ليصبحوا شركاء السكان المحليين، فلا شيء للآن يربطهم بهذه الأرض، ويستطيعون حرقها دون الشعور بالخجل.

أصيب قرويو الدلتا بالذعر عندما رأوا جيش فرعون واعتقدوا أنهم عادوا عشرين عاماً إلى الوراء؛ ولكن الحاكم لم يأت هذه المرة للقضاء على الأقوام المندفعة نحو الجنوب؛ وبدا لهم العالم وكأنه يدور في الاتجاه المعاكس،يسيطر عليه جنون البشر الذي تدعمه الآلهة. كم تعرضت مصر للمخاطر! هاهي الآن على وشك الغرق، ورمسيس على رأسها يقود رقصة الأموات.

لم تعد نتيجة المواجهة خافية على أحد في ظل هذه الظروف، فبعد أن انضم آلاف المحاربين من الشاردانيين/ Sharadanes إلى إخوانهم الذين ألحقوا بالحرس الشخصي لفرعون، تم إخضاع شعب الدلتا وقام الجنود المصريون بتخريب المدينة. ولكن الذاكرة المصرية لن تنظر إلى هذه المنطقة من الدلتا كما تنظر إلى قادش أو أي مكان آخر انتصر فيه رمسيس الثالث على الغزاة،فهي لن تعتبر موقع انتصار مصري كبير، بل على العكس؛ فهنا بدأت مرحلة جديدة من تاريخ البلاد، هنا اضمحلت القوة الملكية العظمى وفتك الغرباء بشعب الأرضين على مرأى من حاكم البلاد، بل وبموافقته؛ وهنا أصبح الفرعون ملكاً بسيطاً أسكرته السلطة، ومجرداً من الآن فصاعداً من الشرعية الحقيقية التي كانت أساس النشوء الأسطوري للملكة.

لم يسلم مكان ولا إنسان من الهجوم، فالناس كانوا يُذبحون حتى على درجات المعابد؛ وقد انقض الشاردانيون/ Shardanes على النساء والعائلات الهاربة في متاهة شوارع المدينة، وغطت الجثث الأرض في كل مكان، واندلعت الحرائق لتخبر أهل الدلتا عما يكلفه إيذاء الفرعون. في مكان قريب، كان رمسيس الثالث يفكر في المعضلة التي يواجهها مصيره. لقد عمل بشجاعة ودأب على إعادة بناء هذه البلاد، وكان يحب الدلتا؛ ولكن هذا اليوم المشؤوم هو آخر أيام البناء وأول يوم في مرحلة مجهولة افتتحتها ضرورات الزمن.

بعد أن تم قمع الثورة عاد رمسيس الثالث إلى طيبة؛ ومع مرور الزمن تلاشت ذكرى عصيان اتريبيس/ Athribis شيئاً فشيئاً. ومع ذلك كان الحاكم بحاجة إلى جرعة من الشجاعة لإعطاء معنى لأيام حكمه الأخيرة؛ ولكن الشواهد على شيخوخته غير دقيقة، فالرسوم الجدارية في القصر الملكي وجدران معبد الكرنك تعود في معظمها إلى أزمان انتصاراته المجيدة وأعماله الكبيرة. لقد أنقذ رمسيس الثالث عرشه وطهّر إدارة الدلتا،وهو الآن يحاول القيام بالإصلاحات من جديد،فعين أسياداً جدد على اتريبيس/ Athribis والمناطق المجاورة لها، واحتل الشاردانيون/ Shardanes المكان وانتشروا في أفضل الأراضي مشكلين قوة جديدة ستسرّع في التحول الاجتماعي لشمال مصر.

عندما نعود ثلاثين قرناً إلى الوراء نجد أن هذا التطور الذي حصل في الدلتا لا يثير الدهشة اطلاقاً، فقد كان مقدراً لها أن تستقبل التأثيرات الخارجية التي تهب على هوى التغيرات في البلاد الأجنبية. وقريباً، عندما سيُعاد بناء أسواق اتريبيس/ Athribis ، سنجد الفلاح المصري إلى جانب التاجر السوري، والبدوي الليبي يقف أمام أحد أبناء شعوب البحر الذين يتميزون عن الجميع بقامتهم الطويلة وبشرتهم البيضاء. لكأن السوق أضحى برج بابل على مستوى البحر الأبيض المتوسط، يضم شعوبه ويمنح الدلتا تاريخاًخاصاً بها، معزولاً عن تاريخ مصر المجردة من خصوصيتها.لن تتطور الدلتا إلا في الاتجاه المعاكس لتاريخ الجنوب المنطوي على حدوده الضيقة؛ وهي تشكل إحدى بؤر البحر الأبيض المتوسط الواعدة، حيث تصل أذرعها بين جنوب البلاد والبحر الواسع. وكذلك فلن تبقى المستنقعات الساحلية حاجزاً لمدة طويلة أمام العالم الخارجي ونزعاته التجارية والثقافية.

لم يكن الفرعون المتمسك بالتقاليد والغافل عن المفاهيم الجديدة ليتخيل هذا المصير، فالعالم بالنسبة إليه يتركز حول النيل؛ ولم يخطر بباله أن مشروعه في إعادة بناء مصر بحيث تكون طيبة المركز يتناقض مع انتعاش الدلتا واستقلالها بسبب انفتاحها على البحر.

لقد أنهك نفسه في محاولة التغلب على الصعاب، وكان يفرض الإصلاح تلو الإصلاح في سعي حقيقي نحو الحداثة فيما يتعلق بالمخاطر الخارجية، ولكنه لم يكن ليدرك النهاية القدرية.

وجد رمسيس الثالث نفسه في مواجهة مملكتين في حين كان يحلم بتوحيد الأرضين في بلد واحد رغم اختلافهما الشديد. كان التعب والقلق يبدوان عليه وهو في طريق عودته نحو الجنوب،فالمستقبل يخبئ الكثير من العواصف. كان يفكر في نتيجة تحالفاته في الدلتا، فهي ستقود حتماً بعد حلول السلام إلى عودة الجموع إلى الحقول تحت عصا الشاردانيين/ Shardanes الجديدة. ولم يكن ذلك يقلق المصريين رغم شكوكهم بقدرة فرعون تجاه هذه الأقوام المختلفة؛ ولكن أصحاب المقامات الذين بقوا مخلصين للحاكم كانوا متخوفين من مطالبة الشاردانيين/ Shardanes بضمانات سلطة، ولا سيما عندما اضطر فرعون إلى جعل عدة محافظات تخضع لسلطتهم ودَمَجَهُم في الجيش الملكي.

لقد مهد رمسيس الثالث لانحطاط الامبراطورية رغماً عنه حين أدخل العدو إلى البلاد، فمنذ أن توصل الشاردانيون/ Shardanes إلى مرتبة حماة الحدود، ومنذ أن كلفوا بالإشراف على الشعب، بدؤوا شيئاً فشيئاً يتحكمون بالحدود الشمالية الخطرة وبأذرع النيل، كذلك بالطرق المؤدية إلى سوريا وليبيا.

ومثال مصر يذكرنا بما حصل في الامبراطورية الرومانية، حين تم تعيين الجرمانيون، ولا سيما الفرنجة/ Francs ، كحرس حدود في القرن الثاني والثالث قبل الميلاد، ثم رُقّوا إلى مناصب قادة فيالق، فكانت النتيجة أن تراخوا في حماية الامبراطورية الثرية ضد إخوانهم الذين بقوا خلف نهر الراين، وتم بذلك القضاء على الامبراطورية الرومانية في الغرب.

لم يكن رمسيس ليهتم بتكهنات أي ناسخ بعيد النظر، لذلك بقي متحصناً في الجنوب، في الوادي الهادئ الناعس الذي لا يهدد بأية أخطار. ولكن ماذا سيفعل لو تعرضت البلاد للغزو؟ سوف يضطر حينها إلى حكم بلاده التعسة بتوكيل من الغزاة.

لم تكن شعوب البحر لتصدر أي قرار من شأنه إغضاب الحاكم المتغطرس، ولكن وضع أبنائها الدبلوماسي كان يتحسن رغم ذلك،فهم يتمتعون بامتيازات ويلعبون دورهم حتى وإن كان ظاهر الأمور يوحي بأن النساخ هم المتحكمين بكل شيء. ولكن لحسن الحظ لن تسمح لهم العقود المقبلة بالسيطرة على الأوضاع المتقلبة، ولن يكون هناك نظيراً

للتدفق البربري الذي اجتاز الراين في شتاء العام ٤٠٧م؛ وشيئاً فشيئاً سوف ينصهر هؤلاء الجنود الشاردانيين/ Shardanes الشجعان مع الشعب المصري أو غيره من شعوب الحضارات الكبرى، كما كان مقدراً لهم.

ولكن ظاهرة اللجوء إلى المرتزقة لن تختفي بموت رمسيس الثالث، فبعد عدة قرون ستصبح هذه النزعة مبدأ بالنسبة لآخر حكام البلاد الذين لا يستحقون لقب فرعون، حيث سيتوسلون إلى النوبيين والمرتزقة اليونانيين، بل وحتى إلى الليبيين الذين كانوا محتقرين جداً في زمن رمسيس الثالث، لكي يدافعوا عن مصر المحتضرة بعد أن هجر أبناؤها ساحة القتال.

لن تُظهر الرسوم الجدارية في مدينة حابو/ Medinet Habou هذه التنازلات، فهي وقتية بالنسبة للملك؛ ولكن الصلاة الطويلة التي أقامها الحاكم العجوز، والتي لا تزال محفوظة حتى أيامنا هذه في بردية ضخمة، تتناقض بوضوح مع البروتوكول. فمن خلال تضرعه إلى الآلهة لحماية وريثه رمسيس الرابع، تظهر لنا الحالة الفكرية التي كان يعيشها في سنواته الأخيرة، حيث يبدو له توازن البلاد هشاً ويشعر بأن سلالته مهددة وزمام الأمور يفلت من يده؛ ولا بد أن للتحالف مع شعوب البحر يداً في ذلك.

من حسن حظ رمسيس الثالث أن هؤلاء الموظفين الجدد المتحمسين والمنتفعين في آن لا يشكلون شعباً واحداً،فهم على العكس من الجرمانيين لم يكن لديهم قاعدة تخرج منها العصابات الجديدة بحثاً عن الأراضي، كما أن المكائد المصرية وغيرة أصحاب المقامات المتمسكين بالحصول على مناصب أكثر أهمية قد تدمجهم في نظام الطاعة والاحترام المتبع تجاه الحاكم الأقوى.

فمصر إذاً تمسك أنفاسها خوفاً من الانهيار عند أدنى حركة تقوم بها إحدى القوى المتضادة التي تتألف منها البلاد في الشمال والجنوب. لقد تخلت نوبيا عن المطالبة بحريتها وأقسم أصحاب المقامات في بلاد كيش الولاء لرمسيس الثالث؛ ولكن المستقبل لم يكن لهذه المنطقة المنقطعة تماماً عن البحر الأبيض المتوسط وطرقه الكبرى، إذ يجب انتظار نهاية الألف الأول قبل الميلاد لنجد التجار العرب يدفعون قوافلهم نحو هذا الجنوب الغريب. فالمستقبل إذاً للدلتا التي تتعرض لموجة هائجة من التأثيرات المختلفة وتستقبل رياح العالم الحديث، والتي ستصبح الاقليم الثري لآخر السلالات الملكية في مصر. وقد بلغت أهميتها القصوى في زمن البطالمة من الأصل اليوناني، وهو رمز للهوية الجديدة المركبة لهذه الأرض القادرة على اصطياد كل الشعوب التي تعبر فيها.. سيتقدم الجنوب على إيقاع الزمن

الثقيل،وستبقى مدينة حابو/ Medinet Habou المكان المقدس، عرين الفرعون المحروم من كل دعم حقيقي. ولكن كم من الوقت سيستمر هذا التوازن الهش، الذي يزيد من هشاشته اعتماده على صحة رجل عجوز باتت متأرجحة؟

الفصل الثاني عشر

الـوَرَثـة

لم يعد سيد مدينة حابو/ Medinet Habou يخرج البتة، فما الجديد الذي سيكتشفه وهو الذي احتفل بعيد ميلاده الستين منذ زمن بعيد؟ لا شيء من الآن فصاعداً يمكن أن يلهي الحاكم، لا شيء باستثناء عيد مين/ Min الذي يصدف في نفس يوم ميلاد رمسيس الثالث، والذي يُعد فرصة لتذكير الشعب بأن فرعون يستحق المديح. ولكن هل سيستطيع الحاكم الذي أحنت ظهره السنون التأثير في الجموع المحتشدة أمام قصره؟ هل سيخدعها بلباسه الحربي وزينته؟ أم سيسكرها بالموسيقا الحربية وعرض الحرس الشاردانيين/ Shardans ورماة السهام النوبيين؟

انقضت عدة سنوات دون حوادث مأساوية ظاهرة، ولم يبق من ثورة الوزير المتمرد في اتريبيس/ Athribis سوى ذكرى مؤسفة وبعض التخوف لدى المخلصين للحاكم. في هذه السنة، سنة ١١٦٨ ق.م. كان الوادي يعيش في هدوء روتين الواحة الضخمة، ولم يكن هناك أي عدو عند الحدود. لكأن العاصفة الإنسانية في هذا القرن الثاني عشر ق.م قد هدأت فجأة وفسحت المكان لظهور بارقة في سماء شرق الأبيض المتوسط. ولكن هذه البارقة الغربية ستكون قاتمة بشكل استثنائي، وستثبت ذلك بعثات علوم الآثار إلى هذه المنطقة، حيث لن تجد فيها إلا الأنقاض وآثار الحرائق التي تذكر بمرور الزوبعة البربرية فيها.

هذه الزوبعة لا تزال بعيدة عن حفيد الرماسيس الذي أعطى مملكته كل ما يستطيع وناضل لجعلها قوية لا تقهر ودفع عنها أخطار الغزوات الكبرى. كان يخاف من رؤيتها مقسمة و ضعيفة تتلاعب بها الأقدار؛ وهو يعلم أن إصلاحاته الإدارية قد أخفقت، وأكبر دليل على ذلك هي ثورة الوزير في الشمال؛ ولكنه لا يريد تعذيب نفسه أكثر من ذلك،

فقد أصبح متقدماً في السن وله أن يتأمل الأراضي الخضراء الممتدة أمام ناظريه، والتي تشعره بالطمأنينة وتبدد كوابيسه وفجيعته بتحول أعماله إلى هباء.

ما الذي يستطيع فعله وهو يعلم هشاشة جيوشه وإدارته؟ ليس له إلا أن ينتظر نهاية هادئة ويصلي للآلهة لكي تحمي مصر من كل عاصفة. لقد عاد الكهنة إلى المحيط الملكي، فقد تبخرت الآمال الكبرى بالرفع من شأن إقليم الشمال ـ وهي مبادرة دعمها النساخ والشعوب الجديدة المستقرة في الدلتا، وعاد مستشارو الملك العجائز ليحوموا من جديد حول الفرعون. كان كهنة آمون وبتاح/ Ptah وسيخمت/ Sekhmet يتحدثون ويعلقون ويتهامسون حول مشاريع لا تنتهي، فسوف يرمي هؤلاء العلماء ذوي الرؤوس الصلع والهيئة المتواضعة شباكهم حول طريدة شبه موافقة على ذلك، هذه الطريدة هي فرعون. لم يستسلم أحد من الرماسيس كما استسلم هذا الحاكم العجوز للشر القديم الذي قضى على أكثر من سلالة، ألا وهو التيوقراطية. كانوا يعلمون أنهم سيتحكمون من الآن فصاعداً بضمير الملك بعد أن تلاشى إيمانه بالمستقبل وضعفت إرادته الصلبة... بقي أمام الرجل الذي أكرمته الآلهة فيما مضى أن يتأمل الوجه الآخر لمصيره،فبعد أن وصل للعرش في سن النضوج، بفضل بسالة سيتنخت الذي أحيط بهالة ككبار الحكام إثر انتصاراته على الغزاة، أصبح الآن عجوزاً ضعيفاً كبلاده. وحدها الآلهة وتكهنات السحرة لا تزال تمنح الأمل بغد مشرق لأبناء البلاد المحتشدين حول الملك، ولكن دون أوهام.

كانت رؤية المعابد الجنائزية المبنية عند الجبل الغربي تريح الحاكم المتعب وتهدأ مخاوفه وتبدد شعوره بالندم. ففيها يرقد عشرات الملوك الكبار في عزلة أبدية ويحظون بزيارة الكهنة الذين يؤدون لهم شعائر دينية خاصة ودقيقة. تمثل هذه الشعائر فرصة بالنسبة للكهنة الذين يترصدون التشريفات والثروات لإظهار شرعية وجودهم، فبدونهم يصبح توازن العالم كلمة عبثية. والآن، بعد أن أخفق فرعون في مخططه السياسي، عليه أن يخضع لأوامر الآلهة وأن لا يخطط لمشاريع كبيرة. قد تستطيع أسرار العلماء أن تُهدّأ من غضب آمون المستاء من الفوضى التي تعم الوادي، ولكن بشرط أن يتم تبجيله أكثر من العقد الماضي. لقد تعب رمسيس، وهو يشعر وكأنه أصيب فجأة بالشلل، لذلك ترك الكهنة يلعبون دور العرافين... أي فأل شؤم هذا.

لم يخفِ رمسيس يوماً إخلاصه للآلهة، وتشهد على ذلك اللائحة الطويلة من عطاياه للمعابد. قد يكون هذا المجال هو الوحيد الذي لا يثير لدى سيد طيبة الشعور بالمرارة

أو الندم. لقد أعطى الكثير للكهنة لكي يرفع أنقاض المعابد المدمرة، وبناءً على أوامره تم إعادة تكريم مقابر الفراعنة. لم يعد الرجل العجوز المضطرب يشك في حلم الآلهة، حتى حذره من رجال الدين تراجع في الفترة الأخيرة.

لم يعد رمسيس ينتمي إلى عالم الأحياء،فأفكاره تذهب باستمرار إلى وادي الملوك الكائن على بعد عدة فراسخ من مدينة حابو/ Medinet Habou ، حيث أصبح قبره الثاني جاهزاً الآن. كان هناك شقاً عميقاً في الشاطئ الصخري يشير إلى وجود النفق المؤدي إلى صالة الميت الكبيرة. هنا لا يُقبل أي بشري باستثناء العمال والكهنة؛ وبعد موت الحاكم سيتم إخفاء المدخل بعناية وستنعم روح رمسيس بالأمان في سرداب المدفن الذي تنتصب فوقه الصخور العالية، والذي هيأته يد الإنسان في نهاية ممر مظلم، أُعِدّ لاستقبال الملك المتوفى حين تحين الساعة التي يختارها انوبيس/ Anubis . كان رمسيس ينتظر هذه الساعة بهدوء، فكل شيء جاهز: التابوت الخشبي الذي يحفظ جثة الفرعون المحنطة والمزينة، والذي تحيط به طبقة من حجر الغرانيت يميل لونها للاحمرار، وكذلك خابية الأموات المخصصة لوضع أحشاء الميت فيها؛ وهناك أيضاً جموع الخدم الذين تمثلهم أشكالاًخشبية صغيرة، وأخيراً الكنوز المخصصة للبقاء على قيد الحياة في العالم الآخر،والتي تضاهي بغناها كنوز أكبر الملوك وأعظمهم.

إذا كان الزائر المعاصر لا يشعر بنفس الإثارة التي أحس بها كارتر وكارنافون عام ١٩٢٢ عندما دخلا العرين السري لتوت عَنخ آمون، فلا أحد يستطيع البقاء جامداً في الأجواء الغامضة لقبور وادي الملوك. فالممر الطويل المنحدر يؤدي إلى جوف الأرض، ولكن أيضاً إلى أسرار الخلود. كيف لنا أن نشك إذاً بضرورة وشرعية الجهود المبذولة من قبل رمسيس الثالث وغيره من الفراعنة لبناء هذه القبور؟ ألم يشعر الحاكم الرمسيسي، كسابقيه من الحكام، بالعودة محنطاً في قالبه الأصلي؟ في هذه الصالة الجنائزية الرائعة، ذات الرسوم الجدارية التي يمثل اللون الأزرق والذهبي فيها الأساطير الكبرى لنشأة الكون، لا يشعر الزائر بالاختناق رغم انخفاض السقف وقلة الهواء وندرة الأوكسجين...

سيكتفي الحاكم من الآن فصاعداً بتأمل بوابات معبد آمون الضخمة الكائنة في الجهة الشرقية،وشاطئ الأموات الصخري والسيم المطل على المعابد الجنائزية، ومنها معبد رمسيس الثاني، في الغرب. في بداية حكمه كان رمسيس الثالث شبيهاً بحاكم مصر الأسطوري المتوفى، ولكن هذا التشابه لم يصمد طويلاً أمام محن الزمن. وهو يعرف أن هناك هوة كبيرة تفصل بين الحكمين، حتى وإن كان الجميع يردد بأنه نظير رمسيس الثاني

العظيم. فالملك العجوز سيخلف وراءه بلداً ضعيفاً يختلف كثيراً عن ذاك الذي تركه المناضل الكبير.

لا بد أن رفقة الحجارة والذكريات قد صبغت السنوات الأخيرة من حياة الحاكم بالسوداوية، فارتياد مقام الأموات لا يمر دون عقاب! ولكن يجب تذكر الشواهد العديدة في البرديات التي تركها الحكام وغيرها من كتابات النبلاء والأغنيات الشعبية الكثيرة، التي يذكر فيها قدماء المصريين تعطشهم للحياة رغم انتظارهم للنهاية المحتمة بهدوء. ولا يشبه الموت بالمعنى الحديث المتعارف لدينا، والذي ينصب على محيط الاهتمامات المادية البحتة، لا يشبه البتة الموت عند القدماء. فاليوم يعطي غنى البشر الانطباع بخلود الأجساد، وكأن الزينة تؤثر على غلاف الحياة الهش الذي تغطيه! في تلك الأزمنة الغابرة كان الأقوياء، وبخاصة الحاكم، يتمتعون بثروات لا يمتلكها أي رجل معاصر؛ ولكن الأعداد الهائلة من البشر التي كان الموت يحصدها أمام أعينهم جعلتهم يتهيؤون للأجل المحتم والقريب.

لم يكن أبناء البلاط بمنأى عن الموت المبكر، ورمسيس الثالث يعرف هذه الحقيقة جيداً، إذ يكفيه أن يتخيل مدخل وادي الملكات من بعيد ليتذكر القبور المخصصة لمومياءات الأمراء من أبناء الحريم. من حسن الحظ أن معظمها فارغ، ولكن لا يمكن لأية عائلة أن تفكر بالعيش عدة عقود دون أن يطرق الموت بابها.

لقد كبر رمسيس وكذلك زوجاته الملكات الثلاث، ونمت العشيرة الملكية التي يقارب عدد أفرادها المائة ـ هذا دون أخذ أقارب رمسيس من أبيه وأمه بعين الاعتبار. كل من الملكات الثلاثة أنجبت عدة أطفال لسيد البلاد، وقد تم تزويج الأمراء والأميرات بدورهم ونتج عن تعدد الزوجات عند الرجال جموع ملكية جديدة.

في العام ١١٦٨ ق.م كان هناك العشرات من الأمراء البالغين من أبناء الفرعون الذين يتهافتون على البلاط لطلب تشريفات أو مناصب قيادية في الجيش أو مراكز متميزة في الكهنوت! كانت الملكات حريصات على جعل أبنائهن في المقام الأول، أما الخليلات فكن يعتمدن على مواهب أبنائهن. ويبقى الأمراء الأقل شأناً في تسلسل المراتب البروتوكولي؛ هؤلاء لم يكن أمامهم سوى الإصغاء جيداً لنداءات أصحاب المقامات المتحفظة، المستعدين لبيع أنفسهم لمن يمنحهم أفضل الوعود.

لم يكن رمسيس يعرف أجواء الحريم الفاسدة والمنحرفة، فعائلة سيتنخت لم تتدخل يوماً في نزاعات السلطة؛ وقد تعلم الفرعون قواعد هذه اللعبة القاسية في سن متأخرة اكتشف فيها أضرار طموح عائلته.

ولكنه يعرف جميع أقاربه ويعرف الخليلة التي أعطاها الكثيروابنها ذو السحنة البليدة فيما مضى، والذي أصبح رفيق صيد لطيف ودائم الحماس... كثيرة هي الصور والذكريات التي تتدفق في عمر الشيخوخة عند ذكر هذا الوجه أو ذاك، ولكن هل عرف الحاكم حقاً خصوصية كل فرد في عائلته؟

عندما لا تبعد الحروب الحاكم عن أهله يتكفل الحُجّاب والبروتوكول والالتزامات السياسية والدينية للملك بوضع حاجز غير مرئي بين الفرعون وعائلته! وقد حرص رمسيس على قضاء آخر سنواته برفقة زوجاته، متمسكاً بهذه السعادة؛ ولكن ذلك لم يكن كافياًلمنع المزاحمات،فكل ملكة أصبحت مع مرورالزمن رئيسة لعشيرة تحركها الأسرار وغيرة الأمراء أو حلفائهم.

في الواقع كان بعض أقارب رمسيس غرباء بالنسبة إليه، ولم يكن بينه وبينهم سوى إلفة ظاهرية؛ وكان يجد صعوبة في مداراة مصالح كل فرد على حدى، فسياسة العائلة أمر شديد الدقة والحساسية تماماً كسياسة الامبراطورية. وإذا كان من الممكن كبح طموح هذا الأمير الشاب المقرّب من والده بإعطائه منصب قائد حربي، فإنه لا يمكن ضمان السعادة لهذه الابنة التي تزوجت من أخيها نصف الشقيق، بسبب الغيرة بين الأمهات الملكات. وهناك الكثير من الأمثلة الأخرى التي يمكن أن توضح المشاكل التي تنجم عن الخلافة المتأخرة، فورثة العرش كُثُر وأصحاب الطموحات مهتاجون.

* * *

كان رمسيس الرابع، الابن الأكبر لرمسيس الثالث، قد تجاوز الأربعين من عمره؛ وهو سن يستحق فيه وريث العرش الاحترام. وقد مات المسكين توت عنخ آمون قبل أن يبلغ هذا العمر بكثير. وسيخلف رمسيس الخامس، الابن البكر لرمسيس الرابع، العرش والتاج المزدوج بعد موت أبيه، شريطة ألا يبقى هذا الأخير طويلاً في الحكم كما فعل جده الذي لا يُعاشر.

كم يتلاعب الزمن بطموح هؤلاء الرماسيس! كان مقدراً للسلالة التي أنشأها سيتنخت أن يتبدد شباب كل أفرادها، فالفرعون المحارب قد تولى السلطة بالصدفة وفي عمر متأخر، وكذلك ابنه رمسيس الثالث الذي خلفه هو أيضاً في سن متأخرة.

لم يعد أمام الأمراء من المرتبة الأولى، أي أخوة رمسيس الرابع من أمه إيزيس، سوى أمل ضعيف جداً بالوصول إلى العرش. كان عددهم كبيراً جداً، فايزيس لم تتوقف عن

الانجاب، وكانت الولادات تعتبر حدثاً عظيماً ويعتبر الأبناء هدية ثمينة مهما كثر عددهم. إلى ما آل اليوم مصير هذه العشيرة التي بلغت سن الرشد؟ هل استطاع رمسيس الثالث أن يرسخ فيها الإحساس بالواجب وأن يغرق أبناءه المغتاظين بالثروات؟ لقد أطاع الأبناء أباهم حتى الآن دون تذمر، ولكن نهاية هذا الحكم الذي فقد الكثير من قواه قد لا تكون خالية من محاولات التمرد.

قد يستطيع هؤلاء الرجال تشكيل نوع من الحرس الملكي حول رمسيس الثالث وضمان خلود المملكة بتولي مناصب رفيعة، كما تقتضي التقاليد بالنسبة للأمراء من أبناء الملك؛ فأصحاب المقامات يطيعون أوامرهم،وهم يترأسون كل شيء: عربات الحرب ومختلف فرق الجيش، النساخ، بل وحتى رجال الدين ذوي المكانة المميزة. تبدو ذرية رمسيس الثالث الكثيرة العدد وكأنها تتحكم بكل مجالات النفوذ في الإدارة الفرعونية الضخمة؛ ومع ذلك كان المستقبل يخبأ للملك العجوز أحداثاًمأساوية ستبدد اطمئنانه وراحة باله.

لم يكن فرعون ليقلق بوجود هؤلاء الإخوة الأشقاء من أبناء إيزيس، فقد كان بينهم الكثير من الروابط التي تدفعهم للاتحاد والوقوف مع أخيهم الكبير رمسيس الرابع ساعة الخطر، ولكن الحرمان والمنافسات الحتمية في حال موت الأب وبقاء العرش خاوياً من غير خليفة يهدم البناء كله، وهو أمر يدركه النساخ جيداً...

كان هؤلاء الأمراء مبعث فخر رمسيس الثالث، وقد مات بعضهم ودفنوا في قبور وادي الملكات، حيث وجد علماء الآثار مومياء أمير في ريع الشباب. ولكن يبدو أن أوزيريس والآلهة الأخرى قد تركت ذرية الفرعون بسلام، فعدد الموتى قليل نسبياً. في الواقع، كانت هذه الذرية الكبيرة والمزدهرة تفيد الملكة أكثر من الملك،فهي الدليل على إخلاصها وعلى مباركة الآلهة لها. وكما في كل بلاد البحر الأبيض المتوسط الحضاري، كان محكوماً على المرأة أن تبقى قاصراً حتى سن متأخرة،أي حتى تصبح أماً. عندها تستطيع فرض سيطرتها؛ فنظام الأمومة الخفي هذا موجود وإن لم يُعترف به.

أخيراً أصبح بإمكان سيدة الحريم إيزيس أن تطمئن وترتاح، فأبناؤها سيدافعون عنها وسيلجؤون إلى السلاح إذا لزم الأمر لحمايتها من إحدى منافساتها! وقد كشف تاريخ الحريم الطويل عن إخلاص الفراعنة والأمراء والسلاطين إلى الأم التي نجهل اسمها أحياناً أكثر من إخلاصهم للأب رغم التعظيم الذي يحظى به هذا الأخير.

انتقلت الجميلة إيزيس من وصاية أهلها إلى وصاية سيتنخت عندما اقترن مصيرها

بمصير زوجها الذي خدمته بتفانٍ خلال ثلاثين عاماً، وهو أمر غير عادي في تلك الحقبة من الزمن؛ ففي الألف الثالث قبل الميلاد، كان الأزواج الذين يعيشون مدة طويلة نادرين جداً. ومع تقدم الزمن، كانت إيزيس تكتسب بعداً سياسياً واجتماعياً مختلفاً تماماًعن نظيراتها في المملكة.

في أرض النيل،حيث انتقل الإنسان من الترحال إلى الحضارة بسهولة، كانت الولادة ضمان للوراثة والاستمرار. فالرجل، سواء أكان فلاحاً بسيطاً أو ملكاً لوادٍ جميل، ينهك نفسه طوال حياته للحفاظ على تراث محسوس، هو الأرض.. لقد نسي الأزمان التي كان أجداده تائهين فيها مع عشائرهم على أرض صيد شاسعة،يوحدهم البحث عن الطرائد المفترسة!

وإذا كان الرخاء قد بدأ مع وفرة محاصيل الحبوب قبل ولادة رمسيس الثالث ببضعة آلاف من السنين، فإن الحرص على امتلاك الأرض قد سيطر على عقلية تلك المجتمعات. فالتحكم بالعدو شيء وضمان المستقبل شيء آخر لا يقل صعوبة عن المهمة الأولى.والأبناء هم أمل المستقبل؛ لذلك أضحت بطون النساء وعاءً مقدساً يضمن خلود الحاكم.

لم تكن إيزيس تعرف شيئاً عن الأزمان المغرقة في القدم، شأنها شأن مثيلاتها من النساء؛ ولكنها تربت منذ الطفولة على الخضوع للرجل؛ وعلى أن أهمية المرآة تكمن في الانجاب. فالمرأة حينها لم تكن شيئاً يذكر، وهي تكتسب وضعاً جديداً محترماًعندما يكبر أبناؤها الذكور ويفرضون وجودهم إلى جانب والدهم ويتهيؤون لأخذ مكانه. عندها يتوجب على الأب أن يهيأ لهم موقعاً مناسباً ويأخذ طلباتهم بعين الاعتبار؛ عندها تنتقم زوجته من صمتها الطويل وهي إلى جانبه، فإذا كان لها تأثيراً كبيراً على أبنائها ـ وهو أمر لم يكن لينقص الأم الحنون التي سهرت على تدليل أولادها ـاستطاعت أن تهمس رغباتها في تلك الآذان التي تسمع باهتمام، دون أن تثير دهشة وغضب سيد المنزل الهادئ ظاهرياً.

بدأت سلطة الحريم بالظهور في الشرق، وهو تحول نتج عن النظم الملكية الكبرى؛ وسوف تزداد هذه السلطة في الأزمنة المستقبلية:من حريم الفراعنة إلى حريم بغداد المسلمة، ومن حريم ألف ليلة وليلة إلى القوة الغامضة للسلطانات العثمانيات الطوبقابي Topkapi في القرن الماضي...

كان هناك الكثير من النماذج الشهيرة أمام إيزيس، ولكن نجاح أمها السورية الأصل هو الذي وضعها على طريق الشيخوخة الحكيمة. لقد تجاوزت الآن الستين عاماً، وهي تحتل موقعها بنبل حتى وإن كان جمالها قد زال، وكذلك لا يستطيع أحد فرض وجوده

في البلاط إذا لم تقبله في محيطها. كانت ملكة أم وسيدة القصر الحقيقية، وكان معروفاً عنها أنها امرأة معتادة على المكائد السياسية وقادرة على حماية أملاكها وتجنب الشقاق بين أبنائها.

كانت إيزيس رغم تمتعها بالسلطة والثروة تعيش قلقاً قديماً قدم شبابها مصدره زوجات الحاكم الأخريات، وبالأخص تيي، منافستها الكبيرة التي لازالت على قيد الحياة. لم تمحو السنوات العداوة والبغضاء بينهما، بل ربما كان هذا الكره القديم هو السبب في بقاء الزوجة الأولى إيزيس بهذه القوة والنشاط. لقد منحها السحرة الشهيرون في بلاط الفراعنة الأمل بحياة طويلة وعظيمة تحركها مكائد النساء؛ وبذلك يكون هؤلاء الرجال المشبعين بعلومهم التي انتزعوها من أسرار الكون الغامضة قد كشفوا عن الحقيقة؛ فإيزيس ستعيش طويلا وستكون الضمان لذكرى أمجاد الرماسيس بعد موت زوجها. وسوف تُسجل حياتها الطويلة التي تدل على نشاط رهيب في الحوليات، ولا سيما أنها ستعايش ثلاث حكومات متوالية قبل أن تلحق بمنافساتها وأبنائها في وادي الملكات،عند سفح السيم.

لكأن الأمراض الشائعة حينها عند البشر لم تكن تؤثر على صحتها، فالجدري مثلاً، الذي كان يأخذ نصيبه كل عام من الأجساد الضعيفة حتى في البلاط الملكي نفسه، لم يصبها. لقد فقدت إيزيس بعض أبنائها، ورمسيس الخامس سيموت يوماً بتأثير هذا المرض، وستبقى هي كما هي، مستسلمة للقدر وصامدة دوماً للدفاع عن إرث زوجها المرحوم... فالإخلاص لم يكن آخر مزاياها،وهي تعرف كيف تكرم ذاك الذي اختارها من بين الكثيرات منذ أكثر من ثلاثين عاماً.

هل كانت قلقة من الانعزال الذي يعيش فيه زوجها؟ هل كانت إلى جانبه تتأمل بحزن التفكك البطيء للوادي المتروك لشعوب البحر في الشمال وللكهنة المتعطشين للثروات في الجنوب؟ لم تكن الملكات تكشف عن أفكارها أبداً، فالبرديات والكتاب الحجري الكبير الذي تمثله جدران المعابد هما وعاء يحتوي أفكار الفراعنة لا زوجاتهم، فهنا أيضاًعندما تلعب المرأة دوراً تلعبه بصمت. من يستطيع أن يتكهن بتأثير نفرتيتي في الإصلاحات الدينية التي قام بها أخنتون؟

لم تكن إيزيس تخطط لوضع ابنها الكبير على العرش مكان والده، فإخلاصها لزوجها يمنعها من التفكير بذلك؛ ورمسيس الرابع سيكون مخلصاً كوالدته. ولكن القلق كان سائداً على الأرجح، فترك البلد دون حاكم لمدة طويلة سيؤدي حتماًإلى حدوث

مكروه.. لا بد أنها كانت تفكر أحياناً بابنها البكر، في ورطة هذا الرجل المستعد لخدمة المملكة، والذي أصبح ابنه أيضاً، أي حفيدها، في سن اعتلاء العرش. ماذا لو جاء الموت ليأخذه وهو الذي خدم تحت راية الامبراطورية وقاتل شعوب البحر؟ كم سيكون القدر قاس حينها! كيف لنا أن نجهل المرارة التي ستشعر بها الأم؟ وماذا بشأن الآخرين، الأبناء والأحفاد الصغار الذين يحترموها كثيراً؟ سيكون رمسيس الثامن حفيد رمسيس الثالث وإيزيس!

كانت هذه الملكة تتحكم بمستقبل الكثيرين، ولكن لا يبدو أن الشيخوخة ستأتي بالراحة، فكل من في البلاط يترصد الآخر،والجميع يبحثون عن دلائل سماوية تبشر بالمصير المنتظر. أما رمسيس الثالث فقد كان يعيش فصله الأخير في ظل الهدوء الخادع.

* * *

كان بإمكان تيي، زوجة الفرعون الثانية،أن تكون في المرتبة الأولى في الحريم لو لم يقف القدر في وجهها ويضع أمامها الجميلة ايزيس ذات الشخصية الاستثنائية. لم تكف تيي المغتاظة منذ سنوات عن لعن السورية التي رفعها الملك والشعب إلى الأوج؛ أليس الدم الذي يجري في عروق أبنائها الموعودين للعرش دماًبربرياً،دم الشعب العموري الذي لا يمكن الوثوق في أحلافه؟ لقد ورث أبناء الفراعنة منذ قرون مورثات الشعوب البعيدة ذات السحنة المختلفة والبشرة الأقل إسمراراً من بشرة أبناء النيل. كانت تقاطيعهم المميزة وعيونهم الفاتحة اللون وشقرتهم التي تثير دهشة المصرين المهجنين مع الشعوب الافريقية السوداء - كرمسيس الثاني مثلاً - تشير إلى الخليط العرقي الناتج عن التحالفات الدبلوماسية عن طريق الزواج. أما المصري من عامة الشعب فلم يكن لديه الكثير من الفرص للزواج بأجنبية. وكان تجانس الشكل الخارجي للجموع المصرية واضحاً جداً ويظهر في كل النقوشات، وتعود أسبابه إلى عزلة الوادي الصحراوي وإلى التهجين مع الشعوب السوداء في الجنوب. ولكن إذا ورث ابن الملك دماًحثياًفالأمر يبقى مقبولاً، فالسلالات الملكية الحثية شهيرة بقدمها وقوتها، أما أن تزدهر عشيرة حبادجيلات السورية،فهذا انحراف ترفضه تيي بقوة وبصوت عال!

في ظل القلق السائد في البلاط الملكي بسبب شيخوخة الحاكم،كان هناك الكثير من أصحاب الطموحات المستعدين لسماع نداء تيي. فبعد أن تقدمت بها السنون،بدأت هذه المرأة تطالب بنصيبها من التكريم وبحقوقها كملكة أم أنجبت ذرية ستحمل اسم رمسيس الثالث؛ كما أن ابنها البكر بنطعور/ Pentaour ، الذي سينتهي نهاية مأساوية،

كان تقريباًفي نفس عمر رمسيس الرابع. ما الذنب الذي اقترفه لكي لا يفكر فيه والده مطلقاً؟ وهل حقوق الابن البكر مقدسة إلى درجة السماح لابن السورية بالتباهي دون خجل إلى جانب أبيه، بل لوحده في هذه السنوات الأخيرة كما لو أنه فرعون حقيقي اختاره والده ليشركه في كل شيء؟

ويزداد الحقد الأعمى في قلب تيي عاماً بعد عام حتى يصمها عن سماع حجج المنطق. لم يعد بلاط الرماسيس شبيهاً ببلاط التراث القديم الذي كانت مدينة ممفيس تمثله في الامبراطورية القديمة، ولم يعد النقاء العرقي يعني شيئاً منذ زمن الامبراطورية الجديدة التي حكمت خلالها السلالة الثامنة عشر،الأكثر شهرة بالنسبة لمعاصرينا، والتي ينتمي إليها كل من توت موزيس/ Touthmosic وأخنتون وتوت عنخ آمون. فعدد الأميرات الحثيات كان يزداد في الحريم كلما أسس الفراعنة امبراطورية كبيرة تتجاوز وادي النيل.وككل الامبراطوريات المتعددة الأعراق، استقبل الحريم الفرعوني الغربيات وأصبح يعكس توسع المملكة وانفتاحها على المؤثرات الخارجية.

فيما وراء حسابات التحالف البسيطة،هل يمثل هذا الانفتاح تصرفاً مقصوداً وواعياً؟ كلا بالتأكيد، فالمصريين لا يحبذون التأثير المتبادل مع الحضارات الأخرى، فهم يتمسكون بقيمهم فقط. ولكن لن تستطيع أية امبراطورية في التاريخ الاستمرار إذا تجاهلت الحلفاء والمهزومين. وأشهر هذه الامبراطوريات هي روما التي كانت نموذجاً للتمثل في الاتجاهين؛ فقد كان قادة المائة يقومون بسن القوانين عند قواعد الأهرامات، بينما تنقل معابد إيزيس بالمقابل حب الشعائر الشرقية إلى أبناء روما، الذين كانوا يشعرون بالضيق من فراغ ديانتهم اليونانية ـ الرومانية، حتى في قلب مدينة التيبر: روما.

كانت مصر في زمن رمسيس الثالث أكثر انفتاحاً منها في زمن السلالة الثامنة عشر، فالدلتا أصبحت أكثر أهمية من باقي المناطق في البلاد؛ وملوك هذه الحقبة،وأولهم رمسيس الثالث، ساهموا بتطوير مفهوم المملكة نفسها دون علم وسابق تخطيط. فمن الانطواء على الذات في قلب الصحراء ـ إذ تكره مصر الروابط الوثيقة مع العالم الخارجي حتى وإن كانت قد غزت الشرق الأوسط ـ انتقلت إلى المشاركة اللاإرادية في التدفق الكبير في تاريخ الشرق الأوسط،حيث اكتسحتها رياح الشمال وشعوبها،شعوب الأبيض المتوسط، وتسلط عليها الخطر الشرقي والتسلل البطيء للبرابرة الليبيين. أصبحت مصر رمسيس الثالث، طوعاً أو كرهاً، حلقة في سلسلة متعددة الأعراق يصعب تفكيكها.

ها قد ولد تاريخ البحر الأبيض المتوسط الجديد واختلطت الشعوب مع بعضها

البعض؛ وسوف يستمر هذا الاختلاط لقرون عدة، حيث سيكون كبار السلاطين العثمانيين في اسطنبول في غالب الأحيان في أبناء القوقازيات الجميلات المسيحيات من نساء الحريم، لا أحفاد الأقوام التركية ـ المنغولية التي تغطي السهوب...

لا بد أن تيي كانت على علم بتدخل الغربيات الجميلات الخفي في الأمورالسياسية؛ ولكن ذلك لم يكن حجة كافية لرفع مرتبة أبنائها، وبالأخص بنطعور/ Pentaour . وتحول الخلاف بين الملكات إلى كره حاد، وسكت الصراخ، ولكن الخطر بقي كامناً وكبيراً؛ فالصراعات الضارية من أجل الخلافة كانت تدور في السر، والكل يبحث عن حلفاء. ولم تكن الوسائل لتنقص الملكة، وإن كانت زوجة ثانية؛فهي تملك ما يكفي من الذهب والوعود لتوقع الضباط وأصحاب المقامات في حبالها.

لم يعد هناك حدود لطموح تيي، فرمسيس الثالث كثير التغيب، وهو بالتالي لن يستطيع فرض النظام في الحريم الذي تجاوز مرحلة المشاجرات بين النساء الغيورات لتتواجه الملكات وهن محاطات بأتباعهن من الرجال المخلصين، بل من مجموعات مسلحة حقيقية، يعتمد فيها الأمراء على الضباط وأصحاب المقامات ومختلف الكهنة ورجال الدين.

في هذه السنة،عام ١١٦٨ق.م، جمعت تيي أتباعها المخلصين. كانت ذريتها الكبيرة العدد قد شكلت على مر السنين فرعاً ثانياً في عائلة رمسيس يأتي في المرتبة الثانية من ناحية الحقوق، وكان على هذا الفرع، كما يقضي المنطق، أن يقوم بمساعدة الأمراء الموعودون للعرش، وبالأخص رمسيس الرابع. فمنذ الأزل وعشرات الأمراء يولدون من الحريم الفرعوني ويتزوجون من أخواتهم الأميرات نصف الشقيقات.

من الخطأ الاعتقاد بأنه لم تكن هناك منافسات بين طلاب العرش، فتاريخ السلالات الملكية حافل بالصراعات الضارية والغيرة المكشوفة، بل وحتى باغتصاب العرش من صاحب الحق إذا كان هذا الأخير ضعيفاً. وإذا عاينا عن قرب التاريخ الطويل لسلالات الفراعنة المصريين خلال أكثر من ألفي عام، سوف نلاحظ الثبات المدهش لمجموع هؤلاء الحكام. هل كانوا يتمتعون بحزم لم تشهده باقي البلاد؟ هل تم اختيارهم وفق مقاييس صارمة ودقيقة؟ كلا بالتأكيد، فقد كان هناك الكثير من الملوك الرديئين في مصر كما في غيرها من الامبراطوريات؛ ولكن تلك التي أُسست على ضفاف النيل نجحت بحيث كان من الصعب الشك بتأثير متبادل بين العوامل الوراثية والسياسية؛ فاستمرار المملكة يعتمد على الهالة المحيطة بشخصية الملك، التي تُحَدَّدْ هي نفسها حسب مبدأ تيوقراطية الملكية.

بتأليه شخص الملك يرتقي الفرعون، أو الوريث الشرعي للعرش، إلى درجة نادراً ما

يصل إليها الحاكم في الممالك المجاورة، ويوضع في مكانة محصنة عليه أن يستغلها أفضل استغلال باستخدام إخواته وأخواته،ولكن دون الحط من شأنهم. كان كل فرد منهم يعيش في كنف وتحت إمرة هذا البشري الذي ألفوه فيما مضى، والذي أصبح فجأة تمثال جامد التقاطيع ككل الفراعنة، وصل إلى مرتبته لا بفضل جدارته الشخصية بل نتيجة اختيار الآلهة له. وتظهر النقوشات في الامبراطورية الجديدة، أكثر من العهود السابقة، صوت آمون الذي يحذر الرجال من طبيعة الفرعون الإلهية. والفرعون، هذا الرجل المتربع على القمة، يدّعي أبوة أسطورية تسمو فوق كل الحقائق الوراثية؛ فعندما تُحدث البذرة الإلهية الخصوبة في إحشاء امرأة، من يستطيع تحدي الطفل الذي سيلد من هذا اللقاء؟

ينشر الفرعون الذي يسكنه الجوهر الإلهي طاقة كونية في محيطه؛ فهو الصلة بين الآلهة وهذه الأرض؛ ويعمم هذه الطاقة على كل بلاد الأرضين بواسطة الأمراء وأصحاب المقامات. ويعتبر رمسيس نفسه مجدد تاريخ البلاد والخالق الذي أبدع نظاماًيهدف إلى خلود مصر ويستمد مصادر استمراره من القرون القادمة. لقد عمل الحكام ورجال الدين طوال فترة الامبراطورية الجديدة على توطيد هذه النظرة التيوقراطية، وكذلك حظيت مصر منذ الألف الثالث قبل الميلاد بنموذج للحاكم القاهر؛ وإلا كيف لها أن تبني الإهرامات الضخمة التي تمثل قبوراً لأنصاف الآلهةالمتطلبين؟ لقد اتضح أن هذه القوة تناسب تماماً المشكلة المصرية المعقدة، مشكلة توحيد الوادي الضخم وترويض نهره الهائج لخدمة البشر.

يشكل المبدأ القائل بأن الدم الملكي هو دم إلهي حقيقي جوهر نشأة الكون كما فسرها رجال الدين وطوروها لخدمة السلالات الملكية لآلاف السنين؛ ويجب أن يرث الفرعون هذا الدم المقدس من أبويه كليهما؛ وكان من المفضل في حالة رمسيس الثالث إضفاء طابع الأسطورة على هذا الأصل، إذ طالما كان الرماسيس من أصل متواضع، من عامة الشعب. وسوف تحافظ فكرة الأصل الإلهي هذه على بقائها رغم الحقائق الوراثية؛ ولكن النهاية البائسة للسلالة الثامن عشر، قبل قرنين من حكم رمسيس الثالث، بددت الأمل الوهمي برؤية أبناء سلالة ملكية واحدة فقط يتوالون على العرش.

عرفت مصر في الماضي البعيد الكثير من اللحظات السعيدة، ولكن الغزوات والثورات حطمت السلالات الملكية؛ ثم أتى عصر الامبراطورية الجديدة، وادعى حكامها الخلود بغرور عندما رأوها في الذروة؛ ولكنها لن تستمر أكثر من الامبراطوريات القديمة والمتوسطة التي أسستها السلالات الملكية العظيمة في الأزمان السعيدة...

واليوم، يساهم حقد تيي في تدمير الفرع الرمسيسي من التاريخ الفرعوني؛ فتقسيم

البلاط الملكي أثناء السنوات الأخيرة من حكم رمسيس انهك المملكة أكثر مما يمكن أن تفعله ثورة ضد الحاكم؛ فالأمر لم يعد متعلقاًبإحدى الفترات الانتقالية المظلمة والمضطربة، التي تحتضر فيها السلطة قبل أن تعود وتلد من جديد بمعجزة ما.

وتكشف السنوات الأخيرة من حكم رمسيس الثالث عن أمر آخر أكثر خطورة من تبديل حاكم قليل الشأن أو طرد هرطقي كأخنتون أو قريب مكروه؛ هذا الأمر يمس شخص الملك الذي ستقلل طموحات تيي من اعتباره وستحطم الفكرة المتعلقة بالإجماع على تقديسه. لم يكن رمسيس الثالث يوماً مهدداً خلال سنوات حكمه، ولكن في شيخوخته، سيكون ابنه المفضل معرضاً للخطر من قبل إحدى فروع العائلة، وسينتهي الأمر نهاية مأساوية. ما الذي سيبقى حينها للمؤسسة الفرعونية؟

من المؤكد أن تيي لم تكن لتدرك الخلل الذي ستحدثه في إحدى أقدم الحضارات الإنسانية. كان الكره ملتصقاً بروحها،وبنطعور/ Pentaour ابنها الذي بلغ الأربعين من العمر يذكرها بوضعها المهين ومركزها الثاني أبداً. كان هنا في عمر يؤهله للحكم، ولكن لا يُسمح له بفعل شيء. حتى في حال اختفاء رفيق شبابه، أي رمسيس الرابع، فسيكون ابن هذا الأخير - الذي سيصبح اسمه في المستقبل رمسيس الخامس - هو من سيتولى زمام الحكم؛ فقد أصبح هو الآخر رجلاً. ومن العبث المحاولة بإشعال معارك حقيقية بين ورثة العرش،فهناك الكثير من الآداب والتقاليد الواجب على البلاط احترامها لتجنب هكذا تجاوزات، على الأقل في حياة رمسيس الثالث.لم يكن الملك العجوز وأقرباؤه غافلين عن التوترات في البلاط، وكانوا يخشون المؤمرات التي تحاك في الخفاء؛ ففي الواقع كان كل حزب على أهبة الاستعداد، والسؤال الوحيد يتعلق بمعرفة ما إذا كان يجب انتظار موت الحاكم، إذ أن نية الفرع الثاني من العائلة المالكة بالانشقاق عنه كانت كبيرة جداً.

بقيت التفاصيل المتعلقة بأنساب هؤلاء الرماسيس الأخيرين مجهولة، فمن الصعب معرفة العلاقات بين أمير ما وأميرة من فرع آخر بدقة، فهناك حلقات ناقصة من الصعب العثور عليها في ظل التضرر الذي أصاب حفريات قواعد التماثيل، أو بسبب النقوشات الناقصة أو البرديات المليئة بالتلميحات الغامضة. وهكذا بإمكاننا الاعتقاد بأن بنطعور/ Pentaour ابن تيي قد تزوج من إحدى بنات إيزيس، ولكن هذا الارتباط شبه الإجباري لم يؤد إلى التحالف العائلي المعتاد حدوثه بين العشيرتين المنقسمتين، بل على العكس،فالكراهية تبدو شديدة إذا نظرنا إلى السنوات التي تلت موت رمسيس الثالث، سنوات الحكومات القليلة الأمجاد للجيل الثاني من الأمراء، أحفاد هذا الأخير. ربما كان هؤلاء الأبناء القليلي التعلق بجدهم قادرون على دفن النزاع الحاصل بين فرعي العائلة،

وخاصة بعد نهاية الفرعون العجوز المأساوية، ولكنهم سيتابعون تصفية حساباتهم على مستوى السلالة، وسيكون الخلاف بين مناصري قضية رمسيس الرابع وحلفاء ذرية تيي شديداً. من ذا الذي سيجرؤ على التكهن بهكذا مستقبل مروع في نهاية حكم رمسيس الثالث الذي أعاد أمجاد الامبراطورية؟ فرمسيس السادس مثلاً، سيحكم بعد موت رمسيس الثالث بعشرة سنوات؛ هل يجب أن نعتبره سليل هذا الفرع من العائلة المالكة أم ذاك الأخير؟ في جميع الأحوال،يكفي كرهه للحاكمين اللذين سبقوه، أي رمسيس الرابع والخامس، لنحكم على صلابة هذه السلالة. ومهما كان أصل هذا الحاكم، الذي يُعتبر نسخة شاحبة جداً عن رمسيس الثالث كما أباه وجده، فإن حقده الشرس هو صدى للأحداث المؤلمة التي تمت في هذا العام، عام ١١٦٨ق.م...

كانت هذه السلالة المالكة مهددة إذاً بالغرق، فأمرائها يهتمون بطموحاتهم أكثر من مستقبل البلاد؛ بل البلاد نفسها أضحت في حالة من اللامبالاة والبلادة تتجه أنظار أبنائها إلى آفاق أخرى كالدلتا. قد يستطيع ساحر شجاع أن يتكهن في هذه اللحظة بأن العرش سيؤول إلى سلف مخيف من ذرية الحاكم العجوز المتعب، هذا الرجل الذي كان يخطط لمشروع طموح يؤسس فيه مصراً جديدة تستمر لألف عام سيكون في الواقع آخر فرعون جدير بهذا الاسم، وآخر من مارس واقع السلطة كما تم تعريفها منذ آلاف السنين.

هل هو آخر حاكم لهذه الأرض؟ كلا بالتأكيد؛ ولكن ما قيمة أمير تسلم السلطة إذا كان سيحتقر التيوقراطية الملكية وقواعدها؟ هل يساوي أكثر من أحد الملوك البرابرة الذين استقروا على العرش بفضل السيف أو الذهب؟ أليس هذا ما كانت تفكر به تيي بصوت عال ويساندها في ذلك بنطعور/ Pentaour وغيره من أبناء البلاط؟ لقد انتقلت العدوى إلى البلاط؛ ولن ينحسر الشر دون ترك آثار رهيبة؛ فالخيانة ستتحول قريباً إلى مؤامرة وسينال هذا السم من آخر آمال رمسيس الثالث.

الفصل الثالث عشر

المؤامرة

لم يكن هناك ثمة ما يؤهل العام ١١٦٨ق.م ليصبح، بشكل خاص، إحدى الأعوام الأكثر اسوداداً في تاريخ السلالة العشرين، وليصبح أيضاً ـ والحق يقال ـ عاماً أساسياً في تاريخ مصر التي ولدت في ليل الأزمان الغابرة. فبعد انقضاء ما يقارب الألفي عام على مجيء أول فرعون مصري، نارمر/ Namer الأسطوري، يختتم قدر الملحمة الفرعونية سلسلة كبار الملوك برمسيس الثالث التعس، الفرعون الأخير الجدير بهذا الاسم.

لم يشعر الوادي الجميل بوجود ما ينذر بحدوث عاصفة تهز أساس العرش، فالأرشفة لا تشير إلى محافظات متمردة، والمرتزقة من شعوب البحر سعيدون بغنيمتهم التي كسبوها بجدارة بخدمتهم للفرعون، ولم يتم اكتشاف عدو واحد في الأرجاء المحيطة؛ ولكنها اللحظة التي اختارتها تيي المتمردة لتقرر اغتصاب دور الآلهة؛ فقرارها الذي فكرت فيه ملياً قبل الإقدام على تنفيذه، والذي دعاها عمر الفرعون العجوز إلى التعجيل بتطبيقه، سيسرّع في نهاية زوجها اللامع ونهاية الحضارة المصرية التراثية في الوقت ذاته.

لقد صممت تيي على قتل رمسيس الثالث.

ستفتتح تيي التي أعماها الكره طريقاً مجهولاً دون أن تبالي بما يجره عملها من تغييرات تقلب مجرى التاريخ، فمحاولتها قتل الملك ستغير قدر أقربائه وبالتالي قدر هذا الجزء من العالم... وسوف يتردد صدى محاولة الاغتيال هذه في كل البلاد ويؤدي إلى زعزعة البناء السياسي الذي تم العمل فيه بصبر طوال ألفي عام. لقد بدأت مرحلة الانحطاط؛ ولن يكون الملوك الخمسون الذين سيخلفون رمسيس الثالث على العرش سوى فراعنة مغمورين يتمتعون بسلطة ملك عادي جداً.

كانت تيي مصممة على القيام بمشروعها، فهي باتت تكره هذه السلالة وتتحداها لأنها لم تستطع الحد من سلطة ضرتها إيزيس، رغم منافستها لها بالجمال والسحر وامتلاكها لعينين سوداوين لوزيتين رائعتين. فإيزيس يساندها أبناؤها وعلى رأسهم رمسيس الرابع، وريث العرش ذو الشأن والمكانة الرفيعة، الذي عرف كيف يحيط نفسه بأعيان مخلصين يستطيعون النيل من أنصارها بسهولة.

ولكن المشكلة الآن ليست في وريث العرش بقدر ما هي في والده، فهذا الأخير لن يقبل أبداً أن يتنكر لابن إيزيس لمصلحة بنطعور/ Pentaour . لذا يجب التحكم بمصير الحاكم للتمكن من التحكم فيما بعد بابنه التعس رمسيس الرابع. ولكي يتم ذلك يجب قتله في بلاط غارق في الفوضى، عندها يعود رمسيس الرابع ليصبح نوعاً ما على قدم المساواة مع أخيه بنطعور/ Pentaour . وهكذا اكتسحت فكرة قتل الملك روح تيي شيئاً فشيئاً لتبدد قلق بنطعور/ Pentaour الطموح. ولكن من الذي دفع الآخر نحو الجريمة، أهي الأم أم الابن؟ لم تترك لنا البرديات التي روت المأساة أية إيضاحات عن هذا الموضوع؛ إذ أن المكان الأكبر فيها كان مخصصاً لقص تفاصيل تصرفات الجناة المجرمة وانحرافهم الشيطاني الخطر. وكانت النتيجة أن يُحكم عليها بالموت!

لا مجال للشك بجرم المتآمرين تيي وابنها، فتواطؤهما مؤكد؛ وقد أدى وضع المرأة الغيورة المعزولة في الحريم، القريب من وضع ابنها الذي يقف وحده في وجه شرعية أخيه التي أصبحت غير محتملة بالنسبة إليه، إلى المزيد من التلاحم بين الأم وابنها. فيوماً بعد يوم كان استسلام بنطعور/ Pentaour لأمه يزداد حتى أصبح دمية في يدها تحركها كيفما تشاء. فهو بالنسبة إليها الرجل الذي سيصبح الملك، وهو أمر طالما حلمت به هذه المرأة الطموحة دون أن تستطيع تحقيقه. ومنذ أن عجزت تيي عن الوصول إلى مرتبة إيزيس كسيدة حقيقة للحريم، تحول طموحها من التأنيث إلى التذكير؛ فهي تريد العرش كما أرادته تاوزرت/ Taousert منذ عدةأجيال، تريده كما أرادته تلك الملكة التي أزاحها سيتنخت عن العرش بعد أن أثارت وقاحتها جنونه.

لم يقبل التاريخ المصري يوماً بمثل هذا التحول؛ فالمرأة لا تستطيع أن تمثل الوادي وتظهر بمظهر وريث الآلهة،فكل أساس المجتمع الحضري القائم على شواطئ البحر الأبيض المتوسط، والذي تكون السلطة فيه للرجل الأب، يقوم بطريقة لا واعية على التحريض ضد المرأة، القوية من خلال دورها في الانجاب الذي يجعل منها سيدة الرجال والأرض. فحتشبسوت الجبارة اضطرت طوال فترة حكمها إلى التنكر بزي الرجال عندما تظهر أمام الشعب، لضرورة تواجد رجل على رأس البلاد ولو ظاهرياً.

دفعت تاوزرت/ Taousert ثمن جنونها كما حتشبسوت التي سبقتها ببضعة قرون. وقد تدحض معجزة حكم كليوباترا في حدود الألف الأول ق.م هذه الحقيقة! ولكن على المرء أن يتذكر بأنه في نهاية القرن الأول قبل الميلاد لم يكن في حكام مصر شيء من المصرية، فكليوباترا يونانية وابنة البطالمة، قائمي مقام الاسكندر الأكبر الذين قدموا من مقدونية في القرن الرابع قبل الميلاد. وإذا كان النظام القائم على سلطة الأم غير موجود في الطرف الآخر من بحر إيجه كما هو الأمر على ضفاف النيل، فمن الضروري ملاحظة الاختلاف الكامل في الأوضاع هناك وأخذ الإطار التاريخي والعرقي بعين الاعتبار.

كانت تيي تعلم أن رمسيس الثالث لا يمكن أن يلين أبداً فيما يتعلق بموضوع الخلافة، لذا وجدت أن الحل الوحيد يكمن بالسيف؛ فبدونه لا يمكن أن يحكم بنطعور/ Pentaour ويتحقق طموحها بالسلطة. كثيرات غيرها حاولن قبلها الاختباء وراء ظاهر سلطة ذكرية، فحتشبسوت مثلاً تركت قريبها توت موزيس/ Tout Mosis الثالث على قيد الحياة لتحكم باسمه. ولكن وطأة التقاليد تدفع أحياناًالنساء الطموحات إلى قتل الملوك، وقد تكون السكين الوسيلة الأسرع، ولكننا لا نستطيع إثبات تحركاً من هذا النوع عند المتآمرين من أنصار تيي. هل كان ينقصهم الوقت، أم أن الاكتشاف المبكر لسرهم منعهم من الانتقال إلى المرحلة التالية؟ على كل حال كان الجزء الأساسي من تحضيراتهم يقوم على خداع الملك العجوز عبر طقوس مسارية، أي سحرية نوعاً ما؛ فهي الوسيلة الأفضل للتحكم بالضحية دون ترك آثار دموية، على الأقل في البداية.

قد تثير هذه الممارسات السحرية سخريتنا وتجعلنا نقلل من أهميتها كعملية إجرامية إذا لم نكن نعلم إلى أي درجة تمزج الحضارات القديمة بين الواقع وعالم الأرواح الغامض. في الحقيقة لم يكن أحد يشك في أثر السحر الرهيب، وخاصة عندما تُظهر الترنيمات السحرية القوى الخفية. وكان استخدام السحر وشراب المحبة القادر على إحداث العواطف المختلفة أسوأ بالنسبة لعقلية ذلك العصر من التلويح بالأسلحة، إذ يُحكم على البائس الذي يخضع لقوى السحر الشريرة بالتحول إلى روح تائهة، أو جثة محرومة من إنسانيتها وغير قادرة على إيجاد الراحة في عالم الآلهة. هنا وجدت الملكة ما تشغل به حقدها ويعزز ثقتها بقرب نهاية زوجها المخزية.

أرسلت تيي خدمها المخلصين إلى السحرة القادرين على التلاعب بمصير كل أعدائها، فإيزيس وأبنائها والملك العجوز يجب أن يختفوا في أقرب مدة ممكنة، الأمر الذي سيؤدي إلى مواجهة عامة. ولكن الطقوس السحرية والترنيمات التي ينشدها النساخ أو الكهنة في الغرف السرية لم تجن الفائدة المرجوة. كان المتآمرون يعتقدون أن شراب المحبة

الذي يتم تحضيره حسب قواعد تعود إلى الأزمان الغابرة وتفسرها كتب الطلاسم بشكل جيد سوف يعطي نتائجاً مدهشة، وكانوا يثقون ثقة مطلقة بالسحرة، ولكن مهمة هؤلاء ليست سهلة، إذ يصطدم الساحر أحياناً بآخر أقوى منه فينقلب عليه الأذى. كان عليهم العمل بسرعة وتحضير الصيغ اللازمة وتسجيلها على البرديات، ثم إنشاد ترنيماتهم وخلطها مع شراب المحبة ذو المفعول السيء ليمتزج الأثرين مع بعضهما البعض؛ وكذلك يجب تمثيل صور الضحايا بدمية أو ما شابهها. وبالنسبة لمصري من ذلك العصر كان القول بمثابة الفعل والرسم بمثابة إعادة خلق الواقع؛ فالفعل له قوة الحياة، وإسقاط بديل عن مخلوق ما يجعل الشيء البديل مكافئاً للحقيقي إذا استطاع الساحر أن يضيف قوة الآلهة إلى علومه. إذاً، كان هناك سحراً، وإلا كيف نفسر وجود هذه الأعداد الكبيرة من التماثيل الخشبية أو الطينية الصغيرة في القبور، والتي يفترض فيهاأن تمثل جموع الخدم المكلفين بتأمين الخدمة المريحة للكا/ Ka، روح الميت التي تعود لتقطن في قبره؟

وهكذا كانت تيي تنسج مؤامرتها بعيداً عن ضحيتها وكأن شخصية رمسيس الثالث القوية لازالت قادرة على إبعاد المتآمرين الذين يسعون إلى إزاحته عن العرش؛ولكن الخطر لن يلبث أن يقترب. بالطبع كانت تيي تجلس كل يوم قرب زوجها العجوز وتحاول أن تريحه من همومه اليومية، تبتسم له كزوجة طيبة بينما قلبها ينبض بالكره ويغلي من غضب ستطفئه خلال بضعة أيام. أما بنطعور/ Pentaour ، فلم يكن يتواجد مع أبيه إلى هذه الدرجة، فقد كان لديه عائلة والتزامات أخرى تبعده عن البلاط. كان يشارك ككل إخوته في أمور المملكة وتنظيمها، وحرية الحركة هذه كانت تسمح له بلقاء حلفائه وباختيار آخرين من المحافظات البعيدة. وهكذا كان الأمير يصنع حلقة صلبة ضرورية للاستيلاء على السلطة عندما يصبح رمسيس الثالث في حالة سيئة،حالة رجل عجوز سقيم خبلته المخدرات.

كان نجاح التحضيرات يثير الراحة في نفس المتآمرين،حيث ستوضع فرق كاملة من الجيش تحت تصرفهم، معظمها من نوبيا المستعدة دائماً للانتفاض في وجه سلطة مركزية تمثل بالنسبة إليها عبأ ثقيلاً. لقد أقسم أحد قادة رماة السهام على الإخلاص، وهذا القائد لديه جنود أقوياء يُخشى بأسهم؛ وكذلك انضم الكثير من النساخ والضباط وأصحاب المقامات في شمال البلاد وجنوبها إلى بنطعور/ Pentaour . لم تكن هذه المؤامرة مجرد صراع ضارٍ من صراعات الحريم التي طالما ذكرها التاريخ، لقد كانت حرباً أهلية لا تملك أي هدف شرعي يتوجب النضال من أجله.

في الماضي، انتفضت بعض الأقاليم في وجه مغتصبي العرش الغرباء وأعادت النظام

إلى البلاد تحت راية الملكية الشرعية، كما كان الحال مع سيتنخت. هنايختلف الأمر كلياً، فالمصلحة هي الدافع الوحيد الذي يحرك الثوار ويوحد صفوفهم،وهذا دليل على الانحطاط الذي وصلت إليه مصر المحتضرة.

ولكن الجانب الأكثر إثارة للقلق في هذه المؤامرة يظهر في البلاط؛ فمن هذا المكان، من بين خليلات الملك والمقربين منه وأصحاب المقامات الذين يعملون على خدمته منذ عشرات السنين، سيتم اختيار المتآمرين المتحمسين للخلاص من فرعون. هل يجب تحميل تيي مسؤولية هذه الخيانة والاعتقاد بأنها سحرتهم بالوعود البراقة؟ أم كان أصحاب المقامات لعبة بأيدي الشابات الجميلات المكلفات بالترويح عن نفس الملك العجوز في سنين عمره الأخيرة؟ كان الحريم الملكي يتمتع بحرية كبيرة فيما مضى؛ ففي السابق، كانت الخليلات يتنافسن بالأناقة في انتظار قدوم الملك ويترصدن خطواته وإعلان كبير الخدم في أروقة مدينة حابو/ Medinet - Habou عن قدومه؛ ولكن بعد أن هجرهن الرجل العجوز الغارق في أحلامه الضائعة لم يبق ما يشغل بال هؤلاء النسوة سوى الغيرة. عندها عرفت تيي كيف تجذب لصفها الكثير منهن، إذ لم يعد لديهن ما ينتظرونه من أثر جاذبيتهن على الحاكم المتعب، فلا زينة من ذهب ولا عمل لأبنائهن،ولا سيما بوجود هذا العدد الكبير من الفرع الأول من أبناء الملك الذي يجعل مسألة الوراثة منتهية.

وهكذا التحقت الخليلات المحرومات بعصبة الجاحدين وبدأن يتسللن خارج غرف الحريم ليدخلن ـ بذعر في البداية وبوقاحة فيما بعد ـ إلى الصالات المخصصة لكبار القوم في البلاط، ويكتشفن عبر ذلك سيطرتهن الكاملة على رجاله، حيث ينسى النساخ عهودهم أمام ملاطفة الجميلات.

وضع كل فرد من المتآمرين عشيرته في خدمة المشروع الإجرامي. وكان لدى النساء في الحريم ما يكفي من الأماكن الخاصة للتآمر بعيداً عن أعين الشكوكين؛ فأجنحة مدينة حابو/ Medinet - Habou تتفرع إلى غرف كثيرة بحيث يكفي اثنين أو ثلاث من الحراس المخلصين لحماية المتآمرين المعزولين عن بقية العالم. لم يكن لدى إيزيس وأتباعها الفرصة للمجيء إلى هذه الأماكن المنعزلة، ولا شك أن الخائنات لم يكن يوماً مقربات من الزوجة الأولى للملك؛ فلا شيء إذاً يثير العجب في اجتماعات الصالة تلك. كان النساخ يستخدمون أبناءهم الذين يتمتعون هم أنفسهم بسلطات إدارية لنقل الأوامر وتنفيذها. وهكذا، وفي زمن قصير، تم تجهيز جيش من كبار القوم، هو بمثابة بلاط حقيقي آخر يعمل في الظل ويضم مجموعات فرعونية ثقافية وإدارية.

أصبحت مدينة حابو/ Medinet - Habou قصراً يقطنه الجنون، ففي الصباح تقام

الاحتفالات البروتوكولية، وفي الليل تعقد الاجتماعات السرية. وأصبح الكاهن الذي يبجّل الإله الحي عند الفجر ويتلو الأناشيد الدينية لتحميه الآلهة، يلعن الفرعون في المساء ويحضر له السموم الرهيبة. حتى رجال الدين انضموا إلى المؤامرة وعرّضوا حياتهم للخطر لتلبية نداء تيي. في الأمس كانوا متحمسين للسلطة الملكية، واليوم نراهم في مقدمة القوى التي ساهمت بتفكيك الامبراطورية الفرعونية؛ ولكنهم لن ينجوا من العار. يا لتعاسة رمسيس الثالث! ها هي أوهامه تتبدد مرة أخرى؛ فللمرة الثانية يقوم الكهنة بخيانة الرجل الذي أحسن إليهم، والذي كان خادماً مخلصاً لمعبد الأرباب.

كان الحريم الملكي في قلب الزوبعة، فالنساء هن اللواتي يقدن المؤامرة؛ أما الرجال من قادة الجيش وكبار الخدم والكهنة فلم يكن لهم سوى أدواراً ثانوية. هل كانت الضحية التي تستحق عقابهم هي حقاً رمسيس الثالث؟ أليس من المحتمل أن تكون إيزيس، سيدة العالم النسائي الصغير والمنغلق في البلاط هي من يستهدفه غضب المتآمرات. كان الاضطراب سائداً حتى النهاية والنزاع قائماً على أعلى المستويات، فالسفينة التي هجرها القبطان تسير نحو الغرق. ولم تكن صراعات العشائر هذه سوى إحدى أعراض البداية رغم أن معاصريها قد شعروا بها بقسوة؛ فماذا نقول إذاً عن الكارثة النهائية، كارثة انهيار البلاد بأكملها؟

كانت عملية اغتيال الملك تقلق رجال ذلك الزمان أكثر من الانحطاط النهائي الذي تبعها والذي لم يكن من السهل تلمسه بالنسبة للفكر البشري. هل نلوم رجال تلك الأزمان الغابرة لعدم قدرتهم على تفكيك رموز مجرى التاريخ التي تتعدى الحدود الضيقة لوجودهم؟

أُعدّت المؤامرة، وجُهّز السحر، وبات الجنود ينتظرون حدوث الجريمة في صالات مدينة حابو/ Medinet - Habou لكي ينقضوا بدورهم على الحاميات المشهورة بولائها للفرع الأول من العائلة الرمسيسية. كان هذا الحشد من المتآمرين يبعث الراحة في نفس تيي ويحثها على المضي قدماً في مشروعها، فكل يوم جديد يأتي بالمزيد من الحلفاء. ولكن اتساع رقعة المتآمرين جعل هؤلاء الأخيرين لا يتوخون الحذر في تصرفاتهم وينسون القاعدة الذهبية التي عليهم اتباعها، ألا وهي السرية التامة.

مضت عدة شهور على التحضيرات وتلقى مئات الرجال من أصحاب المقامات الأوامر الدقيقة. كان تنظيم المتآمرين شبيهاً بتنظيم المجتمع الفرعوني، فهو متسلسل حسب مراتب أفراده بدءاً من أبناء البلاط والمحيط الملكي حتى أصغر ناسخ في البلاد؛ وكل فئة من فئات المجتمع قدمت رجالاً شديدي الإخلاص لأحد المتآمرين. ولكن الأمر الجوهري لا

يكمن في هذا الحشد المطيع إنما بإعطاء الإشارة التي طال انتظارها، وهي قتل الحاكم أو تحطيم الإرادة الملكية على الأقل، ليصبح بنطعور/ Pentaour الفرعون الجديد. ولكن من الذي سيحمل الخنجر القاتل؟ لم يعطي التاريخ جواباً لهذا السؤال الجوهري.

نظم المتآمرون ثورتهم بكثير من الحيطة، حيث عقدوا تحالفات كثيرة مع مختلف الفئات لدرء أي خطر. ولكن ذلك أدى إلى عدم الحفاظ على السر وافتضاح أمر الجريمة. ربما كان من الأفضل لتيي أن تعتمد على قوتها فقط وتلعب دور امرأة خرجت عن طورها وأصابتها الغيرة بالجنون إلى حد رفع خنجر الانتقام في وجه سيدها والخلاص بذلك من الملك العجوز! ولكن القيام بمثل هذه الحركة من دون تخطيط قد لا يمكّن بالضرورة من تأسيس سلالة جديدة لتحتل العرش. لذا لن تفعل تيي؛ فهي تريد التحكم بالمستقبل. ولكن المهمة تجاوزت أبعادها بكثير. لكأن تحطيم البناء السياسي لمصر ـ في شخص سيدها ـ أصبح عملاً لا يقل صعوبة عن الحفاظ على البلاد.

وبدأت الشائعات تسري في أروقة البلاط. في البداية كان الكلام مبطناً، ثم ذُكرت الأسماء فيما بعد. واستولى الشك على الملك وإيزيس، وبدأ أمراء الفرع الأول من العائلة المالكة بالتحري عن الموضوع بدورهم بواسطة حشود العاملين على خدمتهم. وبسرعة افتُضح الأمر واكتُشف الوباء الذي يهدد مدينة حابو/ Medinet - Habou .

* * *

كان غضب رمسيس الثالث بمستوى المفاجأة، ولكن دهشة الحاكم تحولت فيما بعد إلى شعور بالإهانة لا يطاق، فانتشر الحراس في البلاط وبدأت ملاحقة الخونة.

قام الأمير الوريث وبعض أصحاب المقامات المخلصين بتكليف رجال موثوقين لا تغريهم سبائك الذهب ولا تخيفهم التهديدات بتوقيف المتآمرين. وشيئاً فشيئاً تكشّفت فظاعة اتساع المؤامرة.

ولا نعلم إذا كان رمسيس الثالث قد عانى مباشرة من آثار المؤامرة، ولكن يبدو أن الفرعون العجوز قد تجاوز المحنة؛ بيد أننا لم نجد في البرديات ما يشير إلى احتمال إصابته بجروح. هل أسقط المتآمرون مشروعهم لحظة سمحت الصدفة ـ أو الوشاية ربما! ـ للملك الأرضين بإيقاف عملية القتل؟.

ثبطت همة الرجل الذي طالما حلم ببناء بلاد قوية تستمر أجيالاً طويلة وأصبحت معنوايته في الحضيض! ففيما وراء فشل المؤامرة، فيما وراء إخفاق عملية الاغتيال التي دُبرّت في زمن تسوده الفوضى والاضطراب، نجحت تيي في بث السموم في جسد الملك

الذي لم يعد له أمل في المستقبل؛ فهو سيموت ببطأ ولكنه سيموت حتماً، وبعد عدة شهور سيخلفه ابنه رمسيس الرابع على العرش.

تمت الاعتقالات بشكل جيد، فلا النساخ ولا الكهنة استطاعوا النجاة من قبضة حراس الفرق المخلصة للملك، التي قامت بتفتيش مدينة حابو/ Medinet - Habou . وقد ساعدت الأحقاد الشخصية على تسهيل التحقيق، فقد قام الخدم ببيع أسيادهم المتورطين في المؤامرة بإعطاء معلومات خاصة عنهم تؤدي إلى إيقافهم؛ وقام الشاردانيون/ Shardanes من حراس الملك بمطاردة الهاربين ولاحقوا معاوينهم في كل البلاد؛ فلا أحد يستطيع الإفلات من يد فرعون في هذا الوادي الذي يتجاوز طوله الألف كيلومتر، من نوبيا وحتى البحر الأبيض المتوسط. ثم بدأ جهاز العدل بالعمل، وزُجّ مئات المذنبين في سجون الحاكم.

كانت المؤامرة قد اتسعت إلى درجة كبيرة انتشر فيها الفساد في البلاط وأضحى التخلص من الفرع الخائن في العائلة المالكة ضرورياً دون ندم؛ لذا قُتل الأمير بنطعور/ Pentaour واعتقلت تيي مباشرة. ولكن هل سيقوم رمسيس الثالث بإعدام زوجته الثانية، وهو أمر نادر جداً في التاريخ الفرعوني؟ لم يكن المصريون يوماً شعباً محباً للاستعراضات الدموية، فلم يكن هناك إعدام جماعي على ضفاف النيل، ولا تلك القتالات بين المصارعين التي طالما أثارت الاترورين وأبناء روما؛ وإن كان رمسيس الثالث قد أمر في الماضي بإعدام قادة شعوب البحر، فليس حباً بالعنف إنما لتحذير البرابرة الآخرين من الاعتداء على بلاده.

قد نرى الكثير من المشاهد العنيفة في الرسوم الجدارية في المعابد، ولكنها مشاهد تصف مذابح المعارك الصاخبة. وطبعاً كان الإعدام موجوداً في ذلك المجتمع القديم حيث لم يكن للحياة البشرية أية قيمة، ومع ذلك كان يبدو أقل ابتذالاً منه في المجتمعات الأخرى. وإذا كان العبد بمثابة آلة يمكن تدميرها بنظر الأقوياء ذوي النفوذ ـ كما سيكون عليه الأمر في روما بعد ألف عام ـ فإن التضحية بحياة بشرية لا يعتبر رمزاً له صدى على ضفاف النيل؛ كما أن عقاب المذنب المتهم بانتهاك الحرمات التي تحمي السلطة،والهبات اللازمة التي تُمنح للآلهة لضمان حسن سير العالم، لا يستدعيان إراقة الدماء. لقد وصل المصريون إلى درجة عالية من التحضر بإهمالهم للرمزية القائمة على الدماء، واستعاضتهم عنها بعقوبات قانونية أخرى أو هدايا قيّمة مادية أو روحية، كالبخور مثلاً.

لا بد أن أصواتاً قد دوت في صالات قصر ملايين السنين تدعو إلى الرحمة أو إلى العقاب الأعظم، ولكن لا رمسيس الثالث ولا إيزيس ولا الأمير الوريث للعرش يميلون

للشفقة. ومع ذلك، يجب إصدار أحكام عادلة لبعث الاطمئنان في نفس الشعب والنساخ الذين بقوا مخلصين للشرعية وللسلالة الرمسيسية، هذه السلالة التي لا تزال تتبع القوانين القديمة التي تعود لألفي عام إلى الوراء، والتي تقضي بعدم العفو عن جرم كبير لأن ذلك قد يكون دليل ضعف.

ولكن ذلك لا يعني بأن إقامة العدل على ضفاف النيل يتم بقطع عنق المتهم بحد السيف كما يفعل قائد شارداني/ Shardane ... فكل الممالك القديمة، حتى تلك التي كانت تجهل الكتابة ولا تتمتع بتنظيم إداري كبير ومتسلسل المراتب، كانت تتبع قواعداً تقليدية معينة وصلت إلى درجة عالية من التنظيم في مصر بسبب كبر مساحة البلاد وتنوع العلاقات بين السكان الحضر وتسلسل الرتب المعقد في المجتمع. فكل ذلك يتطلب تنظيماً قانونياً مناسباً يختلف تماماً عن قوانيننا المعاصرة.

في هذا الإطار، لا يستطيع رمسيس الثالث أن يحمل سيفاًويقطع أجساد الخونة، بل عليه محاكمتهم. وهو لا ينقصه القضاة والعلماء القادرون على تذكيره بأمثلة قديمة تستند على قرارات حكام ذوي شأن؛ ولن يطول البت في القضية عندما تعرض على المحكمة. ولأن الحاكم لا يريد الانتظار، وقع اختياره على بعض أقاربه وبعض النساخ والحجّاب والخدم ممن يملكون القدرات بالتأكيد ولكنهم ليسوا مختصين بالقضاء، حتى أن فيهم بعض الأعيان الأجانب! هل فقد رشده وهو الذي تعرض لتأثيرات ضارة؟ لقد فُرض بعض هؤلاء القضاة عليه. في الواقع، كان رمسيس يبدو كرجل مطارد؛ فهو لم يعد يثق بالنساخ ولم يعد يتقبل سوى أقربائه الذين يثق بإخلاصهم وتريحه نظراتهم المحبة. لن يهتم إذاً باختيار القضاة من النبلاء أو المصريين أو أولئك الذين قضوا سنوات الدراسة في دور الحياة؟

في هذه المرحلة من انحطاط الملكية الفرعونية تبقى فقط روابط العشيرة والاخلاص الذي توطده سنوات الحياة المشتركة بين الناس. لم يعد رمسيس يملك من القوة أكثرمما يملك رئيس عشيرة ينتمي إلى حقبة مظلمة من حقبات ما قبل التاريخ، كزمن الصيد الذي يجمع القائد فيه رفاقه ويتأهبون لمواجهة الأعداء. كانت المحكمة مؤلفة من خليط عجيب من الحجاب والعلماء البارعين بالحصول على اعترافات المتهمين، والضباط الذين يشعرون براحة على عربة الحرب أكثر مما يشعرون بها في هذه المحكمة التي تبدو مهمتها صعبة... وكان رمسيس يطالبهم بقضاء عادل؛ ولكن بإمكاننا أن نحزر بأنه سيكون قضاء لا رحمة فيه في زمن الخوف ذاك. ورمسيس الرابع هو من نظم على الأرجح الجلسات القضائية، فكل شيء في الواقع يثبت سيطرة الأمير وريث العرش على السلطة.

وبات رمسيس ينتظر فرج الآلهة وتخليصها له من نهاية الحكم المشؤومة هذه...

بينما رمسيس الرابع ينظم الأمور ويرسل الرسل. كان التحقيق يتقدم عبر استجوابات لا تساهل فيها؛ وقد دفع الكثير من المتهمين ثمن غلطتهم.

كان هناك عقاب واحد فقط يستطيع تبديد ضيق الفرعون وتهدئة الشعب: إنه الموت الذي له معنى شديد الأهمية في هذه الأماكن الحضارية. لن يعرف رمسيس الثالث الهدوء حتى يعاقب الخونة. ولكن هل سيكون مرتاحاً حقاً؟ نستطيع التكهن بمدى حزن الأب عندما يضطر إلى الحكم على ولده بنطعور/ Pentaour بالموت. لقد كبر هذا الأخير إلى جانبه ورباه أكثر من بقية إخوته الصغار الذين تركهم لعناية الحريم. كان هو ورمسيس الصغير مبعث أمل الحاكم السعيد في بداية سنوات حكمه، وكان من أصحاب المقامات الكبار كإخوته،وقد استحق دائماً مكانته. ها هو الآن يتوقف عن العمل لكي ينال الجزاء الفاضح.

وتيي... كيف له أن ينسى سنوات السعادة التي قضاها بقربها والتي تنقلها لنا الرسوم الجدارية في مدينة حابو/ Medinet - Habou ؟ لا بد أن رمسيس قد أحب هؤلاء النسوة كثيراً حتى يأمر برسمهن إلى جانبه على جدران المعابد ويخلدهن بهذه الطريقة. حتى صوره تبدو بعيدة عن صور الحكام الجامدة التقاطيع التي عودتنا عليها النقوشات. هل يستطيع الرجل العجوز أن يتخيل نفسه يحمل السيف ويقطع عنق زوجته كزوج فظ تعرض للخيانة وأصابه جنون الغضب لضياع شرفه؟

لم يتعرض رمسيس لمحنة أسوأ من هذه؛ حتى حروبه مع شعوب البحر لا تقارن بالضيق الذي يشعر به ما أن يغمض عينيه. وحده الموت يستطيع إخراجه من هذا الكابوس. وعندما سيختفي أبطال هذه المأساة، عندما يُعدم المجرمون ويوضع رمسيس الثالث في القبر، يأتي النسيان ويضع البلسم على الجروح؛ حينئذ يلتحق رمسيس ببلاد يالو/ Ialou ويتخلص من أحزانه الإنسانية، وتكمل مصر مشوارها مطمئنة إلى عناية أصحاب السلطة بها.

وفي انتظار المخرج، تتوالى التحقيقات وتوشك على الانتهاء؛ فالجميع اعترف بخطأه ولن يفيد الإنكار أحد، ولا سيما أن الحلفاء الآخرون قد تكلموا. لن يفكر أحد بالتماس العفو الملكي، فقتلة الملك يهددون توازن الوادي ويجب أن يموتوا. بقي أمر وحيد لم يتم إيضاحه وهو مصير تيي. لن يستطيع التاريخ أن يكشف سر النهاية التي قُدّرت لهذا الحب الخائن...

كان رمسيس يعتقد بأنه يستطيع أن يترك لحكمة رجاله عناء مقاضاة المجرمين، ولكن

أتباعه المخلصين أعلموه بأنه لن يتاح له حتى تحقيق هذه الأمنية الأخيرة؛ فقد اكتُشفت خيانة بعض القضاة؛ ولم يكن الخدم الذين حلوا محلهم يملكون الخبرة اللازمة، بل إن ثقل المهمة أدار رؤوسهم فأسكرتهم السلطة وتوسلات عائلات المتهمين، وتعلقوا هم أنفسهم ببعض المتآمرين فحاولوا إخفائهم أو عرقلة مجرى العدالة الملكية في أسوأ الأحوال.

كان هناك العديد من الروابط بين القضاة الذين كثيراً ما ارتادوا البلاط وأولئك المتهمين بالخيانة، ولا سيما النساء منهم. كم شعر رمسيس بالإحباط من الانحطاط الذي ساد بلاد النيل! فكلمة الرجل لم تعد تساوي شيئاً فيها، والمال فقط، أو الوعد بقضاء ليلة ماجنة، يستطيعان تحريك النخبة في البلاد! بإمكاننا التكهن بمدى يأس الملك العجوز المرهق، وهو الذي شهد نهوض سيتنخت للدفاع عن التقاليد وكان مستعداً للموت من أجل مصر وملوكها المؤلهين.

تولى رمسيس أمر الخونة الذين لم يراعوا مصالحهم المباشرة واعتقدوا بأن عشيرة إيزيس سينقلب حالها ويمسها السوء حتى بعد أن تم الحكم على المتآمرين الرئيسيين بالموت. هذه المرة لن يكون هناك أحكام بل تعذيب وتمثيل بالجثث أمام البلاط؛ ولن يستاء أحد من ذلك. لقد دخلت الوحشية بقوة إلى بلاط طيبة، فقد ألقيت الأجساد الدامية إلى الشعب ليطأ بالأقدام هؤلاء الرجال الذين لا يساوون شيئاً، الذين هم أقل قيمة من الحيوانات، وتفجّر خوف المجتمع برمته من المستقبل المظلم في هؤلاء الضحايا.

وما أن هدأت الزوبعة حتى أعيد التحقيق في قضية المؤامرة، فبنطعور/ Pentaour/ وتيي لا يزالان ينتظران الحكم. وبدأ رمسيس الرابع يفقد صبره،فقد آن الأوان للتخلص من المجرمين للحفاظ على وحدة الوادي. أما رمسيس الثالث فلم يعد يقول شيئاً. في بداية التحقيق كان قد ترك بعض التعليمات مكتوبة، ولكن التطورات الأخيرة جعلته يسكت إلى الأبد.

سوف تكون الأحكام الصادرة حاسمة؛ فبعض الرجال سيُعدمون وبعضهم الآخر سيتعرض لتعذيب مريع أمام الشعب، وسيقضي غيرهم من آثار الجراح بعد أن ينساهم الجميع، بينما يلجأ آخرون للانتحار.

أمرت العدالة بمحي كل أثر لهؤلاء الملعونين، فُغيرت أسماءهم لتلاحقهم اللعنة حتى الموت؛ فعندما يفقد المرء هويته يمحى اسمه من كتاب الآلهة الكبير ويُحرم من الخلود. وهل الخلود ممكن أصلاً إذا لم تدفن الجثة أو تُحنّط بعناية؟ ومن الطبيعي ألا تلقى جثثهم المتفسخة الرعاية اللازمة، بل ستُلقى على أبواب المدينة لتكون طعاماً لأبناء آوى.

وماذا حلّ ببنطعور/ Pentaour ؟ لقد اختفى ذكر هذا الابن التعس والطموح من سجلات الملكية. لا شك أنه قد قتل، ولكن كيف؟ لم يشأ رمسيس الثالث ووريثه على العرش أن يتركا شواهد على هذا الحادث، وهذا طبيعي؛ فعلينا تفهم هؤلاء الرماسيس الذين شعروا بذل كبير لاضطرارهم إلى قتل أحد أفراد عائلتهم من أجل البقاء في السلطة. هل مات بنطعور/ Pentaour ببطء في زنزانة أم قتل بطعنة خنجر؟ لقد اختفى هذا الأمير من سجلات العائلة، ولكن أبناؤه لم يخسروا حياتهم وحقهم في وراثة العرش... وسوف يكون الصراع شديداً في المستقبل! ولكن الوقت تأخر للتفكير بكل النتائج السيئة، فالملك العجوز سيكتفي الآن بتطهير الجرح الذي لوث سنوات حكمه الأخيرة، وسيهتم بأمر تيي. ولكن اللقاء الأخير بين الزوجين سوف يختفي في ليل النسيان...

كانت النتائج مفجعة، فقد فرقت الدماء بين فرعي السلالة المالكة؛ وانتصرت إيزيس، ولكن تخلى عنها جزء من النخبة وأبناء الأعيان الذين تعرضوا للعذاب؛ فهؤلاء الأخيرون لن يمنحوا القتلة أية ضمانات إخلاص في المستقبل. كان على أهل بنطعور/ Pentaour وأقاربه التزام الصمت كي لا يتعرضوا هم أيضاً للعقوبات الرهيبة، ولكن الحقد سيغذي ذاكرتهم لتلعن رمسيس الثالث إلى الأبد؛ وإذا استطاع أحدهم الوصول إلى العرش في خضم اضطرابات الخلافة، لن يستطيع أحد التكهن بردة فعله إزاء ذكرى الفرعون العجوز قاتل ولده. ما الذي سيحل حينئذ بالشعائر الجنائزية المهداة للملك، ما الذي سيحل بالآثار التي تركها؟ لا بد أن بعض الأمثلة الشهيرة عن الانتقام من الحكام بعد موتهم تطارد فكر رمسيس الثالث. فقبل ثلاثة قرون، قام توت موزيس/ Thout Mosis الثالث العظيم، الذي يعتبر نموذجاً لرجل الدولة، قام بمحي حتى أصغر الكتابات المهداة إلى عمته حتشبسوت التي أبعدته عن العرش في صغره لتحتله هي. لقد شفى غليله إلى درجة أن ذكرى هذا الحكم الأنثوي المجيد اختفت زمناًطويلاً وعانى علماء الآثار للعثور على أثر لها.

وحدها إيزيس استطاعت الصمود في وجه العاصفة،وها هي الآن تقف منتصرة إلى جانب وريث العرش الشرعي؛ ولكنها لن تكون لامبالية تجاه وهن زوجها، فالرجل العجوز الذي يسير إلى جانبها لم يعد ذاك المنتصر الواقف بكبرياء على عربته المزينة. لقد أصبح الأحياء بعيدين عنه الآن، والآلهة وحدها تستطيع تقديم العون له؛ فهذا الفرعون العظيم لم يعد قادراً على التحكم بنهاية حياته.

الفصل الرابع عشر

خيانة الذكرى

لن تستطيع المومياء المسجونة في تابوتها الخشبي المزخرف أن تسمع أنغام التأوهات التي تفتح أمامها طريق وادي الملوك. لقد استدعيت أفضل النائحات في المملكة لهذه المناسبة. كان النعش يرزخ تحت وطأة الذهب والتزيينات؛ ولو لم يسمع الشعب الأغاني الجنائزية وصرخات اليأس لاعتقد بأن الموكب هو إحدى الاستعراضات الفرعونية الكبيرة التي كان رمسيس الثالث يتمسك بها كثيراً.

لقد مات رمسيس الثالث؛ ولن يبوح لنا النساخ بسر اختفائه. هل تلقى الرجل العجوز المصدوم ضربة أودت بحياته؟ أم هو النفور من أقاربه الذي عجل بنهايته؟ لكم تمنى الموت في أواخر أيامه! لقد قتلته مؤامرة تيي وبنطعور/ Pentaour بطريقة أو بأخرى، فلم يكن لديه أي أمل بالبقاء على قيد الحياة بعد خيانة كهذه أوضحت له طوباوية أعماله المستندة على فكرة خلاص مصر على أيدي رجالها. ألم يكن قادراً على رفع الأسوار الآجرية والقلاع الحجرية القادرة على حماية بلاده الممزقة دون مساعدة رجاله المتقلبين؟ للأسف، ما كان يلزم مصر هو جدار من رجال حازمين يختلفون عن أبناء البلاط المجتمعون وراء نعشه.

اليوم، يبكي الجميع الحاكم المتوفى وتمزق النساء أثوابها الكتانية وتلطم وجوهها حزناً عليه، ويتلي الكهنة الصلوات على روحه، بينما يسرع الموكب نحو السيم في الصحراء، أو الحمراء كما يسميها المصريون الذين يرهبهم اتساعها وجماد الحياة فيها. لم يكن رمسيس الرابع وأمه إيزيس غافلين عن معنى هذه التأوهات ونفاقها، وكان على ولي العهد أن يستخدم القوة ليضمن تصرف رعاياه بشكل جيد تجاه العائلة المالكة، ولا سيما بعد أن

أصبح سيد البلاد الجديد وحمل الزينة الملكية، أي التاج والصولجان والسوط المقدس، وغيره مما يحمله ذاك الذي يُطلق عليه اسم: الحياة والصحة والقوة.

كان شعور رمسيس الرابع أثناء تتويجه مشابهاً تماماً لشعور أبيه عند موت سيتنخت، حيث تمزقت روحه بين الانفعال والحزن على فقدان والده. لا يزال يذكر إيعازات أبيه الأخيرة للنساخ؛ كانت تترجم قلق الفرعون بعد أن أصابه الضعف وأفاق من أوهامه، وتمدح ولي العهد الذي شاخ على عربات القتال وهو يقود المعارك في الجهات الأربع من البلاد. كانت صلوات أب متمسك بنجاح ذريته، استطاعت خرق مشاعر الابن رغم أسلوبها المميز والمعقد.

كان النساخ الذين نقلوا كلمات رمسيس الثالث إلى البردية يعلمون مدى تعاسته، فأمانيه بالازدهار تحولت إلى أنين ملك قلق يترك عرشه لابن متقدم في السن وتشعره قوى الشر بالضيق، فقد تهاجم هذه القوى الابن بدوره وتجعله يخفق في سلوك طريق المجد. لقد أودع رمسيس الثالث في البرديات وصاياه التي تشهد على أبوته الراعية، والتي تؤكد حساسية هذا الرجل الذي تظهره النقوشات بين نسائه في وضعية إنسانية بسيطة. لم ينس رمسيس الرابع تلك الأشياء الجميلة، ولم يعد يسمع الهتافات من حوله، بل كان فكره مركزاً على الطريق الطويل المليء بالحصى والمؤدي إلى الوادي العقيم، إلى شِعب الجبل الأجرد الملتهب بحرارة الشمس، والأكثر وحشة بين ملاجئ الأموات الآمنة، حيث يرتاح قدماء الملوك في قبورهم المحفورة في أحشاء الأرض الرطبة.

شعر رمسيس الرابع بسعادة لوجود أمه قربه وسط تدافع الجموع حوله تحت لهيب الشمس الحارقة.. هي أيضاً ستشهد أمام هذا العالم الجاحد على عظمة الحاكم المتوفى الذي نال الاحترام بقوته، والذي كان من جهة أخرى موضع سخرية في الخفاء لسعيه المغرور نحو المجد. كانت صورة رمسيس الثاني هاجس ابن سيتنخت، وقد دفعته إلى سلوك طريق الرفعة مخاطراً بعرشه ومملكته. كم تذمر أصحاب المقامات من جنون مشاريعه! لقد نسوا قتاله الشجاع ضد الغزاة من شعوب البحر،والذي لولاه لما تسنى للبلاد أن تفكر في مستقبلها وتتساءل عن مصيرها.

حمل الموت سر رمسيس الثالث إلى القبر وخنق القناع الخشبي المتعدد الألوان ذكريات الرجل الأخيرة، تاركاً فقط صورة جامدة عن فرعون دخل الأسطورة. ماذا سيفعل مدوني أخبار هذا الحكم المنتهي؟ لقد أقسم رمسيس الرابع على تبجيل أبيه كل يوم عبر أفعاله. هل سيستطيع ذلك؟ سوف يكون عون إيزيس كبيراً في هذا المجال، فالمرحلة القادمة

تبدو مليئة بالصعاب. ولكن رمسيس الرابع سيمنح نفسه مهلة الآن،فاليوم هو يوم حزن ولا شيء يتحرك في البلاد. بيد أن عمق الشقوق ينبئ بغد مظلم.

وصل رمسيس الثالث إلى مقره الأبدي حيث ينتظره قبره المحفور في الحجر الأبيض في وادي الملوك منذ أعوام. هنا، في هذا المكان المليء بالورع، لن تطاله سخرية البشر؛ وفي هذا القصر القابع في جوف الأرض حيث الحجارة هي الحليف الأكثر إخلاصاً،سيجد الملك العجوز كل ما يحتاجه: فالأواني المليئة بالطعام، وتماثيل الخدم الصغيرة المصنوعة من الطين أو الخشب،وقطع الأثاث الخشبية الثمينة المطلية بالذهب تتكدس في فوضى عارمة. لن يرى الشعب هذه الكنوز أبداً، فمن الأفضل ألا تُثار الأطماع، فهي ستتفجر قريباً. أما الآن،في هذا الزمن الذي يُدفن فيه رمسيس الثالث، تعتبر هذه الأطماع كارثة لا يمكن حتى تخيلها.

وُضع التابوت الخشبي ذو الجدران المغطاة بكلمات هيروغلوفية مقدسة في قالب من حجر الغرانيت الوردي حيث سترقد الجثة بأمان دون أن يمسها أحد. هل خطر ببال رمسيس الثالث بأن عزلته الأبدية هنا تعتمد أيضاً على الرجال كما عندما كان حاكماً في قصر ملايين السنين؟ فلو نقص حراس مدينة الأموات والكهنة المكلفين بالشعائر والعبادات قد يصعد الحاقدون الدروب المليئة بالحصى ويدخلون إلى الأماكن الأكثر سرية في الوادي المقدس ويدنسون قبر ذاك الذي عانى كثيراً من خيانة رعايه الجاحدين...

لا أحد يريد التفكير بذلك الآن، فرمسيس الرابع تولى العرش وعليه أن يكرس له بقية حياته، ولا سيما أنه تجاوز الأربعين من عمره وبدأ العد العكسي بالنسبة إليه. كم أقلق هذا الأمر رمسيس الثالث! ترى هل ستمنحه الآلهة الحياة الطويلة كما فعلت مع أباه؟ سوف يستقبل معبد مدينة حابو/ Medinet - Habou كهنة جدد للقيام بشعائر جنائزية لآلهة معبد الأرباب وللحاكم المتوفى، لكي تبقى ذكراه حية في الأذهان.

في هذا العام، عام ١١٦٨ قبل ميلاد السيد المسيح، يبدأ عهد الذكرى. فإيزيس وابنها رمسيس الرابع يعلمان أن أيامهما معدودة على هذه الأرض، وعليهما أن يكونا الحراس الأوفياء لأعمال المرحوم، ولا سيما أنهما غير قادرين على القيام بأعمال أخرى جديدة. فإيزيس امرأة،ودورها كسيدة للحريم لا يسمح لها بالتوضع في المقام الأول، وإن كان الجميع يعلم بأن نصائح هذه الملكة القوية لها وقع خاص عند ابنها. أما رمسيس الرابع، فخدماته القديمة تشهد على مكانته وشرفه، ولكن قساوة الأزمان وتفكك الجهاز الإداري في المملكة والأحقاد العميقة التي تفرّق أصحاب المقامات لا تشكل إطاراً مناسباً

لسياسة نشطة. كان خليفة رمسيس الثالث يعلم ذلك، لذا اقتصر طموحه كفرعون جديد على المحافظة على توازن البلاد الذي صنعه والده، والذي بدأ ينهار في نهاية حكم هذا الأخير. لقد تورط رمسيس الرابع وأمه إيزيس دون علم في صراع خاسر مع الزمن.

من وادي الملوك،يستطيع الموكب المرافق للمومياء الملكية أن يتأمل الوادي الأخضر والحقول الممتدة ما شاء النظر، ويتأمل أفق الصحراء التي تفصل النيل عن البحر الأحمر. شعر رمسيس الرابع بأنه لن يحصل على شيء إذا سعى لإخضاع الرجال والأشياء في الاتجاه الذي أوصى به رمسيس الثالث. كم مرة حذره أبوه من نعومة الفصول في البلاد وغنى النيل الطبيعي؟ من المؤكد أنه فخور لمشاركته في ازدهار سكانها وحمايتهم من الغزاة؛ ولكن تراخي هذا الوادي الذي استهلكه الزمن يبدو له أكثر خطورة من أكثر المعارك ضراوة.

على الفرعون الجديد أن يفكر جيداً، فهو لن يستطيع أن يأخذ درساً في سياسة الحكم إذ استسلم لذكرياته وانعزل في جناحه ليعكف على قراءة البرديات. عليه أن يعود بذاكرته إلى الزمن البعيد، إلى الزمن الذي كان الحلم فيه ساكناً روح رمسيس الثالث، ولم يكن أحد يجرؤ حينها على معارضته وهو الذي أوحت له الرؤيا بأن مصر ستكون غازية. حينها كان رمسيس الرابع شاباً يؤمن بأبيه المصمم على التحكم بالتاريخ وعلى ترك أثر له في ذلك القرن من الزمن.

على رمسيس الرابع أن يعيد لصق القطع المتبعثرة من مرآة الحلم التي حطمها إعصار المؤامرة؛ عندها سيهتم الكهنة المخلصون بمصالح الامبراطورية أكثر من مصالحهم الشخصية، وسيقوم النساخ الأوفياء بإدارة الأقاليم البعيدة من جديد، ويتم تطهير البلاط من الغدر. وويل يومئذ للخونة! ولكن رمسيس الرابع وحيد الآن أمام عمل أبيه الذي لم يكتمل؛ وهو مجرد من كل شيء كما كان أبوه رمسيس الثالث بعد موت سيتنخت؛ غير أنه لا يملك الطموح والأمل الذي انتشر في البلاد بعد إقصاء الخائنة تاوزرت/ Taousert عن العرش. لم يعد لديه الحماس، فرمسيس الرابع رجل اعتاد كثيراً على صعوبات السلطة، لذا لن يشعر بالنشوة في هذه اللحظات التي يبدو فيها كل شيء ممكناً.

كان سيد البلاد الجديد يفكر وهو يقوم بتكريم أبيه في معبد مدينة حابو/ Medinet - Habou الجنائزي في جسامة التاج المزدوج. لقد استطاع رمسيس الثالث حمله دون تعثر حتى سنوات حكمه الأخيرة على الأقل؛ وقد استمد رمسيس الرابع بعض الشجاعة من نجاح أبيه، وسوف يبذل جهده للسير على خطاه.

كان الصمت يعم البلاد وكأنها تريد أن تمنح خليفة الحاكم القوي الذي بقي ثلاثين عاماً في الحكم وقفة للتأمل! ثم بدأ رمسيس الرابع بإصدار أوامره؛ وطبيعي أن تتعلق قراراته الأولى بإدارة المملكة، فالفرعون يرى كل شيء وينظم أدنى التشكيلات الإدارية؛فلا يُعين أحد في منصب إلا بإذنه ولا يقوم أحد بأية خطوة دون أمر منه. وعاد النساخ إلى مكاتبهم في القصر الملكي وامتلأت البرديات بالمراسيم التي تقضي ببناء قلعة في الشمال أو تأمر بالتحضير لبعثة إلى نوبيا أو الوديان الصحراوية في الجبال العربية؛ إذ يجب النهوض بالبلاد من صدمة المؤامرة والعودة بها إلى العمل؛ففيضان النيل لا ينتظر. وعلى الحاكم تخزين المحاصيل الزراعية إذا لم يشأ مواجهة خطر فظيع تجنبه رمسيس الثالث بحكمة، وهو المجاعة. كانت مصر تعاني من مشاكل كثيرة لتصمد كدولة،فكيف إذا أصابتها المجاعة؟ ستقضي المصيبة حينها على كل الأقاليم وتتفجر الثورات في القرى اليائسة وينتهي حكم الرماسيس.

وهكذا بدأت رحلة رمسيس الرابع في الحكم بعد مرور زمن طويل، أصبح معه الوقت ضيقاً أمام الحاكم الجديد ليصبح نظير أبيه وليستطيع مقارنة نفسه به. لن يتمكن هذا الابن البار يوماً من بلوغ أبعاد الحلم والعظمة التي طالما ألهمت رمسيس الثالث، فسوف يحلّق خيال الحاكم المتوفى فوق مصر طوال هذا العقد من السنة، وسوف يتردد اسمه على كل الألسنة، حتى وإن كانت تتكلم لتبين أخطاء الرجل العجوز.

بدأ الوضع يتحسن في البلاد، وبدأ النساخ يشرفون على المناطق البعيدة في المملكة دون تقلبات روحية، وأقسمت بلاد كيش/ Kouch وأقاليم الدلتا وشعوب البحر على الولاء للحاكم الجديد. في بعض اللحظات، كان رمسيس الرابع يعتقد بأن بلاده قد استعادت عظمتها المفقودة،ولكن نظرات أمه إيزيس كانت دائماً تذكره بأن مصر تعيش على أمجادها؛ فلا المعابد التي أهداها للآلهة العطوفة، ولا المسلات التي نصبها في أطراف البلاد تمجيداً لعظمتها، تعطي الانطباع بتحقيق انجاز عظيم.

هل يحتاج الملوك إلى أعداء بمستوى شجاعتهم لإظهار قوتهم؟ ربما.

كان رمسيس الرابع بحاجة إلى ميششر/ Meshesher آخر؛ كان ينقصه أقوام من الشاردانيين/ Shardanes . لقد ساعد هؤلاء الأخيرون والده، وهو يشعر بالامتنان لهم ولشجاعتهم، وعليه الآن أن يدفع ثمن تحالف أبيه معهم. كانت مصر محاطة من جميع الجهات بشعوب جائعة تنتظر الفرصة المؤاتية لالتهام فريستها، فالليبيون يترصدون التغيرات من مرتفعات الصحراء، وكذلك النوبيون الذين شهدوا مصرع بعض قادتهم ممن تحالفوا مع بنطعور/ Pentaour ؛ وإن كانت هذه الشعوب غير قادرة على التحرك الآن فهي تنتظر

مستقبلاً باهراً. لن يكون هناك معارك كبرى في ظل حكم رمسيس الرابع، وسوف تبقى جدران مدينة حابو/ Medinet - Habou سليمة وشامخة، ولن يحفر عليها الحاكم الجديد قصص انتصار حاسم. ربما كان ممكناً لوادي الأرضين الجميل، الذي وصلت غزوات كبار فراعنته حتى حدود الفرات في زمن السلالة الثامنة عشر،أن يحدد مصيره في ساحة الوغى كما روما التي تنازلت شيئاً فشيئاً عن أطراف الراين المليء بالبرابرة، أو بيزنطة التي لم يبق منها سوى العاصمة بعد أن هاجمها الأتراك العثمانيون. ولكن مملكة النيل كانت على العكس تبدو وكأنها تنعم بالهدوء وتخضع لقانون الزمن الذي سيجعلها تقضي كجيفة وتلتهمها الشعوب التابعة لها دون توجيه ضربة واحدة إلى الجسد المحتضر.

هل كان رمسيس الرابع مدركاً لتواضع حكمه؟ ربما. فالخطابات المحفورة على المسلات والصروح التي تركها لنا تدعو كلها إلى العظمة كما نصوص أبيه. ولكن رمسيس الرابع لا يملك إمكانيات والده المالية، فرمسيس الثالث كان لديه كنوزاً مكدسة جمعها نساخ مخلصون وخزنوها على مدى قرون من تاريخ الامبراطورية الجديدة. ولم تتفجر خلال تلك الفترة حروب مكلفة كتلك التي قامت ضد شعوب البحر لتنضب الأموال بشكل نهائي؛ ولكن هذه الأموال أُنفقت في بناء المعابد والقصور وترميم مئات الصروح الأثرية خلال عهد البنّاء الكبير رمسيس الثالث، إضافة إلى نفقات الحروب، مما أدى إلى شعور المحيط الملكي بالمرارة، رغم أن هذا النقص في الموارد المالية الذي يؤدي إلى إضعاف سلطة الحاكم هو في مصلحة النساخ والكهنة نوعاً ما. أما أبناء الشعب، فلا زال أمامهم متسعاً من الوقت والكثير من المصائب ليبكوا الحاكم المتوفى وينتظروا ولادة ملك مقدام مثله. ولكن أبداً لن يساورهم الشك بأن ذريتهم لن تشهد مجيء حاكم يعيد للحضارة المصرية أمجادها.

لم يزداد سوء الأحوال في البلاد بشكل فعلي في عهد رمسيس الرابع، ولكن العناصر الثلاث التي جعلت نهاية حكم الملك العجوز ضعيفاً استمرت بقوة خلال فترة حكم الابن، فالعدو الخارجي قد يستطيع دخول الوادي بسهولة في ظل الحماية الضعيفة المؤمنة له، والكهنة يسعون دائماً لاحتكار السلطة، والمرتزقة الغرباء الذين منحهم رمسيس الثالث حق الاستقرار في حدود الامبراطورية ينتظرون الفرصة السانحة لانقضاض على البلاد.

لم يكن هناك امبراطورية تتحكم بالجهة الشرقية من البحر الأبيض المتوسط في منتصف القرن الثاني عشر قبل الميلاد، ولم تكن الشعوب المجاورة لمصر تهدد الحدود،فهناك فروق ديموغرافية وعسكرية كبيرة بين سكان الوادي لا تسمح للسوريين أو الفلسطينيين

بالتحكم بكل البلاد المصرية التي تقطنها ملايين الأرواح البشرية المنتشرة على مساحة تتجاوز الألف كيلو متر. الخطر إذاً يكمن في داخل البلاد أكثر من خارجها، تماماً كما كان عليه الوضع في عهد رمسيس الثالث؛ حيث أن ثروات الوادي التي يصونها الحاكم لا تزال عرضة لأطماع شعوب البحر وكهنة آمون.

بدأ كهنة آمون يفرضون أنفسهم بوقاحة، ولا سيما بعد تمزق العائلة الرمسيسية الذي عاد عليهم بالكثير من الفوائد، إذ أنهم الوحيدون الذين يستطيعون الحكم على شرعية النظام الملكي الحاكم. وعادت الكنوز لتسلك طريق الكرنك، وعاد الذهب ليتكدس في الخزائن، واستمرت المنشآت الدينية والأراضي التابعة لها في التوسع على حساب مصلحة الشعب. وبدأ كهنة بتاح/ Ptah وهاتحور/ Hathor والآلهة الأقل أهمية في تساعية (من تسعة. المترجمة) الآلهة المصرية بمحاولة تقوية سلطتهم المحلية في كل مكان، ليعيدوا بذلك المبدأ القبلي الذي كان سائداً في مصر ما قبل التاريخ ويفككوا شيئاً فشيئاً الوحدة المصرية التي عمل الفراعنة على تحقيقها وحمايتها خلال ألفي عام، والتي تطلب تحقيقها تأليه الأمير الحاكم ليصبح نموذجاً للملكية في عصره. هذا المجتمع الذي أصبح منذ ذلك الوقت هرمياً في تشكيلاته السياسية والاجتماعية كصروح الجيزة الشهيرة ألغى النظام القبلي القديم الذي يعود للأزمان الغابرة ووضع هذا النموذج الجديد قيد التنفيذ في اللحظة المؤاتية تماماً، عندما اضطرت العديد من الأقوام إلى هجر الصحراء بسبب التقلبات المناخية. هذه الصدفة الطبيعية خلقت ضرورة تاريخية بإجبارها هذه القبائل على التوحد في مكان واحد تحده ضفاف النهر الأسطوري الموحلة. ولكن موت رمسيس الثالث أدى كغيره من اللحظات المؤلمة في السابق إلى إعادة النظر في المبدأ نفسه، مبدأ حتمية وجود هذه الحضارة موحدة، رغم أن مصر لم تستطع يوماً الاستمرار وهي ممزقة. فقد كان للوادي وظائف للتأقلم كما الجهاز العضوي تساعده على مواجهة تحديات التاريخ. والخطر الآن يكمن في إطلاق قوى التفكك بشكل نهائي.

قاد رمسيس الرابع في الماضي الكثير من الفرق العسكرية، كفرق رماة السهام النوبيين والحرس الشاردانيين/ Shardanes وغيرهم من عشائر شعوب البحر التي تحترمه وتحترم الحلف الذي عقدته مع الحاكم العجوز عندما كان في وضع حرج، ولا سيما أن هذا الحلف قد عاد عليها بالكثير من الفوائد وجعلها تبسط سيطرتها بشكل غير محسوس على كل الدلتا، حيث ازدهرت أحوال الجماعات السامية والنوبية والهندية ـ الأوروبية المستقرة علىالحدود، حتى أن الكثيرين منهم استطاعوا أن يصبحوا أتباعاً مخلصين لرمسيس الثالث وحكاماً للمحافظات. وأصبحت مصر كبرج بابل! هنا أيضاً تتفكك

الوحدة المصرية؛ ولا يبدو أن هذا الأمر يسوء الفرعون، فهو قد عانى الكثير من خيانة النخبة المصرية ولم يعد يخشى الأجانب. ورمسيس الرابع كأبيه، يريد التصديق بأن هؤلاء القادمون من مكان آخر مخلصون.

لم تكن هذه الموازييك البشرية موجودة في صفوف الكهنة، فالسلالات الكهنوتية التي عاش أجدادها على ضفاف النهر هي الوحيدة التي تستطيع الادعاء بأنها تقود البلاد في الاتجاه الصحيح الذي تمليه الآلهة؛ واطمئنانها إلى هذا الأمر أدى إلى زيادة تعجرفها وخطرها؛ لذا كان لا بد من تولي رمسيس الرابع العرش لفترة طويلة ليصلح فيها الأمور ويضع حداً لأطماع هذه السلالات.

لم يكن رمسيس الرابع يحب الكهنة، ولا بد أن أبيه قد باح له بمخاوفه منهم؛ ومع ذلك سوف يكون ضعيفاً مثله أمام هؤلاء العلماء النهمين للسلطة الدنيوية. ففي السنوات الأخيرة من حكمه تنازل رمسيس الثالث عن جزء من سلطانه المؤله لهم، وها هو ابنه اليوم يسير على نفس الطريق. بيد أن ذلك لا يعرض الفرعون لتهديدات، ولكنه ببساطة يُفقده الاحترام شبه الديني الذي كان يتمتع به. كان رمسيس الرابع يمثل استمراراً لأبيه، ولكنه لم يحاكي سوى سنوات حكمه المظلمة، في حين كان يحلم بإعادة الازدهار إلى البلاد وإعادة إحياء الحماس الذي كان سائداً أيام شباب أبيه. حينها كان صغيراً ولم يكن ليتذكر مصادرة أملاك كهنة آمون وتعيين أعيان جدد يمتثلون لرغبة الفرعون في الإصلاح. وإذا كان رمسيس الثالث لا يستطيع التفاخر بفتوحاته الكبيرة كأسلافه العظام، فهو على الأقل فتح جبهات تجديدية في داخل البلاد، كان من الممكن أن تعد مصر بمستقبل أكثر إشراقاً من تلك الغزوات الخارجية التافهة التي نعرف بأنها لم تُجدِ الكثير من النفع على مر العصور.

سوف يكون رمسيس الرابع صورة عن أبيه خلال أيام حكمه الأخيرة فقط، وسوف يساعده الأعيان والكهنة على لعب دور الشبيه بالحاكم المتوفى، كما سيشبهه بعض المتزلفين برمسيس الثاني. وستستمر إدارة البلاد بشكل جيد، وستظهر بعض الأبنية والصروح هنا وهناك. وحسب تقارير مكاتب البلاط الملكي التي تتحدث عن الأنشطة العمرانية، تبدو مصر وكأنها بلاد مزدهرة أبداً. ولكن قدر العائلة الرمسيسية هو السير دوماً في عكس اتجاه الزمن، فبعد ست سنوات من بداية حكمه،وفي الخمسين من العمر، سيموت رمسيس الرابع بتأثير المرض على الأرجح، إذ أن البرديات لا تشير إلى مؤامرة أو حروب. لن يكون هذا الابن العزيز على قلب رمسيس الثالث، والذي كان خليفة سيتنخت يعتقد بأنه سيكون صورة حية عنه، لن يكون بمستوى آمال أبيه، ولن يستطيع الوفاء بالعهد الضمني الذي قطعه لوالده المحتضر؛ فهو أيضاً سيغادر إلى بلاد يالو/ Ialou ويترك العرش لولي عهد جديد: رمسيس الخامس.

لا تزال الصروح التي أهداها رمسيس الرابع إلى والده موجودة، وقد أضاف إليها خليفته بعض الإهداءات، ثم أُسدل الستار على ملحمة رمسيس الثالث. فبنطعور/ Pentaour الخائن قد مات، ورمسيس الرابع، الوريث الشرعي، لحقه إلى القبر، واختفى بذلك الشاهدين على إنجازاته. كيف ستستطيع إذاً الأجيال المستقبلية من السلالة أن تتمثل أفكار الجد؟ كيف لها ألا تخيب آمال روحه ـ العصفور، الروح البا/ Ba التي تحلّق بيطأ فوق البشر، كالطيور الجارحة في أعالي شاطي السيم الصخري حيث يرقد الأموات؟

سوف يعتلي عرش مصر سبع فراعنة من العائلة الرمسيسية على التوالي، ولن يكونوا جميعاً أبناء آخر ملك حكم البلاد، بل أحفاد الرجل الذي يمثل شرعية العرش، ألا وهو رمسيس الثالث. سوف يكون هذا التوالي سريعاً إلى درجة أن المحنطين لن يجدوا الوقت لتخزين مراهمهم السحرية التي تمنح الجسد الخلود، وسيضطرون إلى تحضير المزيد من المراهم التي تحفظ الأحشاء في خابية الأموات. ولكن الآن عليهم البدء بتفريغ جثة ابن رمسيس الثالث. لا بد أن هذه المراهم هي نفسها التي استخدموها لتحنيط جثة هذا الأخير، ولا بد أيضاً أن رائحتها القوية تذكرهم بالفرعون العجوز الذي تعرض لخيانة أقاربه.

شُيع جثمان رمسيس الرابع وسط أجواء أقل مأساوية من تلك التي سادت في جنازة أبيه، ولكن الملكة إيزيس كانت تتألم بصمت وهي تسير في طريق وادي الملوك؛ فقد سبقها الرجلان اللذين خدمتهما بكل طاقتها إلى القبر. لقد خُيل إليها أن روح رمسيس الثالث قد انطفأت من جديد في هذا اليوم المشؤوم؛ فموت الابن هو موت للمثل الرمسيسي الذي تقمصه هذا الأخير، والذي يعتبر أهم من الحياة نفسها.

* * *

واستولى فرعون جديد على البلاط الملكي. لم يكن أحد قادراً على أخذ مكان الابن البكر لرمسيس الرابع، وهو فأل خير بعد الحكم القصير لوريث رمسيس الثالث التعس، هذا الحكم الذي احتفظ محبي الملك العجوز المتوفى خلاله بذكرى عظمة منسية! هل سيشهد رمسيس الثالث تمجيده بعد موته؟ هل سيرى بلاده تسير من جديد في طريق الطموح الذي اختاره لها؟

وبدأت الجموع المبتهجة تهتف للفرعون الجديد الجامد التقاطيع، وكأنه الرجل الذي منح الوادي العظمة والخلود منذ الأزمان الغابرة. وراء اللحية المستعارة، ووراء الوجه

الرمسيسي الصلب، يختبئ وجه آخر ذو تعابير مختلفة؛ ولكن الجميع يريد أن يرى فيه حزم رمسيس الثاني وشجاعة رمسيس الثالث وبعد نظره. ومع ذلك، كان البعض يتساءل عما إذاكان الحاكم يستطيع المطالبة بالعرش شرعياً لكثرة ما توالت عليه حكومات سريعة ومتلاحقة. لقد آن الأوان لفهم مزايا السنوات الثلاثين التي حكم خلالها رمسيس الثالث، والتي تحولت شيئاً فشيئاً إلى ذكرى أسطورية.

كان رمسيس الخامس فخوراً بدمه الرمسيسي شأنه شأن جميع أسلافه الرماسيس، وهو قد عرف جده جيداً، إذ أنه ولد عام ١١٩٠ ق.م، حين كان رمسيس الثالث في أوجه، محاطاً بهالة من انتصاراته على شعوب البحر. وقد اعتبرت ولادة الأمير حينها ولادة سعيدة إذ تزامنت مع سحق الغزاة البرابرة وقيام الأعياد في طيبة! وكأبيه رمسيس الرابع، تعلم الأمير الشاب مهنة الحاكم في أقسام الدولة، حيث تنقل كأعمامه الكثر من قيادة عسكرية إلى أخرى، واطلع على كيفية إدارة الشؤون العامة تحت إشراف الحاكم من بعيد.

لم يكن رمسيس الخامس يتمتع بسمعة عسكرية جيدة كأبيه، ولكن على البلاط تقبل الأمر، فهو سليل العائلة المالكة الشرعي وحفيد إيزيس التي لا تزال حية، تسدي النصائح لهؤلاء الملوك ذوي المصير المتقلب. لقد آل عرش مصر إلى رمسيسي من الرماسيس، وعلى الأمير الجديد أن يمحي خيبة الأمل الناجمة عن قصر مدة حكم رمسيس الرابع.

هل كان رمسيس الخامس قادراً على تصحيح مسار تطورالوادي الذي ازداد تفككه أكثر من أي وقت مضى؟ ربما. لكن التاريخ لن يمنحه الوقت ليفعل؛ فالموت سيختطفه بعد أربع سنوات فقط من تنصيبه على العرش، أي أنه لن يمنحه حتى الوقت القصير الذي حُظي به والده. لقد قضى المرض ــ ربما هو الجدري ــ على الحاكم الجديد حتى قبل أن يضع اسمه على أي من النصب التذكارية، وسيكون رمسيس الخامس أحد الملوك الأقل شهرة في التاريخ المصري.

في تلك الأزمنة الغامضة، وفي تلك الفترة الزمنية بالذات، توفي عدد كبير من الحكام من أبناء رمسيس الثالث، الذين تُنبئ صورهم المحفورة في مدينة حابو/ Medinet - Habou بكثرة عددهم. كيف يمكن إذاً متابعة أعمال السلف الماجد في هكذا ظروف متزعزعة لا استقرار فيها؟ لو سحبت الآلهة ثقتها من ذرية خادمها رمسيس الثالث فلن يستطيع أحد إنقاذ الوادي من مصيره الرهيب. فحكم امبراطورية بحجم مصر

بحجم مصر يحتاج إلى وقت ويتطلب قبل كل شيء معرفة هذه المساحات الجغرافية التي تربط الأماكن الاستوائية بشواطئ البحر الأبيض المتوسط. كما أن زيارة الفرعون لأراضيه وتواصله مع رعاياه يجعل احترامه واجباً. ولم تكن الدولة لتصمد وتستمر في تلك الأزمنة المغرقة في القدم لولا مركز الحاكم والهالة المحيطة به. لقد فهم رمسيس الثالث هذا الأمر، لذا قام بترميم المدن والمعابد في كل مكان وحرص في كل مرة على تواجده أمام رعاياه. وقد عرف أيضاً كيف يجعل من نفسه أسطورة بخوض المعارك في بادئ الأمر، ثم بإعلاء صدى انتصاراته بحفرها على جدران الصروح الأثرية. كيف يمكن للحاكم فرض وجوده في ظل آخر متوفى، ولا سيما أن إعلام الحاميات المتواجدة على الحدود النوبية أو السورية بموت الفرعون وباعتلاء ابنه الواعد للعرش يتطلب عدة أشهر؟.

بالإمكان القول إذاً أن مصر لم تعرف أن فرعوناً جديداً قد أمسك بزمام الحكم وقام بإدارة شؤون البلاد قبل أن يلحق بدوره بالأرواح التي سبقته إلى أراضي يالو/ Ialou الغامضة. تعيس هو مصير سلالة رمسيس الثالث، هذه السلالة العشرين التي كانت تسير في طريق النسيان! فمصر دون فرعون لا يمكن لها الاستمرار،ولا سيما بعد تبخر حلم رمسيس الثالث وموت الأمراء في إبان الشباب؛ فهذا الموت المبكر قد حطم عمل الأب والسلف الماجد. قريباً ستستطيع القوى المعادية لهذه السلالة أن تتحدى البلاد دون خوف من العقاب، وسيتحول صولجان رمسيس الثالث من أداة تهديد إلى نقوش بسيطة تزين مدينة حابو/ Medinet - Habou .

لقد أعطى حكم رمسيس الثالث الطويل الانطباع بأزلية مهمته كحاكم؛ أما اليوم فالأمور تسير بشكل مختلف تماماً. فخلال بضعة سنوات اضطر النساخ إلى تولي شؤون الإدارة بأنفسهم والاستغناء عن موافقة الحاكم الذي ما أن يتم تنصيبه حتى ينصب كل اهتمامه على اكتشاف البلاد، أو يقع فريسة المرض ويُترك لأيدي الكهنة لتقوم بتحضير انتقاله إلى العالم الآخر. في هذه المرحلة المحزنة من التاريخ المصري، التي لم تكن مع ذلك الأولى التي تتعطل فيها سلطة الحاكم، ولدت أسوأ العادات عند أصحاب النفوذ في البلاط، حيث ظهرت الكثير من السلالات الصغيرة وعمت الفوضى. ولكن البلاد التي تعاني من أزمة لن تستطيع هذه المرة إيجاد علاج للغنغرينا السياسية التي اجتاحتها،ففرعون أضحى من الآن فصاعداً وحتى موت الحضارة المصرية أقل الرجال الذين يمكن الاعتماد عليهم؛ أما مصر، فهي ستضطر إلى الاستمرار بسلطاتها المحلية الخاصة وبنساخها، أمناء كانوا أم لا.

انتهى أمر الفرعون الذي يمثل رمزاً لنظام عمره ألفي عام، وانتهى أمر البلاد ككتلة موحدة دون أن يشعر معاصري تلك الفترة بهذا الأمر. فمنذ اعتلاء رمسيس الخامس العرش في منتصف القرن الثاني عشر قبل الميلاد، استقرت عشائر قوية يخشى بأسها في كل المقاطعات، وتشبثت كل منها بقيادة إحدى القلاع وسيطرت على الوادي ذي الثروات المعدنية الكثيرة.

لم تعد هناك ضرورة للرجوع إلى الحاكم لإخضاع الشعب للسخرة السنوية؛ فمن ذا الذي سيتدخل لتوزيع الحصص بشكل عادل من قبل هذا الناسخ أو ذاك عندما يكون هذا الأخير قادراً على إقامة التحالف مع الحاميات المهمة بفضل ثرائه؟ لو كنا نستطيع تحميل رمسيس الخامس التعس مسؤولية هذه الخيانة الجديدة لأعمال جده لجعلناه دون أدنى شك المذنب.. ولكن هل بالإمكان محاكمة إنسان يحتضر أو شبح فرعوني؟

تم إذاً تحضير قبر جديد في وادي الملوك، وهُيأ المعبد الجنائزي في مدينة حابو/ Medinet - Habou لاستقبال وفود إضافية من الكهنة، الحريصين على الصلاة والتضرع إلى الآلهة لتغفر للميت ذنوبه. لقد مات ثلاث رمامسيس خلال عشر سنوات دون أن تقوم ثورة في مصر أو محاولة لإعادة النظر في مسألة هيمنة الرماسيس. هل هذا دليل عظمة أم هو حزن أرض هجرتها الآلهة؟ لقد مات عشرات الآلاف من الرجال تحت راية رمسيس الثالث، منهم من قضى في المعركة ومنهم من مات في ورشات العمل كما كان يحدث منذ بناء الأهرامات الضخمة. واليوم يتردد البعض حتى في تقديم الأضاحي.

بعد عدة أشهر من موت رمسيس الخامس توافد الأعيان من جديد إلى البلاط الملكي، إلى صالة الأبهة حيث يجلس الفرعون الجديد منتصراً،يحمل بفخر صولجان أسياد الوادي. لقد اعتلى رمسيس السادس العرش في هذه السنة، سنة ١١٥٨ ق.م. كانت الجدة إيزيس إلى جانبه، امرأة عجوز ذات وجه مليء بالتجاعيد وتحظى باحترام الجميع. كانت نظراتها تخونها أحياناً وتفضح حزنها، وهي التي لم تفارقها ذكريات الأيام السعيدة. ولكن الرجل الذي تجلس بجانبه يكن لها محبة خاصة جداً؛ أليست أرملة السيد القدوة الذي لا تزال ذكراه تطارد وجدان كل الأمراء المصدومين بعجزهم؟

لم تكن إيزيس تذكر كثيراً تلك الأيام السعيدة التي أحيا فيها رمسيس البلاد وجعل البلاط يدوي من ضجيج وفود النساخ وهم يهرعون لتأدية مهامهم فيه، ولم تكن تذكر كذلك الحماس الذي كان يثيره في جموع طيبة عند عرض المساجين البرابرة؛ فلِمَ

استرجاع ذكريات ذاك الزمن الذي انقضى ولن يعود؟ كانت تعلم أن وجودها لا جدوى منه،فلا شيء هنا في هذا العالم الدنيوي يذكرها بمعارك زوجها. ومع ذلك، لم يكن أي أمير ليبقى لا مبالياً عند سماع قصة هذه الانتصارات الرائعة، فهي كالحلم الذي لم يتم تحقيقه... كانت إيزيس ضمير الملكية؛ ووجودها الصامت كان كافياً ليكفل شرعية هؤلاء الحكام المترددين؛ وقد حرص رمسيس السادس على عدم إبعادها عنه وإبقائها في محيطه.

ولكن إيزيس كانت تعاني من بعض المخاوف، فرمسيس السادس لم يكن يخفي حقده تجاه الحاكمين السابقين، وطبيعته المندفعة والهائجة لم تكن تنذر بالخير. كان عمره يتجاوز الأربعين عاماً، وكان ينتظر دوره في الحكم بصبر، فالموت أصبح ينقض على حياة أبناء هذه العشيرة بسرعة قاسية ويجعل الحكام يتدافعون على العرش الواحد تلو الآخر؛ ولكنه كان يتذمر أمام بطانة رمسيس الخامس. عند موت هذا الأخير تفجر حقد الحاكم، فقام بتدمير كل النصب التذكارية والآثار التي تركتها سنون حكم سلفه القصيرة، والتي تعتبر تافهة إذا ما قيست بتلك التي تركها أخنتون، الذي نسيه التاريخ لهرطقته في عبادته للشمس وتعظيمه لها وحدها...

لم يترك لنا التاريخ أية معلومات عن أسباب هذا الخصام وهذا التحول الأخير في ذرية رمسيس الثالث الخائبة؛ ذلك أن قصر مدة حكم هؤلاء الأمراء جعل الصمت يخيم على حياتهم وآثارهم، كما لم يسمح لهم بالقيام بالكثير من الإنجازات الرائعة التي تثير الفخر؛ فالسلاح لم يتكلم مرة واحدة ليحكي قصة حدث مشرق يغير ابتذال الحياة اليومية؛ ولم يكن الوقت ليسمح لهم كذلك بحفر مآثرهم الأسطورية على الحجارة، ولا حتى برفع أنقاض جدران المعابد.

عند تأمل مصير هذه العشيرة التعيسة يخطر ببالنا أبناء هنري الثاني، ملك فرنسا المزدهرة في عصر النهضة، الذي مات في إبان الشباب تاركاً الملك لأبنائه الثلاث الذين اتسم حكمهم بالفشل الذريع، حيث كادوا يحكمون على فرنسا بالدمار الشامل ـ وبسهولة ـ أثناء المرحلة العصيبة التي كانت تمر بها، مرحلة الحروب الدينية! لم تستطع حينها كاترين دو ميديسيس أن تحل محلهم، فهي امرأة. وإيزيس أيضاً امرأة، وكأبنة الميديسيس وقفت تتأمل انهيار عالمها وهي عاجزة عن فعل شيء.

في عصر النهضة الذي يعتبر عصراً حديثاً مقارنة مع عصر الفراعنة،كان هناك الكثير من الشواهد على تلك المرحلة المضطربة، كالنصوص وغيرها من الروايات المتنوعة التي عبر

صداها عرفنا الكثير عنها. ولكن الأمر يختلف بالنسبة للحضارة التي ولدت قبل ثلاثة آلاف عام، والتي كانت الكتابة فيها نادرة وفي بداياتها، فلم يحافظ الزمن على آثارها. لذا لن يندهش أحد من الصمت الذي خيم على احتضار الامبراطورية المصرية، التي استمرت لآلاف السنين ثابتة وراسخة.

كان لدى رمسيس السادس نية كبيرة في استعادة الوقت الضائع، ولكن الموت كان يحوم حوله؛ كما أن كرهه لرمسيس الخامس تجاوز كل الأولويات، فلم يثر فيه تداع المملكة الجلي أية انتفاضة أو وعي وإدراك لخطورة الوضع.فالوزراء يتبخترون في الدلتا والجنوب ويجمعون عشائرهم المخلصة حولهم، أما كبار الكهنة فهم يتحكمون كأسياد بمعابدهم التي أضحت ولايات حقيقية منتشرة في كل الوادي، يتكدس الذهب في خزائنها ويتناقص في خزائن الملوك، وكأن آمون هو الفرعون في هذه الحياة الدنيوية. وبالإضافة إلى هذه الكنوز الثمينة، طالب الكهنة بأراض زراعية لإلههم، واستطاعوا الحصول على مزارع في الدلتا مع آلاف الفلاحين العاملين فيها، وكذلك على قطعان كبيرة في غيرها من مقاطعات الوادي. حتى عائدات التجارة المثمرة لم تنج منهم، فكانت تغذي المئات منهم وبوفرة.

لِمَ يكترث الفرعون للأمر، فلم يهدد ولِم يخرج بتاتاً من قصره ولا من عاصمته. كانت مصر تتفكك تحت أنظار حاكم مستميت في متابعة مشاداته العائلية فيما وراء الموت.

لِمَ هذا الحقد الأعمى؟ ولِمَ كل هذه المؤمرات في هذا القرن الثاني عشر قبل الميلاد؟ لا شك أن الجواب على هذه الأسئلة يقودنا حتماً إلى رمسيس الثالث؛ فهذا الأخير، هذا الفرعون العظيم، كان لديه ذرية تتناسب مع حجم الامبراطورية المصرية الهائلة الحجم! أليس هذا نصيب كل رجل ثري،بل وحاكم بالإضافة إلى ذلك؟ كانت البلاد ترى في هذا العدد الكبير من الأبناء الأصحاء هبة سماوية، رغم أن عددهم لم يكن شيئاً بالنسبة لعدد أبناء الرجل القدوة الذي يعتبر مرجعاً في ذاك العصر، أي رمسيس الثاني! لقد اجتبت الآلهة فرعون فلم يكن ليقلق بشأن الخلافة، ففروض الدهر لا تطال سوى الرجال المحرومين من الذرية. ولكن الموت المبكر، وليس المقصود به ذاك الذي يتم في عمر الأربعين أو الخمسين عاماً والذي يعتبر حدثاً عادياًيتناسب مع الإيقاع الثابت لدورة الحياة الهشة في ذاك العصر، سوف يزيد من طمع الأمراء في اعتلاء العرش! في الواقع، كان توالي الحكام على العرش

يتسارع بشكل يثير الدهشة؛ ولو أن حكم رمسيس الرابع قد طال عقدين أو ثلاثة من الزمن،ولو كان ابنه رمسيس الخامس يقود عربات الحرب في اتجاه الطرق الآسيوية، ربما كان رمسيس السادس سيقبل حينها أن يكون أحد كبار الأعيان المكرمين، وينسى في فتوحات الأراضي السودانية مكانه التافه في صفوف أولئك الذين ينتظرون دورهم في خلافة مستحيلة.

ولكن الأمور لم تسير بهذا الشكل، فرمسيس السادس كبر في ظل الحرمان من السلطة وهو الذي رأى فرعونين يخلفون رمسيبس الثالث ويحتلون العرش على التوالي. لم يعطه القدر أية إشارة تبعث فيه الأمل؛ وعند موت الفرعونين الأخيرين انتقل إليه العرش أخيراً بعد أن فقد الكثير من عظمته، حيث بدأت مساحة البلاد تضيق ولم تعد مصر تمتد نحو الشرق وتتسع كما في المرحلة التي عرفتها في ظل السلالة الثامنة عشر. بل أصبحت البلاد فريسة للشعوب الرحّالة التي تأكل أراضيها الخصبة، وكذلك للأعيان الذين عملوا على تقليصها واستأثروا بسلطات محلية لا أساس لها من الشرعية، ولا تتفق في سياستها مع سياسة الوادي الموحدة، ففتحوا بذلك ثغرات في الأقاليم المعزولة تفيد غزاة المستقبل. لا شك أن عدم اضطرار الحكام إلى الدفاع عن حدود بلادهم ضد جيوش امبراطورية معادية كان مبعث سعادة بالنسبة لهؤلاء الغزاة، فالحدود أصبحت ضعيفة جداً ولم تكن لتصمد أمام أي هجوم.

توفي هذا الحاكم الحاقد بسرعة كبيرة هو أيضاً في العام ١١٥٣ق.م؛ وقد حرمنا موته السريع هذا من إيجاد تفسير حاسم لغضبه الكبير، الذي يمكن البحث عن بعض أسبابه في نهاية حياة رمسيس الثالث، لحظة مؤامرة تيي وبنطعور/ Pentaour ، حيث ظهرت بعض النظريات المتعلقة بنسب رمسيس السادس. هل يعود كره هذا الفرعون لسلفه إلى مشاركة هذا الأخير في معاقبة بنطعور/ Pentaour ؟ ربما كان الفرع الأول من العائلة الرمسيسية مجبراً بعد موت الفرعونين اللذين ينتميان إليه بترك العرش للفرع الثاني، أي فرع رمسيس السادس. ولكن المدهش في الأمر أن الغضب لم يطال ذكرى رمسيس الثالث بل على العكس،فقد تم تعظيمها وتمجيدها كما تم تكريم إيزيس، حارسة هذه الذكرى التي لم تشهد نهاية هذا الحكم المشؤوم، إذ تذكرتها الآلهة أخيراً وصعدت روحها إلى السماء وقدم لها رمسيس السادس قبراً رائعاً في وادي الملكات كما يجدر بسليل العائلة الكريمة أن يفعل. هل كان رمسيس السادس ابن بنطعور/ Pentaour الذي اختفى اسمه من القوائم الرسمية؟ هل هو أمير نجى من ضربات الجلاد واستُدعي أخيراً لخلافة العرش؟ ربما كان

عمل بنطعور/ Pentaour السيء قد أفقده الحظوة وجعله يخضع لعقوبة طويلة، الأمر الذي أفاد ابن أخيه رمسيس الخامس. ولكن هل كانت الملكة إيزيس ستستطيع الاحتفاظ حينها بهذه السلطة الكبيرة والحظوة عند الأمير الشاب، الكاره للبلاط العدو المتهم في نظره بإعدام أبيه؟

وهناك تفسير آخر يقضي بأن رمسيس السادس هو ابن إيزيس ورمسيس الثالث الذي كان لديه ما يقارب عشرة أبناء ذكور، وقد كتم حقده لسنوات طويلة وكبر هذا الحقد مع الحرمان الذي ولّده تفضيل ابن أخيه الأكبر عليه. إذ كيف يمكن أن يخضع رمسيس السادس ابن رمسيس الثالث وإيزيس لقريبه حتى وإن كان، ولسوء حظه، ولد بعد رمسيس الرابع بزمن طويل وبالكاد يزيد ببضعة سنوات ابن أخيه المغرور الذي احتكرَ السلطة واتخذ اسم رمسيس الخامس؟ هل تواطأ مع بنطعور/ Pentaour عندما بدت له المؤامرة مغرية جداً؟ يا لها من سلالة تعيسة وغير جديرة برمسيس الثالث؛ ففي أقل من عشرين عام خسرت المملكة من القوة أكثر مما خسرت في عدة قرون. لقد أصبح فرعون ملكاً ضعيفاً وحيداً في قصره، حتى ولو استمر بعض الأعيان في الكذب عليه وتأكيد عظمته له.

كل هؤلاء الحكام المتوفين يحملون نفس اللقب في حرص منهم على التذكير بانتمائهم الفكري لرمسيس الثاني أكثر من انتمائهم الوراثي له. ويشير هذا الأمر إلى تنافس آخر فراعنة حكموا مصر في الأحلام؛ ولكن هذه الأحلام ستتبخر، فقريباً ستقع البلاد فريسة لشياطينها. في زمن رمسيس الثالث كان هناك طموح أو رؤيا تهدف إلى تمجيد طاقات حكام المستقبل،إذ كان لدى الحاكم العجوز ثقة في خلفه الشاب.. ولكن هذا الخلف لن يكون سوى ذكرى تبددت فيها الأوهام أو قناع لوجه حزين.

واعتلى رمسيس السابع العرش وتلاه رمسيسي آخر لُقّب برمسيس الثامن، وساءت الأحوال خلال فترة حكمهما القصيرة اكثر مما كانت عليه، حيث انفجرت الأزمة التي ظلت مكبوتة زمناً طويلاً وبدأ الرعايا يستولون في كل البلاد على أملاك الفرعون وأملاك جيرانهم. في كل مكان كانت تقوم عمليات سلب وهجوم على المخازن الملكية؛ وأصبح رؤساء العصابات أسياد مدن بكاملها بينما وقف هذان الفرعونان اللذين ينحدران مباشرة من نسل رمسيس الثالث عاجزين عن حل الأزمة، ولا سيما بعد خروج القوى الحية في البلاد عن سيطرتهم، حيث لم يعد النساخ وقادة الجيش يلبون نداء السلطة المركزية. وأضحى البلاط الملكي محروماً من وسائل الحركة الفعالة، فصم أذنيه عن سماع تأوهات

ملايين المساكين الذين حطمهم عجز السيد عن الهروع لمساعدتهم ومساعدة الأقاليم المنهارة. كانت العصابات تنقض على القرى النادرة التي كان رجالها يحتفظون بالنذر اليسير من المؤونة كسرب من الجراد، لا بل أسوأ. ولم تكن الشعوب البربرية المستقرة في أطراف الامبراطورية الوحيدة التي تتغذى على الوادي الجائع، ولكن المصريين لم يجعلوا من المعتدين عبرة لمن اعتبر، فهيهات أن يفعلوا. بات يحق لمومياء رمسيس الثالث أن تلعن خلفاءها من الحكام، فقد قدم الميت ما يكفي من الهدايا لحماية الأحياء بعد وفاته، وها هم أحفاده يظهرون عجزهم عن إدارة الوادي الهادئ بشكل جيد! بل إن روح الحاكم العجوز المتوفى لم تعرف بعد - ويا للأسف - المراحل الأخيرة من الانحطاط،فالقدر يخبئ للبلاد سنيناً رهيبة ستشهدها في ظل حكم الرماسيس الثلاثة الأخيرين الذين ينتمون لسلالة رمسيس الثالث.

* * *

بدأ النصف الثاني من القرن الثاني عشر قبل الميلاد. خلال هذه الفترة توالى خمسة فراعنة على عرش مصر ثم ماتوا جميعاً ودفنوا في وادي الملوك دون أن يستطيعوا إخماد ذكرى أمجاد الفرعون الكبير للحظة واحدة،بل على العكس؛ فهؤلاء الملوك الذين يعتبرون نسخاً شاحبة عن الحاكم العجوز المتوفى ساهموا في فتح الجروح التي خلفتها ذكراه. ولكن السلالة العشرين لم تنته هنا، فسوف يتوالى ثلاث حكام آخرون منها على عرش البلاد وسيحكمون لمدة زمنية أطول، حتى التاريخ القدري، عام ١٠٨٥ المشؤوم الذي ستختفي فيه العائلة الرمسيسية، وسيحملون لقب رمسيس هم أيضاً للتذكير بابن سيتنخت الذي أضحى أسطورة من الآن فصاعداً.

انقضت عدة سنوات على إدارة رمسيس التاسع للبلاد قبل بدء مرحلة الانحطاط الأخيرة التي أهينت فيها ذكرى رمسيس الثالث بفظاعة، حيث اجتاز شعب طيبة النيل واستولى على ثروات الأموات في مدينتهم المقدسة. لقد ألغت الكوارث الطبيعية المحظور الرهيب؛ فالخبز قلّ في المدينة، وأسعار الإعاشة ارتفعت إلى حد جنوني وباتت تُنتزع بالذهب، والأغنياء لا يكفون عن رفع الأجور والضرائب تاركين مهمة تحصيلها لنساخ الفرعون المنتشرين في كل مكان. لقد مهّد عمال مدينة الأموات الطريق للمحتاجين، ولكنهم كانوا أيضاً أدلاء لرجال جشعين لا هم لهم سوى تدنيس كنوز مملكتهم المقدسة.

وطفح الكيل،وتمرد الحاكم الضعيف أمام أعيان العاصمة بالذات، شأنه شأن من سبقه من الحكام. ولكن التعذيب والإعدام عجزا عن معالجة الانحطاط الأخلاقي العام،

فالمصيبة التي حلت بالبلاد كبيرة جداً ولم يكن أحد غافلاً عنها. في أعماق القبر في وادي الملوك، كانت روح رمسيس الثالث تسمع همسات السارقين الذين قدموا في الليل الهادئ للاستيلاء على الثروات؛ ثم بدأ الضجيج يتزايد مع ازدياد جرأة العصابات حتى باتت تأتي في وضح النهار. لقد دُنس رمز مصر ودُنست مدينة الأموات الكبيرة الواقعة في الجانب الأيسر من النيل، والتي ترقد فيها جثث الأعيان؛ فخلال بضعة أشهر فقط نُبشت القبور وأخرجت المومياءات ونُزعت عنها الشرائط للاستيلاء على القلائد والخواتم والصُدُر المصنوعة من المواد الثمينة؛ فكميات الذهب التي تكدست في مصر في عصر الامبراطورية الجديدة كانت هائلة إلى درجة أن العصابات كانت واثقة من أنها ستجد عشرات الليبرات منه في كل قبر تدنسه.

لقد ولى زمن الزهد الذي كان سائداً في الامبراطورية القديمة، فالامبراطوريات الآسيوية التي تم غزوها في زمن توت موزيس/ Thout Mosis في القرن السادس عشر قبل الميلاد جعلت نخبة الوادي تكتشف البذخ التفاخري في قصور الشرق الملكية في سوريا وبلاد الرافدين. كانت القبور في الامبراطورية القديمة ـ التي تشكل الاهرامات نموذجاً رائعا عنها ـ الوحيدة التي تحتفظ بالثروات الضرورية لبقاء الكا/ Ka على قيد الحياة في العالم الآخر؛ وهي ملك للعائلة المالكة وأقاربها. كان ذلك في الألف الثالث ق.م، في ذلك الزمن الحميد الذي كان الوادي فيه متقوقعاً على نفسه؛ أما زمن الامبراطورية الجديدة فهو زمن مختلف عرفت فيه البلاد نشوة الثراء، فكانت العائلات الغنية منها تملك الكثير من ذهب الشعوب التابعة وتملك الحلي والجواهر الثمينة التي قدمها لها فراعنة كرماء. واليوم، في زمن الأضرحة هذا الذي توفيت فيه الحضارة الفرعونية، عرف الرجال الفاسدون كيف يجدون هذه الآثار الأسطورية في بلاد الموتى ليشبعوا بها جوعهم، لا وليد الزهد الفاضل كما في الأزمنة القديمة، ولكن الجوع الذي ولّده انعدام الحس بالمسؤولية عند كل شخص عامل في البلاد، ابتداءً من الفرعون وحتى آخر مسكين فيها!

اكتشف حراس مدينة الأموات الجثث عند الصباح. كانت ملقاة تحت الشمس في وضعية إيمائية مهينة؛ ولولا تدخل حُماتها الذين يسهرون على رقادها لكانت دُفنت تحت الغبار وتفككت في بضعة أيام. حتى الحيونات نزلت من الجبال للبحث عن طعام لها، فالجثث تنتظر الضباع وأبناء آوى لأخذها. في بعض الأحيان كان السارقون عند هروبهم يجرون المومياءات بعيداً عن قبورها بهدف تفتيشها بشكل أفضل للبحث عن التعويذات الذهبية الصغيرة أو القلائد المغروزة عميقاً في الأجساد الجافة المدفونة منذ مئات السنين قبل رميها في سيل الجبل.

كم من القبور دُنست! بات من المستحيل إقامة الشعائر الجنائزية التي تعود لأجيال بعيدة حكم خلالها عظام الفراعنة. ما الذي سيبقى من مصر إذا دمرت الصروح المخصصة للنخبة وللتاريخ بآن واحد؟ أليست هذه الصروح دليلاً على خلودها؟ وهذه الشعائر المخصصة لبقاء الأرواح الفاضلة على قيد الحياة، ألم تكن محاولة بسيطة في تلك العصور القديمة من التاريخ لحمد استمرار الحضارة؟ كان المصري يعيش سعيداً في ظل الحماية المعنوية التي تؤمنها له هذه القبور، وكان مطمئناً لنظام الكون الذي يُسيّره الدين ويحافظ عليه الورع في عصر كان العلم فيه عاجزاً عن تفسير العالم للبشر. ولكن عندما لايحترم الرجال قوانين مجتمعهم تصبح عشائرهم كجماعات الحيوانات الأقل تنظيماً في العالم!

سوف تتيه أرواح الموتى في رمال الصحراء إلى الأبد، فقد أصبح الطريق الجميل المؤدي إلى الآلهة والخلود محرماً على الكا/ Ka ، فهي عاجزة الآن عن العودة إلى ما كانت عليه والحلول بسلام في أجساد متفسخة ومنفصلة أطرافها عن بعضها البعض.

مَثُلَتْ عائلات الضحايا المنهارة أمام خليفة الرماسيس العظام وطالبت بقرار يدين المذنبين. ولكن أي عزاء تافه هذا الذي تنشده في رؤية حرفي جائع يتعرض للتعذيب لأنه خبأ في كوخه المتداعي قلادة ذهبية أو رقيات؟ ما الذي كان يمكن أن يفعله رمسيس الثالث؟ هل كان سيأمر بالسوط والتعذيب كهذا الحاكم الذي ينتمي لسلالته؟ هل كان سيعذب أفراد عصابة مساكين ينفذون أوامر أعيان كبار يشكلون جزءاً من حاشيته؟ لم يكن هذا المستقبل الذي أراده رمسيس الثالث للبلاد،فهذا الملك المتمكن قد غذى رعاياه بالأمل خلال حياته على الأقل وجنبّهم بذلك الوقوع في الأعمال المخزية.

في زمن الفرعون الأخير كان الرعايا جميعهم، حتى الفقراء منهم، بشريين جديرين بهذا الاسم؛ وكان رمسيس الثالث يحب شعبه، وليس هناك ضرورة أو دليل لافتراض الدناءة الرهيبة والكره عند غالبية خلفائه،فهم أيضاً على الأرجح كانوا يريدون الخير لمملكتهم. لماذا إذاً تتصرف الجموع بهذا الشكل؟ هل هي أزمة دينية شبيهة بتلك التي عانت منها الامبراطورية الرومانية في الجنوب والتي دفعتها لمعارضة نظام الآلهة القديم الذي خصص له رمسيس الثالث مبالغ أسطورية وسنوات من حياته ومائة معبد وصرح؟ قد يجد التاريخ تأثيراً للديانات القديمة على تلك الأكثر حداثة، ففي روما كان هناك ولعاً بالديانات الشرقية لقدرتها على بعث الشعور بالأمن في الرجال الذين يحسون بالضيق أمام فراغ الحياة المادية، وقد أدى هذا الولع إلى انتصار المسيحية فيما بعد! وقد يكون الأمر مجرد أزمة عابرة كما في زمن الهرطقة الأتونية الذي أثار فيه أخنتون المتهور ثورة عندما أراد إعادة تنظيم العالم كما تشتهي أحلامه. ولكن لا، فالأمر ليس كذلك أيضاً، فالرماسيس أصبحوا

شديدي الخوف ولا يمكن أن يجرؤوا على التفكير بأمور مخالفة للتراث المقدس وبالوقوف في وجه كهنة أصبحوا شديدي القوة. الأمر ببساطة هو أن الناس بعد موت رمسيس الثالث بخمسين عاماً باتوا يشعرون بالجوع وهم أبناء النيل المعطاء، ولكن عدم تنظيم الانتاج بسبب الفوضى السياسية أدى إلى هذه الكوارث.

هذه الأزمة الاجتماعية لم تكن بالطبع الأولى التي تتعرض لها البلاد، وكيف للمرء أصلاً أن يتخيل أمراً كهذا في حضارة قديمة بقيت محاصيلها ضئيلة لأكثر من ألفي عام؟ فقد حصلت قبلها أزمات عديدة وكانت نتيجة الأولى منها زعزعة أول مرحلة استقرار كبيرة في الحضارة المصرية، أي الامبراطورية القديمة. ففي حوالي العام ٢٤٠٠ق.م انتشرت الفوضى في البلاط فقضت بسببها السلالة الحاكمة على نفسها، واضطربت أمور البلاد حتى أصبح الناس يهزؤون بالقوانين المقدسة. يا له من تشابه غريب يثير الدهشة؛ ولكن الوادي آنذاك كان معزولاً في غلافه الصحراوي، فنجح الأمراء في إعادة توحيده بسرعة وسلكوا طريق الحضارة من جديد،فأُعيد تكريم الآلهة ورجع الفلاحون للعمل دون خوف من عصابات النهب، وعاد النساخ يشرفون على الأعداد الهائلة من العمال والفلاحين الذين اعتادوا على العمل في الأماكن العطشى من الوادي. ثم في العام ١١٠٠ق.م قامت الأقوام الجائعة اليائسة بإثارة البلبلة، ولم يكن أحد قادراً على تهدئتها، فالنهابون الرحل يترصدون الحدود،بل أصبحوا منتشرين في داخل البلاد ذاتها، وأمراء الدولة الفرعونية لا يعترفون لها بالحق في المطالبة بحقوقها؛ وإذا استطاع أبناء الدلتا تأمين قوتهم في سنة جوع أو الحصول على صيد وفير من المستنقعات، فهنيئاً لهم وليسعدوا بذلك،فالأطفال في نوبيا يموتون جوعاً تحت الشمس الملتهبة؛ وليس هناك من نبيل واحد يملك الشجاعة أو القوة السياسية لتسليح أسطول صغير وإرسال القمح نحو الجنوب المتضرر من غزو الحشرات، فعصابات النهب قد تظهر وتستولي على كل شيء وتصبح المصيبة واحدة في الشمال والجنوب. كانت مصر الفرعونية ستقضي من شر لا مفر للحضارات منه، هذا الشر هو تقليد القديم. فالزمن يتطور والجموع التي تنحني أمام الفرعون باتت تنتمي لعصر آخر تحتاج البلاد فيه إلى ملك لا إلى سيد مؤله.

أين ذهب احتياطي المخازن الملكية الواسعة التي أعاد بناؤها منقذ مصر رمسيس الثالث؟ هل تبخرت الجرار الكبيرة المليئة بالقمح؟ وهل تبخرت أيضاً قطعان الحيوانات في الحقول الخضراء الجميلة التي تسقيها مياه النيل؟ منذ سنوات والملوك عاجزون عن ملئ مستودعاتهم بالمحاصيل التي يأتيهم بها النساخ؛ ذلك أنها وجدت مستقرها في مخازن هؤلاء الأخيرين الذين أصبحوا أعياناً أثرياء. وهكذا عندما تنقص الحبوب ـ وذلك في

الفترات التي تقل فيها الفياضانات النافعة ويحل الجفاف ـ لا يستطيع الفرعون فتح مخازنه وإطعام شعبه. لم تعرف مصر يوماً الجوع في ظل رمسيس الثالث، ولكنها بعده لم تذق طعم الرضى.

كانت السنوات التي حكم خلالها أبناء رمسيس الثالث الأوائل قصيرة جداً، الأمر الذي يستدعي التعاطف معهم واختلاق الأعذار لهم لاضطراب أحوال البلاد في عهدهم؛ ولكن ماذا عن الرماسيس الثلاثة الأخيرين؟ هؤلاء لم يكونوا جديرين بلقب فرعون، وكان حرياً بهم أن يتركوا العرش على مدخل الطريق المليء بالحصى والمؤدي إلى وادي الملوك حيث يرقد الفراعنة بسلام، ولا سيما الفرعون الأخير رمسيس الثالث. ففي عهدهم تسللت الجموع الجائعة شيئاً فشيئاً إلى الضفة اليسرى من النيل، ضفة السلطة المقدسة، حيث تتعايش المعابد والقصور والصروح والجنائزية مع بعضها البعض منذ قرون. لقد قضى فيها رمسيس الثالث ما يقارب الثلاثين عاماً، وفي قصوره تابعت السلالة العشرين حياتها. كان وادي الملوك ووادي الملكات يحرسان طريق الغروب كحصن بارز معد لإثارة الرهبة في قلوب الرجال القادرين على تحدي أسياد هذه الأرض وأسياد ذاك الزمن.

كل العاملين في مدينة الأموات من فلاحين وحرفيين وحراس كان لهم يداً في هذا التدنيس، وبالإمكان القول أن نهاية حكم رمسيس التاسع كانت مأساوية. عبثاً حاولت مصر إسكات آلامها؛ فرغم إعادة القبور إلى وضعها الطبيعي ومضاعفة عدد الحراس، كانت أماكن أخرى من البلاد تعيش في وضع رهيب يسود فيه قانون العصابات، وكأن أولئك المكلفون بإعادة النظام على الحدود ـ كما كان عليه الأمر في زمن رمسيس الثالث ـ قد تبخروا وتبخرت معهم القلاع المنتصبة في الطريق المؤدي إلى الشرق والمعدة لحراسة الحدود من تسرب الليبيين. أي ألم ذاك الذي اجتاح شبح رمسيس الثالث وهو يتأمل أنقاض أحلامه! لقد أصبحت قلاعه في زمن رمسيس التاسع مأوى لرؤساء العصابات، والمحطات التي بناها على طول الطريق الصحراوي لمراقبة الغزاة باتت مهجورة، ولم يعد أحد يهتم بتنظيم المناطق الزراعية وقنوات الري... وبدأت مصر تتقلص حول شباكها النهرية كمومياء عجوز وهنة.

ومرت الأيام، وتولى رمسيس العاشر الحكم، وحاول المحافظة على ما يشبه النظام في واد معجزأ كما لو أنه ينتمي لعصور ما قبل التاريخ، للزمن الذي كانت كل عشيرة فيه تحاول البقاء على قيد الحياة في إقليمها الصغير دون أن تهتم بجيرانها، اللهم إلا لنهبهم دون خجل.

في زمن الرمسيسي الأخير الذي لقب برمسيس الحادي عشر سيصبح معقل العظمة الأخيرة والمتراس الذي يقف في وجه البربرية محاصراً. هذا المعقل هو بلاد الأموات، هو وادي الملوك الذي جمّله رمسيس الثالث،والذي سيتداعى قريباً.تحت ضربات الجموع المحرومة من قائد روحي وسياسي.

عند تأمل هذه السنوات التي تشكل صلة وصل بين القرنين الثاني عشر والحادي عشر ق.م، تبدو لنا شبيهة بفيضان غريب أو بموجة تدميرية أسوأ بكثير من تلك التي غطت بلاد النيل القديمة، والتي كانت نتيجة فعل الطبيعة الحكيمة، فتصعد بمقدار وتتكرر كل عام. لقد ترك الرجال أكواخهم في القرى والمدن الواقعة على أطراف النهر ليهرعوا إلى المرتفعات التي خصصت منذ الأزل كمقر أبدي للأموات، يدفعهم الجوع، وأكثر من الجوع الاستخفاف بالمحظورات القديمة. لقد هربوا من الفيضان المخرب، من الكارثة التي كانوا ينتظرونها من نهرهم الكبير دون أن تحدث أبداً. في هذا اليوم الذي تعرضت فيه مومياء رمسيس الثالث للتدنيس من قبل عشرات الأيدي الجشعة، سُجّل الموت الحقيقي للفرعون الأخير؛ فقد تحطمت أعماله التي كان مقدراً لها أن تستمر بعد موته كما تحطمت المجازات المثات ممن سبقه من الحكام. لقد ماتت روح رمسيس الثالث تحت شمس الصحراء الحارقة وماتت معها روح مصر.

تعرضت القبور في ظل الحكومات السابقة إلى التدنيس لمرات عديدة،وكان من الطبيعي ظهور بعض ثرواتها المسروقة كالخواتم الذهبية الصغيرة واللآلئ والأحجار الكريمة في الأسواق، فقد كان الصعاليك الفقراء يعرضوها على من يدفع أكثر في زوايا الطرق الصغيرة في المدن المليئة بالسكان. هذا ما آل إليه مصير الجواهر الثمينة التي قام أفضل حرفيي القرون الماضية بتركيبها بصبر لتعطي كل بريقها للحضارة الأكثر استقراراً في العصور القديمة.

توصل قضاة رمسيس التاسع إلى قناعة حزينة وهي أن أصحاب الامتيازات في المجتمع لهم نصيب من تلك الغنائم المسروقة؛ ولكن ذلك لا يعني أنه تم مفاجأة كبار النساخ وهم متلبسين في محاولة كسر أغطية التوابيت الخشبية أو نزع أشرطة المومياءات. في زمن الكوارث ذاك، كان أبناء النيل يمزقون أحشاء أمهاتهم بأسنانهم ويؤمّنون قوتهم من سرقة ثروات حضارتهم المقدسة. لقد ضحوا بالماضي باسم الحاضر الخاضع لقوانين الجوع والفوضى القاسية غير أبهين بالمثال الذي يعطوه للأجيال القادمة.

لا يزال رمسيس الحادي عشر قادراً على حماية المعابد، فهي ملك الأحياء؛ وفي

الواقع كان الكهنة هم الذين يقومون بهذه المهمة بشكل أكثر فعالية، تحركهم مصلحتهم الخاصة؛ أما أرض الأموات فلا يمكن السهر عليها دون توقف، فهي تمتد على مساحات شاسعة في الصحراء، سعتها كسعة المكان الذي تحتله في الخيال المصري؛ ولن يستطيع حراس الجيش الفرعوني القلائل أن يعسكروا في مئات المواقع الجنائزية التي تتطلب الهدوء والخلوة والعزلة عن الناس. ولكن إذا استولت عصابات الجوارح الجشعة على أراضي الموت فلِمَ الحفاظ على المعابد؟ كانت حياة الناس في تلك الأزمان موجهة كلها للتحضير للحياة الآخرى، وكانت شعائر التكريم التي تقام للأموات من الأمور الجوهرية في حياة كل شخص، في انتظار الانتقال إلى العالم الآخر الذي تفوق أهميته السنوات التي يحياها الإنسان في هذه الفانية بكثير. وكانت قيمة الإنسان على هذه الأرض تقاس بشعائر التبجيل التي يقيمها لأسلافه؛ لذا، فإن تدمير القبور يعني أن يتوقع المرء حكماً نهائياً ولا رحمة فيه يصدره بحقه انوبيس/ Anubis عندما توضع روحه في ميزان الأرواح.

في عهد آخر حاكم من سلالة رمسيس الثالث كانت تقريباً كل القبور الكبيرة في وادي الملوك والملكات قد تعرضت للتدنيس، وكان قبر الملكة إيزيس التي دفنت قبل عدة عقود، في عهد رمسيس السادس، من أوائل القبور التي تعرضت للإهانة، ثم تبعتها القبور الأخرى المحفورة في منحدر الوادي المليء بالحصى في السنوات التي تلت. ولكن الأسوأ كان تدنيس المقابر الكبيرة التي يرقد فيها فراعنة السلالة الثامنة عشر، فهذه الأخيرة كانت تتمتع بحماية جيدة حرص على تأمينها لها كبار الكهنة والعمال؛ فبعد وضع الميت في التابوت يُقفل القبر بإحكام كما يُقفل الممر الطويل الذي يقود إلى الغرفة التي يرقد فيها الميت. ومن الخارج،كان هناك العديد من الزخارف التي تجعل مداخل القبور غير مرئية. ومع ذلك لم تكن هذه الملاجئ الجنائزية قادرة على الصمود في وجه جشع النهابين، فقد بدأ شعب طيبة رحلة البحث عن الذهب، فهو شرط بالنسبة للكثيرين للاستمرار في هذه الحياة... حتى وإن كانت رخيصة.

كانت روح رمسيس الثالث في خطر وهي تتأمل بذعر هؤلاء الرجال المهتاجين، فسرعان ما اكتشفوا مدخل قبره. وبدأ النهب. لقد مات رمسيس الثالث في هذا اليوم للمرة الأخيرة، وكانت روحه تصدر زفرات الألم والحسرة إلى الأبد.

في السنوات التالية اضطر الحاكم وكبار الكهنة إلى اتخاذ إجراءات فعالة، لا ضد المذنبين - وإن كثر عددهم - بل إجراءات تقيهم غضب الآلهة وتهدئه بوضع رفات الحكام الأموات في ملجأ أمين، حيث جُهّز مخبأ اكتشفه علماء الآثار بعد ألفي عام. كانت المومياءات مكدسة فيه دون ثروات تحيط بها وكأنها في مكان أعد لقتل الأرواح، إذ طالما

تطلبت الديانةالمصرية شروطاً مادية لكي تستطيع الكا/ Ka أن تحيا حياة أزلية! في بدايةالقرن الحادي عشر قبل الميلاد كانت نظرية نشأة الكون هذه قد أضحت بعيدة عن روح ذلك المجتمع الذي كان يتفكك مع موت المومياءات. أي مصير مرعب هذا الذي يحياه رمسيس الثالث وغيره من كبار الحكام؟ لقد تطايرت ألف سنة من التاريخ كما تتطاير غبار الصحراء، وتبخرت في نفس الوقت الذي تضررت فيه الكثير من أجساد الموتى، التي نُزعت عنها الأشرطة وتركت دون أية حماية من مصائب الدهر.

الفصل الخامش عشر

أسطورة الفرعون

في بداية القرن الحادي عشر قبل الميلاد كانت أعمال رمسيس الثالث قد تحولت إلى رماد؛ فخلفاؤه الثمانية أظهروا عجزهم عن الحفاظ على مملكة الفرعون الأخير الكبيرة، وتدنيس المومياءات الملكية - ومن بينها مومياء رمسيس الثالث - شكل نقطة التحول الأخيرة بالنسبة للسلالة العشرين. لم يبق أمام مصر المتألمة سوى الأمل برؤية سلالة جديدة تنبثق من الصراعات الأخوية التي استسلم لها كبار الأعيان؛ فهي وحدها تستطيع إمساك شعلة العظمة المصرية من جديد والحفاظ على سلامة البلاد.

كانت صلوات رمسيس الثالث الأخيرة تنذر بحلول الشر في البلاد، فمملكته بحاجة فعلاً إلى حماية الآلهة، وفرص مصر الضئيلة في النجاة تتطلب فترة حكم طويلة لا تشوبها أمراض أو مؤمرات! لقد شعر الرجل العجوز وهو على عتبة الموت بالضيق حتى قبل أن تأتي مؤامرة تيي وبنطعور/ Pentaour لتجسد مخاوفه،وكان ضيقه هذا بمستوى اتساع جروح بلاده.

وتكشف لنا تصريحات رمسيس الثالث الرسمية عن مخاوف هذا الحاكم العظيم من ثلاثة عناصر تحول دون نجاة مصر، هذه العناصر كانت تشكل هاجساً بالنسبة إليه يطارده حتى في أحلامه، وقد اتضح أن على مصر أن تخشاها في هذا العام، عام ١٠٨٥ ق.م، مثلما كان يخشاها الحاكم العظيم؛ وأولى هذه النقاط هي شهية كهنة آمون للثروات المادية التي ازدادت في زمن رمسيس التاسع أكثر مما كانت عليه في زمن رمسيس الثالث؛ وهناك أيضاًعصابات المرتزقة التي استقرت بسهولة على أرض الوادي، والتي تتبختر الآن مرفوعة الرأس ولا تعترف بسيد لها؛ وأخيراً هناك الشعوب الأجنبية التي استطاع رمسيس

الثالث بحماسه الحربي أن يسيطر عليها ويكبح جماحها. ولكنها لن تبقى أقواماً تافهة دون مرجعية إلى الأبد، فقد ولدت امبراطوريات جديدة في الشرق الكبير الخصب سرعان ما ستحشد جيوشها على حدود وادي النيل وتستعد لمحي مملكة النيل من على خارطة الحضارات.

بعد تدنيس المقابر بات الناس يشكون في خلود أرواح كبار الفراعنة؛ وإذا كانت روح رمسيس الثالث التائهة لا تزال تتمتع بالقليل من الحيوية لتشهد مصير أرضها المحتم،فسترى نبوءة الحاكم الذي خانه أقاربه وشعبه تتحقق؛ فبلاده لن تعيش بعد موته هو. من المؤكد أنه على الصعيد الزمني لن يُقاس احتضار الوادي بحياة رجل،ولكن التاريخ لا يحتاج إلى ألف عام لكي يبعثر التراث الذي تركه رمسيس الثالث، صاحب البناء الإنساني والسياسي الرائع، في جميع الجهات.

وكما توقع رمسيس الثالث جاءت الضربة الأولى التي تعرضت لها مصر من كبار كهنة آمون، وكان ذلك أثناء حكم رمسيس الحادي عشر، بعد قرون من موت رمسيس الثالث. ولم تكن بضعة العقود هذه التي ساءت فيها أحوال البلاد واستخف الناس فيها بالمحظورات لتؤثر على قوة كهنة آمون، رغم الإهانات التي تعرضوا لها في عهد أخنتون قبل ثلاثة قرون،ورغم عبادة سيت التي سادت في زمن رمسيس الثاني، وأيضاً، وفي عهد أقرب، الريبة التي استولت على رمسيس الثالث في سنوات حكمه الأخيرة؛ فهذه الأمور كلها لا تزال حاضرة جداً في أذهان أتباع الإله حامي الامبراطورية.

اليوم تبدو مدينة حابو/ Medinet - Habou فارغة إذا ما قيست بعرين الإله، معبد الكرنك الكبير، الذي يمكن أن يُقال عنه أنه مدينة دينية حقيقية. كان كبير كهنة آمون ورسوله الأول الشخص الأكثر قوة في هذا البلاط بكل تأكيد، وذلك منذ مئات السنين. ولم يعد هناك داع لإحصاء عدد الصروح التي نصبت لنواب الآلهة هؤلاء حول العاصمة طيبة، وليس فقط قرب معبد الكرنك. اشتهر كبار كهنة آمون فيما مضى بمؤامراتهم ضد الفراعنة، ولكنهم في ظل السلالة الثامنة عشر كان لديهم حجة وهي الهرطقة في عهد أخنتون؛ وكان حجتهم أحياناً هي الدفاع عن قضية إله ما ضد جنون البشر. هذا الدفاع يجب أن يكون مشتركاً،لأن طموح رجل منعزل كرسول الإله الأول لم يكن ليجدي وحده، حتى لو خيل له جنون العظمة أنه يتمتع بصفات لا يتحلى بها إلا إلهه الذي لا يعبده حقاً إلا قليلاً.

حاول رمسيس الثالث الحد بجدية من قوة رجال دين آمون الهائلة وذلك بتلبية متطلباتهم من الذهب والمواشي على قدر المستطاع ودون محاولة إزعاجهم. لقد أوقعته قوى طيبة الخفية هذه في شباكها التي حاكتها حوله خلال سنوات حكمه الأولى. كان يحب بصدق إله الامبراطورية الكبير، يحبه باسم شرعيته كفرعون طيبة الجديد، الذي انتُزع من ارستقراطية الدلتا الوصولية ليصبح حاكماً مؤلهاً. هذه الولادة الثانية كان لها معنى عميقاً بالنسبة إليه يتجاوز رمزيتها السياسية، فقد تبنى رمسيس الثالث الايديولوجية الامبراطورية،فهو ابن آمون ودمه ممزوجاً بدمه، وهذه الصدفة التي أوصلته للحكم والتي كانت نتيجة مزاجية القدر لا يمكن تفسيرها إلا بأنها من اختيار الآلهة.

لم يتنكر رمسيس الثالث لالعشيرته ولاليستنخت الذي كان مختاراً هو الآخر من قبل الآلهة، ولكن رجال ذلك الزمن كانوا يرتكزون في مفاهيمهم للوراثة وللمورثات على الحلم الذي يمزج الواقع بالقوى غير المرئية بنفس الدرجة التي يستندون فيها على معارفهم الفقيرة، البعيدة كثيراً عن اليقينيات المادية المعتمدة على الدراسة العلمية! في تلك المجتمعات القديمة كانت الأسطورة بمثابة القانون، ولها نفس قوته.

كان أسلاف رمسيس الثالث يحلمون ببناء قوة عظمى ترتقي بهم إلى مقام لا يستطيع باقي الأحياء بلوغه، فعقدوا حلفاً مع رجال آمون لتحقيق هذا الحلم؛ ولكن تبين أن نتائج هذا الحلف جهنمية، فقد كان الكهنة يقرون بألوهية الحاكم وشرعيته مقابل دلائل شكر وعرفان يقدمها هذا الأخير لآمون. هذه الاتفاقية بين الفراعنة ورجال آمون كانت تعتمد على نظرية نشأة الكون التي تقضي بانتماء الحاكم إلى أب إلهي، وكانت بمثابة تتويج للعلاقة بينهما؛ ولكن رجال الدين سرعان ما صادروا جزءاً مهماً من السلطة التي ساعدوا في تثبيتها بعملية التأليه هذه،وذلك بتدخلهم في شؤون المملكة وممارستهم لكامل السلطات السياسية في مجالهم الديني والأراضي التابعة له. وعندما نعلم عدد الأراضي التي منحت لهؤلاء الكهنة، نجد أن السيد الوحيد المقدس بالنسبة للمصريين في زمن الرماسيس الأخيرين هو آمون.

ترسخت هذه الرؤيا الكونية منذ عهد السلالة الثامنة عشر، وكان على رمسيس الثالث وخلفائه أن يقروا بها؛ وطالما أن كبار الكهنة يجنون الكثير من وراء تأليه سيد الوادي الذي يستند على قاعدة هشة فإن تزاوج المصالح بن هذين الطرفين سيسير دون صعوبات تذكر؛ فالنزاعات تتم في الخفاء، والكهنة يرهقون أنفسهم بتقديم آيات التبجيل والاحترام لحامل التاج المزدوج. بعد موت رمسيس الثالث ـ الذي لا نستطيع أن نلقي اللوم فيه على أتباع آمون البريئين من مؤامرة بنطعور/ Pentaour ـ لم تتناقص ثروات كبار الكهنة،ولكن

تقلص الاحتياطي المالي وكذلك المناطق التي يتحكم فيها الفرعون مباشرة. في هذا الإطار،لم يعد كبار كهنة آمون ينتظرون الكثير من حلفهم الذي عقدوه مع سيد الوادي،فلا بد أن تتفجر الأزمة.

وتفجرت الأزمة. كان ذلك في عهد رمسيس الحادي عشر الذي حكم البلاد كيفما كان قرابة العشرين عاماً. كان وادي النيل حينها يعاني من المجاعة بعد أن أضحى فريسة لمختلف أنواع النهابين، حتى أن كهنة آمون قد اضطروا إلى الحلول محل سيد البلاد في شؤون حراسة المومياءات المدنسة لعجز هذا الأخير عن ضمان سلامتها وحمايتها ونقلها دون أخطار. في ظل هذا الحكم الملعون ظهر رجل إلى جانب رمسيس الحادي عشر يدعى حريحور/ Herihor . هذا الرجل العسكري ذو المنشأ المصري العريق أضحى بفضل رمسيس الحادي عشر كبير كهنة آمون... ولكنه كان قليل الكفاءة؛ فهو بالنسبة للكهنوتية كعصر رمسيس الحادي عشر بالنسبة لعصور كبار الحكام، نسخة فاشلة وتافهة جداً.

في زمن كبار الحكام لم يكن كبير الكهنة قادراً على الوصول إلى هذه المرتبة إلا بعد الارتقاء البطيء لسلم المناصب في الوسط الكهنوتي الشديد الانغلاق على ذاته. ويختلف رجال الدين في زمن الفراعنة عن أساقفة المسيحية اختلافاً شديداً، فتعريف الكاهن في مصر القديمة ينطوي على مفاهيم عدة أكثر شمولية، لاختلاط هذا العَالِمْ الكبير بعالم الأحياء؛ فهو يعيش بين ذويه وينجب ذرية كبيرة ويتمسك بالمنافع المادية ويتمتع بكل امتيازاته كرجل بلاط مكرم. لم يكن خادم آمون رجلاً متقشفاً، بل لم يكن فيه شيء من التقشف على الإطلاق؛ فالتقشف مفهوم بعيد جداً عن الحياة المصرية ولا يتناسب والدور الاجتماعي الذي يلعبه الكاهن ـ العراف، والذي ورثه عن أجداده منذ العصور المغرقة في القدم، عصور ما قبل التاريخ...

كان كبير الكهنة يملك وعياً حياتياً كبيراً ومعارف دينية وباطنية عميقة حصل عليها بعد سنوات الدراسة الطويلة في دور الحياة ومعابد آمون؛ وربما كانت حياته المزدوجة ككاهن متبحر في العلوم الدينية وسياسي متمرس في شتى أنواع المؤمرات السبب الرئيسي لعدم اختيار كبير الكهنة من بين رجال الدين. لقد خلّف هؤلاء الأخيرون الكثير من الآثار المهمة لمعرفة ذلك الزمن،كالايقونات في القبور والنقوشات على جدران المعابد، وكذلك البرديات التي تعتبر من أهم مصادر هذه المعرفة.

لم يكن حريحور/ Herihor يملك أياً من هذه المؤهلات،ولكن ضعف رمسيس الحادي عشر كان يشكل بالنسبة إليه الورقة الرابحة الأولى، فالفرعون لم يعد يعرف كيف

يتخلص من رجال الدين الذين أصبحوا مربكين إلى درجة تجاهل وجود الحاكم؛ وكان لا بد لهذا الأخير أن يحافظ على سلطته الظاهرية وأن يبدو على الأقل سيد المنطقة التي تحيط بمكان إقامته،أي جنوب مصر، بعد أن كفت الأقاليم البعيدة منذ زمن بعيد عن تقديم الطاعة والولاء.

كانت مزية حريحور/ Herihor بالنسبة لرمسيس الحادي عشر هي عدم انتمائه إلى إحدى السلالات الكهنوتية،القادرة على إضفاء الشرعية إلى مناصبها الدينية وجعلها تدوم أكثر من قرن كما لو كانت سلالة ملكية، الأمر الذي يخيف الفراعنة القليلي الثقة بأنفسهم. كان الرماسيس الأخيرين يخشون حتى من أن يبدأ رجال الدين هؤلاء بالمطالبة بحق حماية المومياءات المهددة،ولوحدهم فقط؛ عندها ستتحول جثة رمسيس الثالث إلى أداة تكفل لهم مطالبهم.

قاد الضعف رمسيس الحادي عشر إلى تعيين حريحور/ Herihor في منصب كبير كهنة آمون؛ ولم يكن هذا الشرف الإضافي بالنسبة إلى هذا الرجل الذي أضحى الروح الملعونة للرمسيسي الأخير، لم يكن الخطوة الأخيرة نحو الصعود السريع إلى القمة. كان حريحور/ Herihor قائد الجيش الملكي، وهو منصب حساس وقوي في تلك الأزمنة المضطربة، ثم أصبح الأمين على ممتلكات الإله الضخمة في كل البلاد،فما الذي ينقصه بعد لكي يصل بقوته وسلطاته إلى حد الكمال؟ كان يثق بقادة الجيش المنتشرين في الشمال والجنوب، وخزائنه الآن تفيض بذهب آمون، فلن يعاني مؤيديه من نقص الغذاء أو الدعم في حال قيام حملات عسكرية في الجهات الأربع من البلاد. ألا يتمتع بامتيازات الفرعون القادر على تحريك الرجال في كل مكان بأمر بسيط منه؟ ولم يعد لدى الإدارة الفرعونية أي سر تخفيه عنه باعتباره يحتل أيضاً منصب وزير الجنوب؛ فهو إذاً قادر على شلها بلحظة واحدة، بمشاركة بعض النساخ الذين اشتراهم بثمن باهظ.

في العام ١٠٨٥ق.م لم يعد لطيبة سيد واحد بل سيدين. لقد بلغ الانحراف الذي بدأ منذ زمن رمسيس الثالث أوجه الآن، فالأعيان الذين عُينوا في مناصبهم لإصلاح البلاد قاموا بمصادرة السلطة الملكية في شخص حريحور/ Herihor ، ولم يعد هناك سوى خطوة واحدة نحو الانحطاط المحتم وهي إزاحة رمسيس الحادي عشر عن العرش، الأمر الذي تم دون أدنى صعوبة. وهكذا أضاع سليل رمسيس الثالث الأخير التراث الجميل الذي كابد سيتنخت وابنه لصيانته.

لقد أصبح كبير كهنة آمون فرعوناً... وأضاعت مصر سيدها!

كيف يمكن للرجل الذي آل إلى الآلهة أن يتصور أن الناس ستتحمل وصايته الدنيوية عليهم؟ هذا التمازج الوظيفي لم يكن وارداً أبداً على ضفاف النيل. كان المصريون أناساً مؤمنين ولكن عمليين أيضاً، فهم يعهدون بالشؤون الإنسانية إلى أميرهم دون أن يشركوا فيها رغبات إله من بين عشرات الآلهة الأخرى. من المؤكد أن آمون قد أضحى الإله الرئيسي في البلاد، أو لنقل محرك القوى الكونية بعد أن أزاح رع/ Re ، جوهر الحياة الشمسية. قد يشعر الإنسان المعاصر بالكثير من الحيرة إزاء خليط آلهة مجمع الأرباب المصري، ويصعب عليه بالتالي أن يتذكر أن هذا التنوع في أشكال الألوهية يرتبط بالمبدأ المفسر للحياة في أشكالها المتعددة، بمعنى أن كل إله هو جوهر حياة العنصر الذي يمثله، كما هو معروف في الديانات القديمة. هذه المعتقدات المتنوعة خلقت عبادات مختلفة وأصبح كل إقليم واقعاً تحت وصاية إله ما؛ ولكن، ورغم أطماع رجال الدين المخجلة،لم يكن التمازج بين السلطة السياسية والوظيفة الدينية مقبولاً أبداً، حتى وإن كان رجل الدين المعني هو كبير كهنة آمون.

لم يكن الجمع بين المهمتين أمراً يسيراً بالنسبة لحريحور/ Herihor ، فهو عاجز عن اختراع طريقة جديدة في الحكم قد تبررها ضرورات ذلك الزمن الصعب، ولن يستطيع تجاوز عمل رمسيس الثالث. لم يكن حريحور/ Herihor رجلاًعظيماً ومؤسس سلالة ملكية كرمسيس الثالث، وهو سيلقي بكهنة آمون إلى التهلكة كما فعل مع ضحيته الملكية رمسيس الحادي عشر. وإذا كان النساخ وكبارالأعيان، بل وحتى القرويون في نهاية عهد السلالة العشرين يرفضون تقديم ما يتوجب عليهم من الحبوب والمنتجات الحرفية إلى كنوز الفرعون،فليس من الصعب التكهن بأنهم لن يكونوا أكثر لطفاً مع مغتصب العرش، كاهن آمون الذي اشتهر إضافة إلى ذلك بشدة ثرائه.

هنا أيضاً تتراءى لنا بصيرة رمسيس الثالث؛ ألم يشعر هو ابن الدلتا بأن هناك حدوداً خطيرة وغير مرئية حول مدينة ممفيس ستفصل الدلتا عن جنوب مصر في القرون القادمة؟ كان عمله في العقود الأخيرة من حكمه قد انصب كله على الرفع من شأن الدلتا بزيادة التجمعات السكانية فيها وتعيين نساخ مدركين للفروقات التي بينها وبين الجنوب، ولولا ثورة اتريبيس/ Athribis لما وضع حداً مفاجئاً لإعادة التوازن بين قطبي البلاد. لقد عرف الملك العجوز كيف يصل إلى الحكمة بنسيان وهم طيبة والآمال الطائشة في نذرها للملكية، فتنازل عن حلمه بمساواة كبار فراعنة طيبة الذين حكموها في الماضي وعاد إلى الدلتا، مسقط رأسه، التي أضحت المحور الاقتصادي الجديد في البلاد في القرن الثاني عشر

ق.م. لم تجد حكمة الرجل صدى لها بين أتباعه، رغم أن ثورة الدلتا التي قامت نتيجة شعور أهلها بالظلم لشدة ما أرهقوا بالعمل في الفترات الأخيرة قد أظهرت صواب رأيه. وفي توجه سياسي جديد فرض رمسيس الثالث الأتاوة على الشمال بعد أن اطمئن على مستقبله ومستقبل الجنوب؛ ولكن هذا الشمال الواثق من ركود الجنوب والمطمئن لانعزاله عن البحر الأبيض المتوسط سيرفض في القرن الحادي عشر ق.م القسم بالولاء لحريحور/ Herihor ، الذي كان يفتقر كسابقيه من الحكام إلى بصيرة رمسيس الثالث، فتعرض بدوره لمشكلة تمرد الدلتا ضد النساخ الذين أرسلهم إليها. كان رمسيس الثالث من الذكاء بحيث تجنب الصعوبات، أما حريحور/ Herihor فقد كان عليه تجاوزها.

في البداية لجأ حريحور/ Herihor إلى وزير الشمال، ولكن هذا الأخير الذي ساءه وصول نظيره إلى العرش الملكي رفض أن يساعده؛ فتواجه الجيشان دون أن يستطيع أحدهما أن يدمر الآخر بشكل فعلي لتساوي هذين الطرفين في القوة. كان بقاء كل منهما مستقلاً عن الآخر مستحيلاً، ووحدتهما هي وحدها الكفيلة بفتح مرحلة ازدهار جديدة في البلاد، فحتى الدرس الذي تلقاه رمسيس الثالث من أجداده والذي جعله يُقدم على تحسين الأوضاع في الدلتا هو درس في الوحدة.

تذابح أبناء الشمال والجنوب لسنوات عدة دون رحمة، وكان رجال الدين المتعصبون، كهنة آمون في الجنوب وسيت في الشمال، هم من دفعهم إلى هذا الانتقام؛ فـ سيت إله الرماسيس الأوئل في الدلتا، والحنين إليه والقتال لأجله يعتبر أمراً شرعياً كالشرعية الملكية. في نهاية الأمر، تقاسم حريحور/ Herihor ووزير الشمال مملكة رمسيس الحادي عشر وحصل كل منهما على لقب فرعون، فعم السلام، أو لنقل أقيمت هدنة وظلت الحرب خفية. ولكن لا أحد من الوزيرين بات يستحق لقب فرعون،فتعريف هذا الأخير يتضمن العرش المزدوج، والفرعون هو سيد العرش المزدوج، عرش الشمال والجنوب.

وبلغ الانحطاط الفرعوني أوجه مع سلالة حريحور/ Herihor التي حاولت عبثاً التحالف مع عائلة وزير الشمال عن طريق الزواج بهدف الاستقرار في الحكم.ولكن الشياطين الذين ساهموا في تدمير أعمال رمسيس الثالث كانوا دائماً بالمرصاد؛ فلا أحد من هذه السلالة الحادية والعشرين التافهة كان قادراً على الحفاظ على وحدة الوادي المحطم؛ فكاهن آمون الذي هو ابن هذه العائلة الملكية الجديدة كان هنا ليزرع الشقاق وليثبت أن السلطة السياسية لا تتفوق على السلطة الدينية. وغرقت البلاد في حرب أهلية لا نهاية لها.

وهكذا،في نهاية القرن الحادي عشر ق.م، بإمكاننا التحدث عن موت مصر كبناء

سياسي وتاريخي. لم تعد طيبة عاصمة الفراعنة، ولم يعد قصر ملايين السنين الذي بناه رمسيس الثالث محور الحياة السياسية في مصر، وهو أصلاً لم يكن كذلك إلا لمدة قرن واحد يعتبر الأخير في عهد الفراعنة الذي بدأ قبل ألفي عام. لقد أصبحت تانيس/ Tanis ، مقر ملوك الشمال الذين أضحوا شيئاً فشيئاً أسياد اللعبة، هي المحور السياسي الجديد في البلاد.

لم يعد لملوك الشمال الذي اعتمدوا تانيس/ Tanis الجميلة عاصمة لهم أدنى سيطرة على العاصمة القديمة طيبة وعلى مصيرها الذي تركوه بين أيدي كبار الكهنة؛ فالمملكة قد انقسمت إلى درجة أن هؤلاء الكهنة أنفسهم باتوا يخشون الذهاب إلى نوبيا أو الصحراء المجاورة خوفاً من تعريض حياتهم للخطر. وهكذا أصبحت التجزئة التي طالما خشيها رمسيس الثالث حتمية لا مفر منها.

في ظل هذه الزوبعة السياسية، وبعد تحطم أعمال وانجازات رمسيس الثالث، أصبح بإمكان العدو الثاني لهذا الملك الحكيم أن يظهر بعد أن ظل مختبئاً لفترة طويلة. هذا العدو هو الشيطان البربري الذي يقتات على حطام مصر ويقطن على أبوابها مترقباً الفرصة السانحة للانقضاض عليها. وجاءت الفرصة. في البداية لم يصدق البرابرة أن هناك صراعاً دائراً بين المصريين، ولكنهم سرعان ما ابتهجوا للأمر؛ فالأعداد الهائلة للجموع في وادي النيل كانت تمنعهم من إحراز النصر بسهولة؛ ولكن الآن، وبعد أن عاد الوادي إلى مرحلة بدائية في التنظيم السياسي، سوف يتسنى لهم التحكم بمصيره.

* * *

كان رمسيس الثالث حفيد امرأة سورية، ولا بد أن بعض الأعيان الدنيئين قد عيّروه بهذا الأمر قبل أن يصبح حاكماً مقدساً ذي انتماء إلهي؛ ولكن في القرن الثاني عشر ق.م كان دم أبناء النيل قد امتزج بدماء غريبة ولم يعد من أكثر الدماء نقاءً، فحتى الفراعنة كانوا قد تعرضوا للتهجين منذ قرنين أو ثلاث،ناهيك عن اختلاط دمهم بدم الساميين منذ بداية التواجد البشري في الوادي. هل يجب أن يكون هذا الأمر مصدر استياء إلى هذه الدرجة طالما أن الشعوب البدائية التي سكنت الوادي كانت هي أيضاً نتيجة خليط عرقي؟ فهي تنتمي للعرق الأبيض الذي قَدِمَ من وراء صحراء أفريقيا الشمالية أو للشعوب الزنجية التي تشاركها السهوب الجنوبية في هذه القارة الأفريقية التي تاه فيها الرحل منذ القدم، والتي كانت مكاناً مناسباً لكل الأمزجة الثقافية والعرقية. ولكن بعد ثلاثة أو أربعة آلاف عام من الاستقرار الحضري والحضاري أصبحت هذه الحقيقة الجلية منسية.

وضاعت قصة هذا الخليط العرقي في غياهب ليل الأزمان الغابرة والمغرقة في القدم، تلك الأزمان التي لم يكن الرجال فيها يملكون الوسيلة لنقل أفكارهم للأجيال المقبلة، فلم يحتفظ المصريون بذكراها. ومع ذلك، فإن الأساطير التي يغدق بها خيال هذا الشعب والتجديدات التي كانت تطرأ على معبد الأرباب تظهر لنا الميل المصري الدائم لتبجيل القوى القادمة من عالم غريب، وبالأخص من عالم أفريقيا العميق والمجهول الذي يُرجِعُ إليه أبناء النيل الكثير من أصول حضارتهم. فتبجيل إله النيل هابي/ Hapy الذي جاء من الجنوب، وعبادة الإله مين الافريقي وتحفه وشعائره الاستوائية، دليل على الأصول الهجينة لهذا الشعب الذي استقر في وادي النيل، والذي يشعر رغم ذلك بالضيق لعدم انتمائه إليه.

لا بد أن علماء دور الحياة كانوا يتساءلون في أعماقهم عن جذور الجموع البشرية الكبيرة التي حطت رحالها منذ القدم في أرض مصر،ولا بد أن الشك ساورهم في إمكانية انتماء هذا العدد الهائل من الرجال إلى أرض النيل؛ فهل يعقل أن يخرجوا جميعاً من الشريط الأخضر الضيق المحيط بالنهر، مصدر الحياة الوحيد في الصحراء الرهيبة؟ من المؤكد إذاً أن بعض الأقوام قد قَدِمَتْ من مكان آخر بقيادة آلهتها، إذ ليس من الممكن التصور أن الحمراء الرهيبة ـ أي الصحراء ـ كانت مغطاة بالنباتات قبل بضعة آلاف من السنين.

عندما انحسرت الثلوج عن القارة الأوروبية تبعثر صيادو لاسكو في منطقة الدوردون الفرنسية وتركوا الكهوف والرسم على صخورها وصعدوا إلى الشمال ليبدؤوا حياة جديدة تعتمد الترحال والسكن تحت الخيام طوال العام. في هذه الفترة الزمنية أيضاًتحولت مراعي الصحراء الكبيرة إلى سهوب؛ ومع تناقص الأمطار وارتفاع حرارة الأرض تحولت السهوب بدورها إلى صحراء.

يتضح من ذلك أن الأساطير أحياناً تكشف قصصاً حقيقية ولكن مدفونة في لا شعور الشعوب. كان رمسيس الثالث يجهل هذا العالم القديم، فهولم يكن لديه برديات بهذا القدم، ولم يكن يملك كذلك أية أدلة ملموسة تدعم شعوره الغريزي بضرورة الانفتاح على الشعوب الأخرى وتجنب انعزال الفراعنة القدماء؛ ولكنه وكأمثاله من الحكام الحديثين الذين سبقوه، ولا سيما رماسيس الدلتا، أدرك هذا الملك أن تطور التاريخ حتمي وأن مصر ستتوقف عن الازدهار إذا ما استمرت في انعزالها لفترة طويلة. وقبله استنتج كبار فراعنة السلالة الثامنة عشر ضرورة القيام بفتوحات بمستوى قوتهم.كان رمسيس الثالث يعرف أن الشعوب الجائعة ستقتحم أبوابه إذا ما أصر على سد طريق الوادي في وجهها، لذا انصاع

كغيره من الحكام إلى الضرورة التاريخية التي تقضي بالعودة إلى التجمعات السكانية والتهجين البشري القديم قدم التاريخ.

في عصر الامبراطوريات القديمة والوسطى،عاشت الحضارة المصرية وهي في أوجها انعزالاً رائعاً لم تسمح خلاله للشعوب الأخرى بدخول الواحة الأسطورية، هبة النيل التي وصفها هيرودوت فيما بعد وصفاً جميلاً. ولكن هل يجب أن نرى في هذه المرحلة التي استمرت ما يقارب الألفي عام استثناءً أو شذوذاً تاريخياً أكثر منها ميلاً جوهرياً للعزلة، حتى ولو أمكن تفسير تميز الحضارة المصرية بطول عمرها ومسالمتها وعدم تطور قوانينها المقدسة الأخلاقية والدينية والفنية، المرتبطة بانعزال هذه الواحة وبعدها عن كل تيار مهاجر؟

في الامبراطورية الجديدة انفتح الوادي على الامبراطوريات الكبرى وأُلزمت شعوب بدفع الأتاوة إلى سيد الوادي. في البداية تم قبول هذه الشعوب كعبيد، ويشهد الكتاب المقدس على ذلك في ذكر النبي موسى وهروب العبريين خارج مصر في القرن الثالث عشر قبل الميلاد؛ ثم رُقي بعض الغرباء إلى درجة مستشارين،فبدؤوا يكتسبون أهمية، وانتهوا بغزو البلاد كالهكسوس الساميين الذين أصبحوا أسياداً على مصر لمدة قرن.

في زمن رمسيس الثالث كانت جميع أشكال التواجد الأجنبي قد اختلطت ببعضها البعض، سواء أدرك الفرعون ذلك أم لا؛ فالشعوب المستعبدة شكلت قاعدة لها في المحافظات البعيدة ولم تعد لهجاتها المحلية الشرقية وبشرتها الأكثر بياضاً من بشرة أبناء النيل العنبرية نادرة بين الجموع في الأسواق. بل كان هناك مناطق أضحى فيها أبناء هذا العرق أغلبية ساحقة؛ ذلك طبعاً دون ذكر بلاد كيش أو نوبيا التي كان السكان السود فيها يشكلون شعباً حقيقياً واعياً لتاريخه ولأصول حضارته،ومستعد دوماً لإحباط هيمنة جيرانه في الشمال، هؤلاء الجيران الشديدي الفخر بمصرهم الموحدة.

وهناك طبعاً الغرباء المحيطين بالملك، كالمستشارين والسفراء الذين أصبحوا أعياناً في البلاط وعناصر أساسية في الحكومة الملكية. وعندما شكل رمسيس الثالث المحكمة الاستثنائية المكلفة بمعاقبة تيي وبنعطور/ Pentaour ، استدعى رجالاً موثوقين بعضهم من أصل سوري أو من شعوب البحر الأبيض المتوسط؛ وهو دليل إذا لزم الأمر على تدويل الامبراطورية المصرية.

ولكن التغيرات الأكثر أهمية تمت في عهد رمسيس الثالث؛ فعند تأمل هذا الحكم بعد زواله بقرن أو قرنين من الزمن نجد أن وصول شعوب البحر إلى مصر يكتسب أهمية

بارزة تفوق تلك التي كانت في نظر معاصريه؛فسياسة الفرعون في ذلك الحين سمحت بتجنب الغزو الأجنبي للبلاد؛ ولكن الحاكم،ولأسباب سياسية،تنازل عن بعض الأراضي للشعوب الأجنبية التي سكنت أطراف بلاده. وهي خطة ذكية؛ فإشراك الطامعين في الأرض في حمايتها هي أفضل حراسة لها؛ وهذا ما سيفعله أيضاً بعد آلاف السنين، وفي مكان آخر،الملوك الكارولانيون ـ أبناء شارلمان ـ مع الفايكنغ، مؤسسي منطقة النورماندي الفرنسية.

ولكن سياسة رمسيس الثالث الذكية تفترض وجود حكم قوي؛ ففي غياب هذا الحكم تتحول خطط الحاكم الذكية إلى لعنة؛ ولا بد أن آخر فراعنة هذه السلالة، منذ عهد رمسيس السادس، قد لعنوا سلفهم البعيد النظر لسماحه لشعوب البحر في الاستقرار في الدلتا، فهي منذ أن استقرت فيها بشكل جيد لم تكف عن القيام بالثورات ومصادرة ودائع المخازن الملكية القليلة والاستيلاء على الحبوب التي كان الفلاحون يسلموها لممثلي السلطة.

على مر السنين، تولى الهنود الأوربيون الذين انتشروا في الدلتا أمور أراضيها التي كانت مهجورة فيما مضى، وعقدوا علاقات مثمرة مع حلفاء الأمس، الرحّل الليبين. كان لهؤلاء ثأر عند الفراعنة، فرمسيس الثالث كغيره من عشرات الحكام الذين سبقوه كانوا دائماً يصدون هجماتهم. ولكن قمع عصابات النهب هذه كان أمراً يزداد صعوبة مع الأيام، ذلك أن الهنود ـ الأوروبيين ساهموا كثيراً في تقوية هذه الشعوب البدائية التي سكنت الأطراف الغربية من الامبراطورية المصرية.

في القرن الحادي عشر قبل الميلاد أصبح من الصعب تمييز ما هو بربري عند هذا الشعب مما هو أجنبي جاءت به شعوب البحر عند قيام الغزوات الكبرى في الشمال. ومهما يكن الأمر فقد فرض الليبيون وجودهم على الحدود شيئاً فشيئاً، حتى أن القتال أضحى عديم الفائدة في عهد الرماسيس الأخيرين لكثرة ما عانوا من صعوبات في التحكم بآلاف الكيلومترات من الكثبان القاحلة التي تطل على الوادي في الغرب. لم يعد أمام الأقوام الرحل سوى الاستقرار قرب الأراضي المزروعة. في البداية،أثار تواجدهم هذا استياء المصريين وتحفظهم تجاههم،ولا سيما أنهم كانوا يخشونهم ويحتقرونهم في آن؛ ولكن فيما بعد،وخلال عدة عقود، امتلأت الجهة الغربية من البلاد بمعسكرات الرّحل الذين استقروا فيها بفضل المبادلات التجارية التي كانوا يقومون بها مع الفلاحين،ثم اندمجوا بالحياة المحلية على مر الأجيال. لقد استشف رمسيس الثالث خطر هذه الشعوب الجائعة في الماضي، ولكن حتميات التاريخ وهجراته الكبرى تفرض نفسها أحياناً على الملوك...

وتسارعت حركة اندماج الليبيين في الحياة اليومية أثناء فترة حكم الرماسيس الأخيرين،حيث ظهرت سلالات ليبية حقيقية في صفوف حكام المحافظات والقيادات العسكرية. كان الليبيون كغالبية البرابرة الذين تم قبولهم في وليمة الحضارة بارعين في أمور الجيش. كانوا مقاتلين يُخشى بأسهم، مضرسين في الحروب بفضل قساوة الصحراء وعلوم شعوب البحر القتالية، التي زادت من حدة هذا الجانب الحربي فيهم. وعندما أصبحت مصر في عهد الرمسيسين الأخيرين وسلالة مغتصب العرش حريحور/ Herihour فريسة للفوضى، بات لاتحاد القادة الليبيين ثقلاً مهماً؛ فبعد زمن ليس بالبعيد سيتجرأ ضباط اقليم الدلتا، وللمرة الأولى، على الطمع في عرش الرماسيس.

لم تكن هذه النهاية لتخطر على بال رمسيس الثالث،فهو قد يتفهم غزو البرابرة لبلاده، إذ طالما كان الخطر خفياً ولكن القتال ظاهر... أما أن يقوم الليبيون الممصرون بالمطالبة بعرش الرماسيس، فهو أمر لم يكن ليتوقعه أبداً ويُظهر إلى أي درجة من الانحطاط كانت حضارة النيل تسير.

في القرن العاشر قبل الميلاد، استغل الأمراء الليبيون الصراع الدائر بين فروع عائلة حريحور/ Herihor واستولوا على العرش وأسسوا السلالة الثانية والعشرين... يا له من انتقام تاريخي! فعبيد رمسيس الثالث الذين ظلت مصر تطاردهم خلال ألفي عام يتولون شؤون البلاد لمدة قرنين.. ولكن بأي صفة استحقوا عرش الفراعنة المزدوج؟

من المؤكد أن طبيعة حياتهم باتت أقرب إلى المصريين منها إلى أجدادهم رحّل الصحراء؛ فلم يعد هناك شيء يميزهم عن هؤلاء الحضريين، وتعيش بناتهم حياة البلاط المرهفة نفسها. ولكن التاج الذي استولى عليه شيشونك/ sheshonq - أول ملك ليبي - وورّثه لأبنائه وأحفاده لم يعد له قيمة؛ فدم آمون لا يجري في عروقهم،وهم لا يستطيعون التباهي بأنهم المصطفون من قبل معبد الأرباب، حامي الحياة في هذه الدنيا. أما جموع الفلاحين التي ترى في الفرعون الوسيط بين القوى الخفية والبشر، فهي قد خضعت لهم كما يحني قطيع العبيد رأسه أمام سيد متوحش. كيف سيتم التحالف إذاً، من الآن فصاعداً، بين شعب وحدّه النيل الوحشي الذي وهب الوادي الحياة،ورجل يتمتع بكل التكريم والاحترام طالما أنه يتحكم بمجرى الأمور ويسيرها وفق المصلحة العامة؟

لم يبق من هذه الملكية سوى المظاهر الخارجية التي تخدم كبرياء هؤلاء المحاربين الأقوياء؛ أما الفرعون، فلم يعد له وجود في الألف الأول ق.م. ومنذ ذلك الحين أصبحت مصر شبيهة بأي مملكة أخرى، كمملكة الأناضول أو الهضبة الإيرانية، بل لنقل بإيطاليا

بعد أن انطفئت الهالةالتاريخية المحيطة بها. فما حصل في البلدين متشابه جداً؛ فهناك شعب حضاري يتمتع بالثراء والقوة ويحكم إحدى الأصقاع، ولكنه سرعان ما يثير أطماع الأعراق الحسودة التي تبتلعه بمسيرتها وتأخذ منه شيئاً فشيئاً بعض صفاته الحضارية، قبل أن يضعف ملوك هذا الشعب الذي كان منارة فيما مضى وتحول فيما بعد إلى شعب خمول يعيش على أطلال حضارته. وهكذا يترك الحكام المتكاسلين للأمراء البرابرة عناء الاستمرار في حكم بلادهم، وينتهي الأمر بتعايش الملوك القدامى مع أولئك الذين سلبوهم العرش.

لكن المملكة لا تكفي لبناء حضارة،فالحضارة بحاجة إلى كثير من العناصر الأخرى التي نادراً ما تجتمع في ممالك تلك المرحلة غير المستقرة. أول هذه العناصر هي الاستمرارية؛ فبناء مصر الفرعونية استغرق ألفين عام، أما تحطيمها فقد تم في غضون مئة سنة بالكاد بعد موت رمسيس الثالث، آخر فرعون حكيم! ثم تأتي المساحات: فالجزء القابل للزراعة في وادي النيل يمتد من الشلال الرابع أو الخامس في جنوب نوبيا، ثم يلتف النيل حول نفسه في الصحراء في تعرجات تمتد على مساحة ألفي كيلومتر على الأقل. فالبلاد تحتاج إذاً إلى ملك قدير شديد الاستيعاب لمهمته ومتحمس لها. وحده هذا الملك يستطيع قيادة الوادي الضخم كما يجب؛ ويشاركه في هذه المهمة شعبه الواثق بواجبه الإلهي التأسيسي، الخاضع للقوانين التي وضعها رجال دين وهبوا أنفسهم بالكامل لمهمتهم الروحية. لن يستطيع ملك عادي لا تجري في عروقه الدماء الإلهية أن يحكم مثل هذه الامبراطورية؛ لذلك لن يكون الملوك الليبيون سوى أسياد مكان، أسياد الشمال أو أسياد مصر الوسطى، تماماً كسابقيهم من حكام السلالة الواحدة والعشرين الذين اختبئوا في طيبة.

أدرك الملوك الليبيون عجزهم عن محاربة المصريين في الجنوب ومواجهة الانقسامات في الدلتا بآن واحد؛ ومع ذلك لم يكن الأسوأ قد حدث بعد. فالتقسيمات تشعبت حتى أضحى عدد الممالك في مصر كعدد المناطق والأقاليم، أما الكارثة فهي في صعود موجة جديدة في الجنوب، من نوبيا هذه المرة،يطالب فيها أهل هذه البلاد بحصة من الجثة المصرية. حدث ذلك في منتصف القرن الثامن قبل الميلاد، حيث حمل بيانخي/ Piankhi، أحد النوبيين من طبقة الأمراء، راية الثورة، وجمع جيوشه السوداء على حدود مصر الجنوبية متأهباً للقتال.

ما الذي حل بالنصب التذكارية الانتقامية التي بناها رمسيس الثالث في بلاد كيش بعد معاقبة القادة النوبيين الذين شاركوا في مؤامرة بنطعور Pentaour ؟ أضحت حجارة قديمة منسية كحطام القلاع التي بناها عشرات الفراعنة في مراحل تقدمهم المنتصر نحو

الجموع الافريقية، هذه الجموع التي كانوا يقمعوها ما أن يسامرهم الشك في محاولتها التمرد. كان رمسيس الثالث الفرعون الأخير والرجل الأخير الذي فرض نفسه بالسلاح على رجال كيش؛ واليوم، يدور التاريخ مرة أخرى،فيصعد المحاربون النوبيون نحو الشمال للبحث عن عدو شجاع بما فيه الكفاية ليتحدى حراس بيانخي/ Piankhi السود. كان الليبيون بانتظارهم قرب الأهرامات الكبيرة؛ هناك بدأ الشعبان، العبدان فيما مضى، يتذابحان من أجل عرش مصر...

كان النصر من نصيب الطرفين، فالليبيون احتفظوا بمملكتهم في الدلتا، أما النوبيون فقد بسطوا هيمنتهم على جنوب البلاد ووسطها لمدة قرن. لم تكن المملكة النوبية بناءً سياسياً هشاً، بل كانت استمراراً للحضارة المصرية؛ ولا تزال الأهرامات الجميلة المبنية فيما وراء حدود مصر الجنوبية تشهد حتى أيامنا هذه على عظمة هذه الامبراطورية المتأخرة.

قد لا تلقى الأهرامات الجنائزية الغريبة في السودان إعجاب الكثير من معاصرينا، ولكنها رغم ذلك مقتبسة بعض الشيء عن الأهرامات التي بناها كبار الفراعنة المصريين في الشمال البعيد، قبل ما يقارب الألفي عام. كان المهم بالنسبة لملوك الجنوب هؤلاء هو على الأرجح الظهور بمظهر الفراعنة الجدد؛ ولكن بلادهم النوبية الغارقة في سهول السافانا العميقة في قلب أفريقيا السوداء لم تكن لتتفوق يوماً على مصر العظيمة؛ فلا شيء يضاهي الواحة الجميلة الممتدة بروعة حول مصب النيل، والمنعزلة بما يكفي لكي تنمو وتزدهر كما يحلو لها، ولا سيما أنها مفتوحة في الدلتا على عالم البحر الأبيض المتوسط ورياحه الغنية بالتجديد الدائم.

وبدأ النزاع بين صغار الملوك،وبدأت السلالات الملكية تظهر هنا وهناك في وقت واحد وتتشعب أحياناً. ففي الدلتا، قلب مصر الجديد، ظهرت السلالة الليبية الثانية والعشرين وحاولت احتواء ملوك السلالة الثالثة والعشرين التي تأسست في بوباست/ Bubaste في الدلتا، كما ظهر أيضاً العديد من الأمراء المحليين في الشمال وأسسوا عائلة ملكية لم تستمر طويلاً، لقبت بالسلالة الرابعة والعشرين. أما النوبيون في الجنوب فقد استمروا بالحكم حتى السلالة الخامسة والعشرين؛ وفي نهاية المطاف توصل ملوك نوبيا إلى حكم البلاد كلها. وهكذا تم أخيراً توحيد الوادي من جديد؛ ولكن هل ستمنحه هذه الوحدة في ظل فراعنة السودان حياة جديدة؟ لقد استقر الكهنة النوبيون في المعابد الكبرى وتم الاحتفال بالملوك الجدد؛ ولكن مصر ببنائها السياسي الجديد لم تعد تملك أي معنى تاريخي. وفي بداية القرن السابع قبل الميلاد تجسدت آخر مخاوف رمسيس

الثالث، حيث ظهرت جيوش إحدى الامبراطوريات الآسيوية في أفق النيل وهي تسير نحو الوادي الخصب. لم يستطيع النوبيون الذين لم يدعمهم أبناء النيل أن يقفوا في وجه هذه الجيوش، فكانت الهزيمة، وكان الانحطاط الأخير لوطن رمسيس الثالث؛ فهذه المرة كانت مصر تخاطر بوجودها...

* * *

اليوم، أصبحت الضيعة الصغيرة الغارقة في حقول طيبة الواسعة والمعروفة باسم مدينة حابو/ Medinet - Habou إحدى المحطات المتميزة بالنسبة للمسافرين من الأقصر إلى وادي الملوك. في باحة النزل المليئة بأشجار النخيل،يستطيع ضيف اللحظة أن يتمتع ببرودة المقاعد الآجرية المنتشرة بجمال حول الباحة، دون أن يخطر على باله بأنه يطأ الأرض التي كانت آخر شاهد عظيم على الحضارة المصرية!

ستكون مدينة حابو/ Medinet - Habou آخر الإنجازات العظيمة في العاصمة طيبة كما كان مؤسسها رمسيس الثالث آخر فرعون عظيم. هل تعبّر رسومها الجدارية عن هاجس أسطوري، أم هي شاهد على فن تحرر من القوانين الجمالية الصارمة المتبعة منذ عهود الامبراطورية القديمة؟ في شتى الأحوال، كانت الرسوم مصدراً غنياً لمعرفة وقائع ذلك الزمن؛ وهي تبدو وكأنها فن تعبيري، يعبر عن حضارة كبيرة في طريقها إلى الزوال. ويترجم تنوع الأشكال والمغالاة في إبراز التقاطيع وصخب الأحداث التي تسردها النقوشات الحجرية قوة الفرعون بشكل لا يضاهى. لقد ترك رمسيس الثالث في قصر ملايين السنين صورة عن زمنه، وهي صورة غنية جداً رغم مغالاتها في التمجيد.

فيما وراء عظمة المواكب والبذخ الفرعوني والبسالة الملكية التي عني النساخ بإبرازها ووضعها في المقدمة،كانت الدوامة الأسطورية، أسطورة الشعوب الخليطة المدونة على هذا الكتاب الحجري، هي ما أدهش علماء الآثار. كان يبدو وكأن الخليقة كلها اجتمعت من أجل مجد الفرعون المنتصر على الغزاة؛ فسرد أحداث المعارك وذكر أرتال المهزومين يخبرا عن خليط الشعوب التي قهرها سليل فراعنة النيل. وفي نهاية المطاف، في القرن السابع قبل الميلاد، يواجه خلفاء رمسيس الثالث الضعفاء نفس التحدي الذي واجهه الملك العجوز ـ أي إنقاذ الوادي من الغزو ـ ولكن دون أية ورقة رابحة، دون أية وسيلة للنجاح من تلك الوسائل التي سمحت للقدماء بصد هجمات الغرباء.

للمرة الثالثة تظهر سحابة الأعداء في الأفق الممتد نحو الشرق. لطالما كان الشرق أرضاً خصبة خرجت منها كل شعوب حوض البحر الأبيض المتوسط العظيمة. كان الجيش

الغازي هذه المرة مختلفاً تماماً عن أقوام شعوب البحر البربرية، فهو مؤلف من فرق مسلحة اشتهرت بشراستها وحسها القتالي: إنها جيوش الآشوريين التي تتقدم لتدخل التاريخ.

كان رمسيس الثالث قد سمع بهؤلاء الملوك الصغار الذين حكموا في منطقة بلاد الرافدين ثم أصبحوا شيئاً فشيئاً أسياد الشمال الخصب؛ فالمملكة الآشورية التي بُنيت حول مدينة آشور، أول مركز مدني فيها، ولدت في زمن الامبراطورية الجديدة. ولكن كبار الفراعنة الفاتحين ـ كعشيرة التوت موزيس/ Toutmosis مثلاً ـ لم يأتوا على ذكرها؛ ولا تشير نقوشاتهم أو مراسلاتهم إلى أي خوف من سكان وادي دجلة هؤلاء. ذلك أن كبار الملوك الحثين قاموا في تلك العصور التي تعتبر الأوج بالنسبة للأمبراطورية المصرية بالحد من تعاظم قوة هؤلاء القادمين الجدد وتصغير مكانتهم في رقعة القوى الشرقية الكبرى.

عندما أراد رمسيس الثاني الأسطوري مد نفوذه إلى الشرق اصطدم بالحثيين في قادش الواقعة على نهر العاصي، ولكنه استطاع بقوته الكبيرة أن يزعزع التوازن هناك. كان الآشوريين حيئذ حلفاء الحثيين، ولكن هجمات عرباتهم القتالية المميتة لم تكن قد توصلت بعد إلى إثارة الرعب في نفوس الجنود المشاة المصريين.

واستمر الخلل في الشرق حتى زمن رمسيس الثالث،ولكن عند موته أصبح وادي النيل تحت رحمة الغزاة. كانت الامبراطورية الحثية، عدوة مصر الأبدية التي استهلكتها السنون،قد قضى عليها الوباء الذي أضعف بلاد النيل، ألا وهو شعوب البحر. وفي القرن العاشر قبل الميلاد، عندما كانت مصر غارقة في الفوضى والنزاعات بين السلالات الملكية التي تتفق جميعها في كونها غير شرعية، ظهر آشور نازيبال/ Assournazipal الذي منح القوى الآشورية الجديدة المجد، فخلصها من الوصاية الحثية وجعل منها سيدة على المنطقة الداخلية من سوريا بعد سلسلة من المذابح التي ارتكبتها في حق شعوب البلدان المفتوحة. ثم انطلقت جيوش المملكة الآشورية، وللمرة الأولى، نحو الغرب، لتحط رحالها في نهاية المطاف في أرض النيل.

لم يستطع أحد الصمود أمام أسراب الخيالة الآشوريين وعرباتهم القتالية الكثيرة؛ ففلسطين مُزقت وسوريا أضحت حطاماً. وخلال عدة عقود وقعت كل السواحل الشرقية للبحر الأبيض المتوسط في قبضة أمراء آشور. وبدأت الجيوش الغازية مسيرتها نحو بلادالنيل. لم تكن القلاع التي بناها رمسيس الثالث في الصحراء سوى قش بالنسبة لهذه الكتائب المحاربة التي اشتهرت بشراستها، والتي زرعت الموت في مدن بأكملها، فشردت النساء والأطفال وحطمت البلاد.

كم من المدن عادت إلى الهمجية البدائية تحت ضربات هؤلاء الغزاة! بابل، القدس، وغيرها الكثير؛ هل ستكون طيبة وتانيس/ Tanis هما الضحية في المرة المقبلة؟ لم يعد رمسيس الثالث حياًليحرك الجموع المصرية؛ ولكن هل كانت عرباته القتالية التي اشتُهرت في الشرق كله ستستطيع مقاومة هؤلاء المحاربين ذوي اللُحي والشعور الطويلة المضفورة على ظهورهم؟ لم يشأ التاريخ هذه المواجهة، ولم يعد أمام المحاربين الآشوريين الذين قدموا من نينوى،عاصمتهم الجديدة، خصوماً أقوياء.في القرن التاسع قبل الميلاد، دخل الغزاة إلى الدلتا ونهبوا بلاد رمسيس الثالث؛ وبعد عدة سنين، ظهر آشور بانيبال، أحد الملوك العظام في هذه الامبراطورية الشرسة، واستولى على طيبة وعلى كنوز رماسيسها.

لم تشهد عاصمة الجنوب الجميلة حتى هذا التاريخ القدري اعتداءً على البلاد بكاملها، ولم تعرف مدينة آمون التي كانت مركز السياسة والدين في مصر منذ زمن الامبراطورية الوسطى، ذلك الزمن البعيد الذي يعود إلى أكثر من ألف عام إلى الوراء، لم تعرف الدمار أبداً حتى قدوم الغزاة الآشوريين. فالهكسوس أنفسهم رغم عرباتهم القتالية التي لم تكن معروفة آنذاك في الوادي لم يستطيعوا النزول إلى هذا الجنوب المعزول جيداً، وكأنه يرمز إلى مقاومة مصر لأخطار العالم الخارجي. وقد احترمت السلالات النوبية التي كانت آخر من حكم البلاد قدسية هذا المكان الذي يرمز بقوة إلى سلطانهم وإلى قصر ملايين السنين،الذي تنتصب أسواره بشموخ رغم عبثيتها بعد موت رمسيس الثالث.

تلقت مصر الضربة القاضية من جنود آشور بانيبال المرتزقة؛ فقد انقضّت جيوشه على الوادي واتجهت نحو الجنوب مخلّفة ورائها آثارها الدموية على طول مجرى النيل،وانتشرت الحرائق،وتشرد الأحياء، وعم الرعب في البلاد التي شهدت من المصائب في هذه الأشهر القلائل أكثر مما عرفت خلال آلاف السنين على مدى التاريخ. احترقت طيبة وانهارت هياكل معابدها التي رممها رمسيس الثالث، وتحطمت الأعمدة من لهيب الحرائق،وطالت ألسنة النار النقوشات الحجرية فأصبحت رماداً أسود يبكي حضارة النيل المقتولة...

انقض هؤلاء المحاربون الدمويون القادمون من الشرق الأوسط على فريستهم الملكية على ثلاثة مراحل، فمرور الآشوريين في الوادي كان سريعاً في كل مرة؛ ذلك أن المناطق الأخرى التي احتلوها في الشرق كانت دائماً تقوم بانتفاضات لكثرة ما ارتكبت جيوش هذه الامبراطورية التي تعد أكثر امبراطوريات العالم القديم توحشاً من فظاعات بحق أهلها. ولكن بلاد رمسيس الثالث أهينت وأصبحت منذ دخول هؤلاء الغزاةالشرقيين محرومة من كل العناصر التي جعلت منها فضاءً متميزاً وناشراً للحضارة.

لم يعد هناك ملوك في مصر، فالحكام النوبيون الذين كانوا آخر من حكمها أصيبوا بالرعب من تدفق المحاربين الآشوريين، فلجؤوا إلى أعماق الوادي السوداني على بعد مئات الكيلومترات في الجنوب، متنازلين بذلك عن تراث آخر فرعون عظيم بعد أن أصبح من الصعب عليهم حمايته. ثم قايضوا التاج المزدوج العظيم بتسريحة الرئاسة الافريقية، وغرقوا في تفاهة الحياة المحلية، فنسيهم التاريخ. أما الوادي الجميل ذي الثروات الكبيرة التي كان يشرف عليها الفرعون ورجاله، فقد غرق في الفوضى واختل تنظيم ثرواته. وتجزأ الجنوب وعاد إلى الوحشية البدائية، وأصبحت مصلحة كل مقاطعة محدودة بخط الهضاب الذي يحدها. كيف يمكن لحكام مصر الذين هجروها أن يعيدوا إحياء الحضارة الفرعونية في ظل هذه الظروف؟ هل سيفعلون ذلك وهم مختبئون في أعماق الأدغال الأفريقية؟ إنه ضرب من المستحيل.

سمح الهيجان الآشوري لبعض المصريين في الدلتا أن يمسكوا بزمام الأمور في بلادهم من جديد؛ ولكنهم باتوا يجهلون كل شيء عن منطقة طيبة المنعزلة دون موارد حياتية. أضحت المنطقة المنتجة في مصر محدودة الآن بالشريط المطل على البحر الأبيض المتوسط في البلاد، وباتت شعوب الدلتا العاملة تنظر من الآن فصاعداً إلى الشمال، إلى هذا البحر الكبير الذي ستخرج منه قوى جديدة تحكم الشرق في المستقبل: آثينا وروما.

لقد قُضي على حلم رمسيس الثالث، فإعادته للوحدة المصرية عبر التأثير المتبادل بين أرض الجنوب والدلتا لم تخفق فحسب - وذلك منذ نهاية حكمه - بل لم يعد لها أي معنى. في زمن فراعنة الامبراطورية القديمة كانت مصر تعني الجنوب، أما اليوم،فالدلتا وحدها تستطيع الادعاء بأنها مصر المعترف بها دولياً؛ فمصر الجنوب كانت غارقة في الفقر والانعزال الافريقي، غارقة في انحطاط يرثى له.

في القرنين السابع والسادس قبل الميلاد كان آخر ملوك الدلتا يتباهون بانتمائهم إلى سلالات عريقة، ولكنهم لم يستطيعوا خداع أحد؛ فمصر لم تعد قوية،وباتت تعرج كمتسول فقد أحد أعضائه. لقد أهمل أسيادها الجدد تاريخها الطويل في الوحدة،وكان رمسيس الثالث آخر من حفر على جدران قصر ملايين السنين قصص جموع الأسرى المنهارة أمام قدمي عظمته. أي تناقض هذا مع مصر الدلتاوية التي ستستدعي بعد خمسة قرون آلاف المرتزقة لكي تحافظ على استقلالها! كان جل هؤلاء المرتزقة من اليونانيين، فهم وحدهم قادرون على إبعاد جيوش الممالك الآسيوية بعد أن فقدت مصر سمة الاكتفاء الذاتي.

في الشرق، في خضم الزوبعة التي أثارها الآشوريون بطموحهم الجارف، ولدت ممالك جديدة استطاعت الوقوف في وجه الآشوريين والقضاء عليهم. من الهضبةالإيرانية خرج الفرس، فأحرقوا عاصمة بلاد الرافدين واتجهوا ككل الفاتحين العظام في حوض البحر الأبيض المتوسط إلى وادي النيل، إلى هذه الفريسة المغرية، الضعيفة، ولكن الغنية بثروتها البشرية ومخزونها الكبير من القمح.

وتوالى الغرباء على الوادي التعس يستعبدونه الواحد تلو الآخر، من الاسكندر الأكبر حتى الرومان. وإذا كانت الجميلة كليوباترا قد نجحت في أن تصبح رمز العظمة المصرية، فلا ننسى أنها كانت ملكة من أصل يوناني تنتمي هي وأهلها إلى سلالة أحد قادة جيش الاسكندر، وهو بطليموس Ptoleme . في تلك الأزمان البعيدة التي راحت فيها روما تفرض نظامها على العالم، لم يعد اسم رمسيس الثالث يوحي بشيء؛فقد أضاع العلماء آثار الكتابة الهيروغلوفية المقدسة، ولم يعد أحد قادر على فك رموزها؛ وكذلك تبعثرت حجارة المعابد في رمال الصحراء، ودُنّست مومياء رمسيس الثالث كالكثير من جثث الملوك الأخرى.

لقد هزم الزمن رمسيس الثالث الذي طالما عمل في حياته على احترام ذكرى العظماء.

التسلسل الزمني العام للأحداث في مصر

- في حوالي العام ٣٠٠٠ قبل الميلاد: توحيد الوادي وظهور السلالات الأولى: نارمر/ Narmer يؤسس السلالة الأولى.
- الامبراطورية القديمة: (من السلالة الثالثة حتى السلالة السادسة) من القرن الثامن والعشرين حتى القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد: عصر الأهرامات الكبيرة في ظل السلالة الرابعة:
- مصر تضم نوبيا
- ممفيس عاصمة الفراعنة
- تتمتع البلاد المصرية بدرجة عالية من الحضارة والتنظيم.
- نهاية الامبراطورية القديمة في القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد نتيجة اضطرابات داخلية.
- المرحلة الانتقالية الأولى: تستمر حتى نهاية الألف الثالث قبل الميلاد،تتنافس خلالها عدة سلالات محلية على العرش.
- الامبرطورية الوسطى: أسسها أمراء طيبة ـ العاصمة الجديدة: تستمر من القرن الواحد والعشرين حتى القرن الثامن عشر قبل الميلاد ويحكم خلالها السلالاتين الحادية عشر والثانية عشر.
- أعاد الفراعنة النظام، فنظموا جهاز الدفاع في البلاد وطوروا العلاقات مع أفريقيا.
- نهاية الامبرطورية الوسطى في القرن الثامن عشر قبل الميلاد إثر اجتياح الهكسوس الذين قدموا من الصحراء السورية.

ـ المرحلة الانتقالية الثانية:

ـ تتنازع عدة سلالات محلية على العرش، وتتحكم السلالات التي أسسها الهكسوس بالدلتا خلال قرنين من الزمن.

ـ في القرن السادس عشر قبل الميلاد قام أمراء طيبة بتوحيد الوادي وإبعاد الهكسوس، وأسس احموزيس/ Ahmosis الامبراطورية الجديدة وأصبح الفرعون الأول في السلالة الثامنة عشر العظيمة، التي سترفع الامبراطورية المصرية إلى القمة. وينتمي معظم الفراعنة العظام إلى هذه السلالة، وقد حكموا من القرن السادس عشر حتى القرن الرابع عشر ق.م.

ـ توت موزيس الأول/ Thoutmosis ١: امتدت الامبراطورية المصرية في عهده إلى آسيا.

ـ حتشبسوت: ابنته، وهي الفرعونة الوحيدة في التاريخ.

ـ توت موزيس الثالث/ Thoutmosis ٣: فرعون غازٍ في امبراطورية وصلت إلى القمة.

ـ امينوفيس الثالث/ Amenophis ٣: كانت الامبراطورية المصرية في عهده تعاني من منافسة الحثيين.

ـ امينوفيس الرابع/ Amenophis ٤: امبراطور هرطقي مجّد العبادة التوحيدية وخص بها آتون، واتخذ اسم أخنتون.

ـ توت عنخ آمون: فرعون شاب اتسم حكمه بالغموض والضعف وبداية انحطاط هذه السلالة، ولولا قبره الذي نجا بأعجوبة من عصابات النهب لما كان له مكان في التاريخ.

ـ استولى بعض قادة الجيش في الدلتا على الحكم وأسسوا السلالة التاسعة عشر،التي كانت تصطدم دائماً بالحثيين وأخطار الغزو الخارجي. مع موت هذه السلالة يُسدل الستار على أمجاد الامبراطورية الجديدة. ويعتبر سيتي الأول Sethi وابنه رمسيس الثاني الذي حكم أكثر من ستين عاماً في القرن الثالث عشر قبل الميلاد من أعظم فراعنة هذه السلالة.

ـ انتهت هذه السلالة في نهاية القرن الثالث عشر قبل الميلاد في ظل الفوضى واغتصاب العرش، الأمر الذي سمح لسيتنخت حمل مشعل الوحدة من جديد وتأسيس السلالة العشرين، سلالة رمسيس الثالث.

ـ تفتتح السلالة العشرين عصر الانحطاط النهائي لمصر اعتباراً من القرن الثاني عشر ق.م، وذلك رغم حكم رمسيس الثالث الاصلاحي.

- السلالة الواحدة والعشرون: أسسها مغتصب العرش حريحور/ Herihor ولم تستطع الحفاظ على وحدة البلاد المصرية.

- السلالة الثانية والعشرون: هي سلالة ليبية؛ والسلالة الثالثة والعشرون والرابعة والعشرون والخامسة والعشرون هي سلالات ليبية ونوبية تقاسمت البلاد. ويعتبر بيانخي/ Piankhi النوبي ملك مهم في القرن الثامن ق.م.

- القرن السابع قبل الميلاد يشهد ثلاث غزوات آشورية دمرت البلاد.

- السلالة السادسة والعشرون: استطاعت أن تسيطر على مصر كلها من جديد في ظل حكم بساميتيك/ Psammetique ، ولكن بمساعدة جيش من المرتزقة اليونانيين. يمثل هذا العصر انعكاساً شاحباً للحضارة الفرعونية، حيث أصبح سيد مصر حاكماً بسيطاً فقط.

- في القرن السادس قبل الميلاد: قام الفرس بغزو مصر وحكموها لمدة قرنين وادعوا اللقب الملكي، حيث أسسوا السلالة السابعة والعشرون، ثم شهدت مصر رجوع ملوكها في السلالات الثلاث الأخيرة، حتى حكم الأمير نكتانيبو/ Nectanebo .

- في القرن الرابع ق.م: عودة الفرس، ثم غزو الاسكندر المقدوني لمصر في العام ٣٣٢ ق.م.

- من العام ٣٢٣ حتى العام ٣٠ ق.م: تقود سلالة البطالمة اليونانيين مصر؛ وهي سلالة قائد جيش الاسكندر الذي حكم البلاد بعد موت سيده. وقد امتزجت الحضارة اليونانية في مصر، كما في كل مكان آخر من الشرق الأوسط، بحضارة البلاد المحتلة.

- في القرن الأول قبل الميلاد حاولت الملكة كليوباترا السابعة التلاعب بالقادة الرومانيين الذين كانوا آنذاك يتصارعون في حرب أهلية حددت نهاية الجمهورية الرومانية،فتحالفت مع قيصر ثم مع انطونيو، ثم هزمتها الجيوش الرومانية المعادية لانطونيو،فانتحرت وخسرت مصر استقلالها وأصبحت منذ ذلك محافظة رومانية بسيطة.

- بعد أن دُمجت مصر في الامبراطورية الرومانية الشرقية أصبحت أرضاً مسيحية وبيزنطية، إذ كانت الجزء الشرقي الوحيد من الامبراطورية الرومانية الذي قاوم البرابرة،ثم غزتها الجيوش الاسلامية في القرن السابع الميلادي.

التسلسل الزمني للأحداث في مصر في زمن رمسيس الثالث

- يفقد توت عنخ آمون سلطته شيئاًفشيئاً ليكتسبها حورمحيب/ Horemheb في منتصف القرن الرابع عشر قبل الميلاد. ثم استولى هذا الأخير على الحكم وأنهى السلالة الثامنة عشر؛ ولكن العرش آل إلى قائد آخر في الجيش وهو رمسيس الأول، الذي أسس السلالة التالية.
- السلالة التاسعة عشر (١٣١٤ ـ ١٢٠٠ ق.م):
- رمسيس الأول: قائد متقدم في السن لم يحكم إلا عامين.
- سيتي الأول/ Sethi (١٣١٢ ـ ١٢٩٨ ق.م) قاوم الحثيين والليبيين.
- رمسيس الثاني (١٢٩٨ ـ ١٢٣٥ق.م): حاول توطيد سلطته في آسيا كالحاكمين اللذين سبقوه، ولكنه خسر معركة قادش أمام الحثيين عام ١٢٩٤ق.م).
- ميرنبتاح/ Merinptah : الفرعون الأول الذي واجه شعوب البحر.
- الوزير امينميس/ Amenmes يغتصب العرش لمدة ٤ سنوات.
- سيتي الثاني Sethi : أعاد الشرعية الملكية في العام ١٢١٣ ق.م، ولكنه توفي بعد ست سنوات تاركاً العرش لأرملته تاوزت/ Taouset ، ولعشيرتها السورية، بعد أن تخلى ابنه وخليفته رمسيس سيبتاح ـ Ramsis - siptah عن التاج.
- استولى سيتنخت على السلطة وطرد مغتصبي العرش وأصبح الفرعون الأول في السلالة العشرين،وحكم من العام ١٢٠٠ حتى العام ١١٩٨ ق.م، وقد أشرك ابنه رمسيس الثالث من زوجته تيي في الحكم. ولد رمسيس الثالث في حوالي العام ١٢٣٣ ق.م، وتوفي سنة ١١٦٨ بعد حكم دام إحدى وثلاثين عاماً. وقد واجه شعوب البحر ثلاث

مرات وانتصر عليهم في الأعوام ١١٩٣ ، ١١٩٠ ، ١١٨٧ ، وقام بالكثير من الإصلاحات الإدارية في السنوات التالية من حكمه.

- تميزت السنوات الأخيرة من حكم رمسيس الثالث بثورة الدلتا بقيادة وزير الشمال، وبمؤامرة تيي ـ زوجة الحاكم الثانية ـ وابنها بنطعور/ Pentaour في العام ١١٦٨ . هذه المؤامرة عجّلت في نهاية الفرعون الأخير الجدير بهذا الاسم.

- رُزِق رمسيس الثالث وزوجته الأولى إيزيس بالعديد من الأبناء الذين سيشكلون هم وأحفادهم الاستمرار لسلالة الرماسيس من العام ١١٦٨ حتى العام ١٠٨٥ . لقد تولى رمسيس الثالث الحكم في سن متأخرة، لذا ورّث التاج بدوره لأبناء متقدمين في السن، الأمر الذي يفسر قصر مدة حكم كل من:

- رمسيس الرابع (١١٦٨ ـ ١١٦٢): الابن البكر لرمسيس الثالث.

- رمسيس الخامس (١١٦٢ ـ ١١٥٨): ابن رمسيس الرابع.

- رمسيس السادس (١١٥٨ ـ ١١٥٣): شاب من أبناء رمسيس الثالث أو بنطعور/ Pentaour ، ماتت إيزيس في عهده.

- سيتوالى أيضاً خمسة رماسيس على الحكم حتى العام ١٠٨٥ ، الذي قام فيه الرجل المفضل لدى رمسيس الحادي عشر ـ حريحور/ Herihor باغتصاب العرش ووضع حد للسلالة العشرين. أسس حريحور / Herihor السلالة الحادية والعشرين، ولكنه عجز عن فرض نفسه على وزير الدلتا، فانقسمت مصر إلى عدة ممالك حتى زمن الغزوات الأجنبية.

معجم المفردات

- الأخيون: إحدى الشعوب المؤسسة لليونان، نتجت عن غزوات الهنود ـ الأوروبيين في الألف الثاني ق.م، وامتزجت بالسكان الذين استقروا فيها منذ القدم.
- احموزيس/ Ahmosis : فرعون من طيبة،أسس السلالة الثامنة عشر والامبراطورية الجديدة بعد حرب التحرير ضد الهكسوس.
- تل العمارنة: موقع في مصر الوسطى حيث نقل أخنتون بلاطه وسلطته كردة فعل ضد قوى كهنة آمون وطيبة. وقد هُجرت هذه المدينة الفانية بعد فشل الديانة الأتونية بسرعة.
- آمون: إله طيبة، وقد تم دمجه شيئاً فشيئاً بـ مين/ Min ثم بـ رع/ Re . وتتواكب قوته مع أمجاد عاصمة الامبراطورية المصرية.
- بلاد العموريين: في سوريا قديماً.
- بلاد اليمن السعيد: هي الجزء المليء بالمرتفعات والأكثر رطوبة في شبه الجزيرة العربية، تنمو فيها النباتات العطرية وتدعى اليوم اليمن. كانت هذه المنطقة تشكل جزءاً من مملكة سبأ.
- الآراميون: شعب سكن المنطقة الداخلية في سوريا،وكانت لغته السامية تستخدم بكثرة في الشرق الأدنى في العصور القديمة.
- آشور بانيبال: ملك آشوري من القرن السابع ق.م.
- آشور نازيبال: ملك آشوري من القرن التاسع ق.م.
- البلاد الآشورية: هي الجزء الشمالي من دجلة وبلاد الرافدين، نما شعبها في الألف الثالث قبل الميلاد ونتج عن تمازج السكان المحليين والقبائل السامية. وقد اكتسبت أهمية منذ منتصف الألف الثاني ق.م، حيث سيطرت على كل حوض البحر الأبيض المتوسط الشرقي من القرن التاسع وحتى القرن السابع ق.م، ووضعت حداً للاستقلال المصري.

اتسم حكمها بالوحشية.

- عشتروت: إلاهة سامية دُمجت في زمن الامبراطورية الجديدة في مصر بـ هاتحور / Hathor .

- أتون: إلاهة الشمس الوحيدة التي فرضها الفرعون أخنتون (امينوفيس الرابع Amenophis) خلال فترة حكمه في منتصف القرن الرابع عشر ق.م.

- أتوم/ Atoum : إله الخليقة. في البداية كان مرتبطاً بالماء (بالمحيط الأول)، ثم تأثر بطبيعة رع/ Re الشمسية.

- البا: الروح - العصفور، روح الميت؛ وهي انصهار بالروح الخالدة.

- بعل: إله الحرب في الشرق الأوسط.

- بلاد كنعان: هي بلاد الفلسطينيين، على شواطئ فلسطين.

- شامان Chaman : ساحر المجتمعات الأرواحية، عراف له صلة بقوى الطبيعة.

- السيم: شاطئ صخري يشرف على وادي النيل في غرب طيبة، يخفي وادي الملوك، ويعتبر المدخل إلى بلاد الأموات.

- كليوباترا: السابعة، سليلة بطليموس وسلالته اليونانية المنتمية إلى قائد جيش الاسكندر. انتحرت سنة ٣٠ق.م، وأصبحت بلادها محافظة رومانية.

- دير البحري: اسم عربي أطلق على المكان الذي نُصب فيه المعبد الجنائزي للفرعونة حتشبسوت، الذي تدل شرفته على هندسة مميزة، ولا سيما أنه يستند على شاطئ صخري في طيبة.

- الدوريون: شعوب ساهمت في بناء اليونان وفرضت نفسها على الأخيين في نهاية الألف الثاني ق.م.

- العلاميون/ Elamites : شعب من الهضبة الإيرانية في الألف الثاني ق.م، شارك في تدمير بابل في القرن الثاني عشر ق.م.

- التساعية: عائلة الآلهة التسعة في الميثولوجيا المصرية.

- الأترووريون: من شعوب إيطاليا الوسطى (توسكانيا)، وقد وصلوا إلى القمة في النصف الأول من الألف الأخير قبل الميلاد؛ وتأثراً باليونانيين الذين استقروا في جنوب إيطاليا، فرض الأترووريون أنفسهم بدورهم على مدينة روما اليافعة،قبل أن يخضعوا لهيمنتها التي كانت في بداياتها ويفقدوا ثقافتهم.

- الجرمانيون: شعب يعيش فيما وراء نهر الراين وحتى اسكندنافيا، وهو شعب مزارع تتمتع عشائره بدرجة عالية من التنظيم. لم يتوصل الرومانيون يوماً إلى إخضاعهم، ولكنهم كانوا عوناً لهم في جنوب الامبراطورية قبل أن يجتاحوها ويدمروها في القرن الخامس الميلادي.
- حمورابي: ملك بابل في القرن الثامن عشر والسابع عشر ق.م، أسس امبرطورية كبيرة سيطرت على كل المنطقة وسن قانون متطور.
- هابي/ Happy : إله النيل، وهو على الأرجح أجنبي المنشأ.
- هاتحور Hathor : إحدى كبرى الإلاهات الكونية، كانت مرتبطة بـ رع/ Re ؛ وهي تجسد الحب والخصوبة.
- العبريون: شعب عاش حياة البداوة بين بلاد الرافدين ومصر خلال الألف الثاني ق.م. استقر العبريون في الأرض الموعودة التي قادهم إليها النبي موسى بعد الهرب من مصر في نهاية الألف الثاني ق.م، وأسسوا مملكة قوية وحدت القبائل في النصف الأول قبل الميلاد، ثم خضعوا للامبرطوريات الكبيرة في المنطقة.
- هيرودوت: عالم يوناني من القرن الخامس قبل الميلاد، وهو أحد مؤسسي علم التاريخ.
- الحثيون: أول شعب من أصل هندي ـ أوروبي استقر في الشرق الأوسط (في الأناضول)، أسس امبراطورية هاتي/ Hatti منذ منتصف الألف الثاني ق.م، ثم فرض هيمنته حتى فلسطين، وانتصر على المصريين في معركة قادش قبل أن تحطمه ضربات شعوب البحر في القرن الثالث عشر ق.م.
- حورس: إله السماء الكبير وابن أوزيريس الذي قام بالانتقام له في معركة ضد سِت. وهو يجسد قوة الفرعون.
- الحوريون/ Hourites : سكان مملكة ميتاني/ Mittanni ، شعب محارب جاء من جبال الشمال في بلاد الرافدين.
- الهكسوس: رحّل ساميون من الشرق الأوسط، دفعتهم الموجة الأولى من الغزوات الهندية ـ الأوربية القادمة من جبال الشمال في الشرق الأوسط نحو مصر. هؤلاء الرحل غزوا مصر في القرن الثامن عشر ق.م، فوضعوا حداً للامبراطورية الوسطى وأسسوا السلالات الخامسة عشر والسادسة عشر التي استقرت في الدلتا.
- يالو/ Ialou : حقول يالو/ Ialou تشير إلى بلاد الموت الواقعة في الغرب من وادي النيل.

- الهنود - الأوربيون: مجموعة شعوب وحدتها اللغة، لا العرق ولا السياسة. هؤلاء الرحل القادمون من أطراف أوروبا وآسيا انتشروا في الألف الثاني ق.م في الهند والشرق الأوسط وأوربا، واختلطوا بالشعوب المحلية.

- الاندس: نهر كبير متاخم لشبه الجزيرة الهندية، حيث تطورت إحدى أقدم الحضارات المدنية في العالم.

- إيزيس: زوجة أوزيرس، إلاهة مرتبطة بالخليقة كما يشير دورها في ولادة رفيقها أوزيريس الجديدة. وسوف يكون لها تأثيراً كبيراً على العالم الروماني كالإلهة كونية.

- الكا: روح الميت.

- قادش: معركة تواجه فيها الفرعون رمسيس الثاني والحثي مواتالي/ Mowatalli في العام ١٢٩٤ ق.م في سوريا على نهر العاصي. وقد حدت هذه المعركة من التوسع المصري.

- الكرنك: معبد آمون الرئيسي في طيبة، وقد تم توسيعه وتجميله باستمرار في ظل حكم سلالات عديدة.

- الكاشيون/ Kassites : شعب من الهضبة الإيرانية، ساد بلاد الرافدين في القرن الخامس عشر ق.م.

- خنوم/ Khoum : إله له رأس حمل،يُعبد بخاصة في جنوب مصر.

- كيش/ Kouch : اسم آخر لنوبيا.

- كتاب الأموات: مجموعة نصوص وصلوات وتراتيل تتوافق - كما يُفترض - مع الصلوات وحاجات الموتى أثناء رحلتهم إلى العالم الآخر. كانت تُنسخ منها مقاطع على القبور وتوضع البرديات إلى جانب الميت.

- مقدونيا: منطقة تقع في شمال اليونان، وقد تأثرت شيئاً فشيئاً بحضارتها رغم أنها لم تكن تشكل جزءاً منها في القدم. في القرن الرابع قبل الميلاد، قام ملوكها بغزو اليونان؛ ويعتبر الاسكندر الكبير أكثر حكامها شهرة على الإطلاق.

- العهد المجدلي: يشكل المرحلة الأخيرة من العصر الجليدي (من الأعوام ٢٠٠٠٠ وحتى ١٥٠٠٠ ق.م) وهو عصر عشائر الصيادون الرحّل والحياة داخل الكهوف؛ تميز بالرسم على جدران الكهوف وبتقنياته المطورة جداً. وهناك العديد من آثار هذا العهد في الجنوب الغربي من فرنسا بشكل خاص.

- دور الحياة: مكان للبحوث الدينية يشكل جزءاً من كل معبد، وفيه تكتب البرديات. ويقيم الكهنة الذين يعملون فيها طيلة حياتهم الشعائر الدينية.

- مصطبة: قبر في جوف الأرض عُرف منذ عصر الامبراطورية القديمة؛ غرفه مزينة برسومات جدارية.

- ميشسر/ Meshesher : ملك الماشواش/ Mashouash : إحدى الشعوب المعادية لرمسيس الثالث أثناء غزوات شعوب البحر.

- مين/ Min : إله الخصوبة، وهو من أصل أفريقي على الأرجح.

- مينوس/ Minos : ملك أسطوري حكم الكريت، وهي إحدى الجزر الشرقية في البحر الأبيض المتوسط، ولدت حضارتها العريقة في الألف الثاني قبل الميلاد واستمرت من القرن العشرين حتى القرن الخامس عشر، واشتهرت بالأعمال الحرفية والتجارة،وبقصورها - المتاهات وفن الرسوم الجدارية... وسوف تؤثر الكريت كثيراً على اليونان وتقيم علاقات تجارية مع مصر.

- ميتاني/ Mitanni : مملكة الحوريين/ Hourrite . ظهرت في الألف الثاني ق.م،وتقع على تخوم الأناضول وبلاد الرافدين، وقد دمرها الحثيون والآشوريون.

- موسى: رسول عبري من القرن الثالث عشر ق.م، قاد هروب القبائل اليهودية من مصر نحو الأرض الموعودة ونقل إليها وصايا الله.

- مونتو/ Montou : إله محارب يُعبد في طيبة.

- موت/ Mout : إلاهة أم يرمز إليها بالنسر.

- الأقواس التسعة: تشمل هذه الكلمة في نظر المصريين الخليقة، أي الكون الذي يقتصر على البحر الأبيض المتوسط وشواطئه.

- الأوبيت: يشير إلى معبد آمون في طيبة.

- أوزيريس: إله الحضارة، قتله أخوة سِت: وهو يرمز لولادة الحياة من جديد، والفضل يعود لزوجته إيزيس بشكل خاص. وهو يحكم كذلك عالم الأموات.

- العثمانيون: أتراك مسلمون من آسيا الوسطى، انتقلوا من خدمة سلالة الأتراك السلاجقة الذين كانوا مستقرين في الشرق الأوسط إلى تأسيس امبراطورية خاصة بهم في القرن الثالث عشر الميلادي. في البداية حكموا الأناضول، ثم امتدت امبراطوريتهم إلى

مجموعة دول البلقان على حساب البيزنطيين، وبلغوا القمة في القرن السادس عشر والسابع عشر حيث حكموا الشرق الأوسط وحوض المتوسط.

- تدمر: واحة مدنية في صحراء سوريا، غنية جداً بسبب موقعها على طريق القوافل بين الشرق والبحر الأبيض المتوسط؛ سكنها الآراميون، وتوسعت في الألفين الثاني والأول قبل الميلاد، ثم خضعت للرومان.
- الفرس: شعب استقر على الهضبة الإيرانية في الألف الثاني ق.م، ثم فرض هيمنته في الألف التالي، ووسع وملوكه الأقوياء امبراطوريته الشاسعة في منتصف الألف الأول ق.م، حيث امتدت على كل الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط.
- شعوب البحر: شعوب من أصل هندي - أوروبي استقرت في السواحل الشمالية للبحر الأبيض المتوسط بعد موجة الغزوات الأولى في بداية الألف الثاني ق.م، ثم طردهم القادمون الجدد، فركبوا البحر في القرن الثالث عشر ق.م ونزلوا إلى الشواطئ الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط، واضعين بذلك الممالك القديمة في هذه المناطق في خطر (كالمملكة الحثية ومصر وحتى إيطاليا). ومن بين هؤلاء الشعوب هناك الـ لوكو/ Loukkou والموشكي/ Mushki والتورّوش/ Turush والشردانيون/ Shardanes وغيرهم من الدانوانا/ Danouana ؛ ومن الصعب تمييز الأصل الدقيق لهذه الشعوب لعدم توافق الشواهد المأخوذة عن مصادر عدة.
- فريجيا/ Phrygie : منطقة في الأناضول المركزية.
- بتاح Ptah : إله كبير، خالق معبد الأرباب المصري، تتعلق به الخليقة وفنون البشر.
- رع/ Re : آلاهة الشمس المبدعة التي تحكم معبد الأرباب المصري.
- سليمان: ملك مملكة اسرائيل وهي في أوجها (في القرن العاشر قبل الميلاد)، وقد بنى معبداً في القدس لأجل يهوه، الإله الوحيد.
- سيخمت/ Sekhmet : إلاهة مخيفة لها رأس الأسد، مرتبطة بـ بتاح/ Ptah ورع/ Re ؛ وهي تجسد الحرب والعقاب.
- الساميون: مجموعات بشرية توحدها اللغة، لا تنتمي إلى عرق واحد وليس لها سياسة واحدة، وقد عاشت في الشرق الأوسط في العصور القديمة.
- شيشونك Sheshonq : ملك ليبي، مؤسس السلالة الثانية والعشرين في مصر، في القرن العاشر ق.م.

- سِت: أخ أوزيريس، إله مبجّل في بعض أنحاء الدلتا، ولكن أنصار أوزيريس يحرمون عبادته.
- التكر: شعب من شعوب البحر، أضحى جرح البحر الأبيض المتوسط بسبب أعمال القرصنة التي كان يمارسها.
- الأرض السوداء: ترمز إلى وادي النيل، أي مصر التي تزداد أرضها خصوبة أثناء الفيضانات التي تحمل إليها الطمي.
- الوزير: كلمة أطلقها علماء المصريات على كبير موظفي الفرعون المكلف بالإشراف على شمال وادي النيل أو جنوبه.

الفرعون الأخير

فوضى وخراب وقبائل جائعة تنهش مصر وتزعزع استقرارها، وطيبة العريقة تأتي متألمة تبحث عن الخلاص. رمسيس الثالث عزم على ألّا يدع الأمور على هذه الحال. لقد أقسم فرعون مصر بأن يعيد الحياة والعظمة إلى مملكته، فلسوف يقنع كهنة أمون ويهزم شعوب البحر وبرابرة الأناضول، ولسوف يعيد بذخ العصور الغابرة إلى بلاده المجيدة. وينجح رمسيس، ويحرز الانتصار تلو الانتصار، ويغرق في نعيم عاصمته المترفة المرهفة. لكن هذه السعادة يؤرقها الشك الذي يقض مضجعه ويضنيه، كما يضنيه خضوعه لزوجته تيي ولخليلاته الجريئات، ولمشيئة كهنة عاصمته طيبة وغيرها من الشرور العديدة التي تأكل صولجانه.

كانت شائعات الحرب تدوي في الشرق، والخطر الكامن يحلق في سماء البلاد داعياً إلى اتخاذ الحيطة ولكن الفاجعة لم تأتِ بها عربات الشرق، بل جاءت بها يد الوزير الخائن، التي استغلت بأسها وقوتها لتنظيم عصيان ثائر. عانى رمسيس الثالث في قمعه أشد أنواع العذاب. لكأن أعماله جميعاً قد ذهبت أدراج الرياح. ها هوذا في شيخوخته المريرة يبحث عن الملاذ، فيجده في الاعتكاف في دور الحياة لدراسة أوراق البردي، فيقرأ أمجاد الماضي البعيد ويختلجه الحنين الحالم إلى عصور انقضت.

إنه آخر فرعون عظيم، إنه رمسيس الثالث الذي طمست ذكره عظمة رمسيس الثاني، فحطت من قدره. ولكنه يستحق أن يُعاد اعتباره؛ وهذا ما تسعى إلى تحقيقه هذه السيرة الأصيلة الآسرة.

دار الكلمة
سورية ــ دمشق
ص.ب: ٤٤٩٠

دار الحصاد
سورية - دمشق
ص.ب: ٤٤٩٠ - هـ/ فا: ٢١٢٦٣٢٦